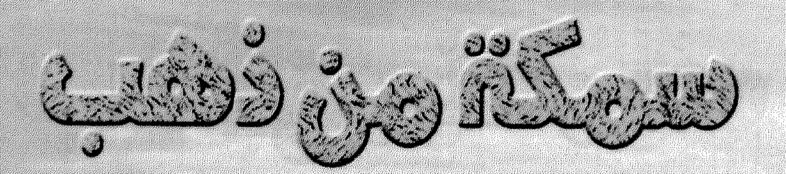


رواية

جان ماري جوستاف لكلزيو



سمكة من ذهب

ترجمة / خلف عبدالعزيز



دار الهدى للنشر والتوزيع



سمكة من ذهب

Poisson d'or
J.-M. G. Leclézio
Gallimard 1997

الكتاب: سمكـــة مـن ذهـــب

المؤلف: جان مارى جوستاف لكلزيو

ترجمة: خلـــف عـــبد العزيـــز

الناشر: دار الهدى للنشر والتوزيع

رقم الإيداع : ١١٥٧٠/٩٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-5822 - 35 -1



المنيا ـ شاهين ـ 6 ش أحمد عرابى
المنيا – عدنان المالكى – 6 ش 15 – شقة 1
ت 086/354576 – 012/3454568
فاكس 086/346713

سمكة من ذهب

تأليف

جان ماري جوستاف لكلزيو

ترجمة

خلف عبد العزيز



تصدير

لكليزيو وظاهرة التعدد اللغوي والحضاري

كـان الروائـى الفرنسـى الشـهير جـى دى موباسـان Guy de Maupassant كثيرا ما يشكو إلى معلمه الروائى العظيم جوستاف فلوبير Gustave Flaubert وإلى محيطيه من المبدعين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشـر ضيـق الأفـق الروائـى وتبعيتـه النصيـة والموضوعيـة، وإمكانيـة محاكاته عبر الأساليب الروائية المختلفـة. وربمـا سـكن خلـف هـذا الاعتقـاد الموباسـانى جـدل فرنسـى حـول حمايـة النـص مـن براثـن التقليـد والمسـخ والمحاكاة، والذى صار بمثابة قضية عنيت بها موائد جمهور النقاد والمبدعين فى فرنسا على مدار القرن التاسع عشر، والذى يعد بحق من أخصـب العصـور الثقافية الفرنسية نظرا لتوافد وتعـاقب شمـوس الحركـات الأدبيـة والفكريـة على الفضاء الأدبى الفرنسى، ونظـرا للصـلات التـى أدارت نوعـا مـن الحـوار

الايدولوجى بين الحضارة والفكر الفرنسيين والحضارات الأوربية المجاورة لفرنسا، مثل إنجلترا التى اوى إليها الكاتب الفرنسى فولتير فى القرن الثامن عشر، والذى نقل عنها إلى الفرنسيين عظمة كتابها والحريات العامة بها ومناهج الفكر فيها، وبين الحضارتين الفرنسية والألمانية من جانب آخر على أيدى أعلام التواصل والتقارب بين الحضارتين أمثال مدام دى ستيل *de Staël Madame*،وأيضا بين الحضارة الفرنسية والحضارات الأوربية المتاخمة لفرنسا من جانب آخر كإيطاليا التى ظلت ومازالت تتبوأ مقعدا رائعا بين روافد الثقافة الفرنسية فى العصور الحديثة، وأسبانيا التى اتيح لها اقتطاف ثمرات حضارتين متباعدتين، هما الحضارة العربية فى العصور الوسطى والحضارة الغربية التى أسهمت فيها بحصتها عن طريق مخلفات وحصاد حضارة عربية بادت وتقهقرت إلى خلف البحر المتوسط بعدما تجاوزته وبسطت سلطانها الفكرى بفضل مفكريها وعلمائها فى هذه البلدان. وما من شك أن هذا التلاقى بين هذه الحضارات جميعا تم إنجازه عبر الرحالة. ولقد عملت هذه الطقوس الترحالية على تأسيس مشروع ترحال للأفكار والموضوعات الأدبية بين هذه الحضارات منذ قرون عديدة. وظل هذا التواصل الحضارى يؤتى ثماره حتى نضج وتأصل فى القرن التاسع عشر.

لقد خلق هذا التقارب الحضارى – الذى يظل قضية يعنى بها الأدب المقارن منفردا – أصواتا عديدة فى النص الأدبى عامة والنص الروائى بصفة خاصة. فتمتعت موضوعات إنسانية بشيوع عالمى وغدا تصور الأدب

الألمانى – على سبيل المثال – لمشكلات العوز والوطنية والإنسانية يناهز ولايتباعد عن مثيله فى الآداب الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والأسبانية كثيراً.

وبالرغم من هذا الترحال الفكرى بين هذه الآداب جميعا وعظمة الصلات الفكرية بينها، إلا أن النص الروائى، باعتباره علامة لغوية من الطراز الأول، ظل سجين قفص الحضارة الواحدة، يعانى ندرة تنصيته وفضائه الحضارى الوحدوى الذى لا يتيح له التجول فى فضاء لغوى آخر، ينتزع مفرداته وخصائصه اللغوية المحددة له.

لقد حاول بعض الأدباء العظام فى العصور الحديثة خلق ما يمكن أن نطلق عليه "التعددية اللغوية" فى النص، وتعميق صوت النص، وتعدد مكوناته اللغوية وتوجهاته الفكرية، وهى الدعوة التى استهلها بعض المبدعين الأوربيين مثل الروائى والفيلسوف الفرنسى فولتير فى نزعته العالمية بقصته، الساذج *Candide*، وتشارلز ديكنز فى رائعته الروائية، قصة مدينتين *A tale of two cities*. بيد أن هذا المشروع التأسيسى وُئدَ من جراء التطرف الحضارى الذى أدت إليه "الشعوبية القومية" ونمو الشعور المرضى بالعنصرية الثقافية فى الأقطار الأوربية التى مازالت – مع التلاحم الاقتصادى الحديث – تخضع لصوت الأقليات الفكرية بها والتى تعد التعددية اللغوية مشروعا تدميريا لا حضاريا.

حتى أن التناص *Intertextualité* باعتباره مشروعا لغويا

يستهوى الكثيرين من اللغويين في العديد مـن التوجـهات اللغويـة العالميـة، ونهجا التقي فيه اللغويون والمنظرون للأدب، لم يكشف لنا – رغم عمره الذى تجاوز الثلاثة عقود – عن عمق تعـدد لغـوى بـالنصوص الأدبيـة، فلقـد سـعى فلاسفة ولغويون كثيرون مثل ميشيل ريفتار ***Michel Rifffaterre*** وبييـر ريكاردو ***Pierre Ricardou*** ومـارك انجنـو ***Marc Angenot*** وبييـر لورت ***Pierre Laurette*** ومن قبلـهما جوليـا كريسـتفا ***Julia Kristeva*** إلى تحطيم الفرض القائل بفردية النص وتبعيته المطلقة لمؤلفه وذلك عـن طريـق التصور بأن لكل نص، نـص قبلـى أو نـص إرجـاعى ***Intertexte***، يـدور فـى فلكه النص. ولكن هذا التوجه اللغوى الذى التف حوله حشد مـن نقـاد الأدب وجمع غفير من اللغويين فـي أوربـا وأمريكـا، وعلـى الرغـم مـن دقـة أدواتـه البحثية والنتائج الهائلة التى توصـل إليـها، ولاسـيما فـى تشـريحه لـلأدب بصفة عامة وحقلى المسرح والرواية بصفة خاصة، فإنه قد توقف عنـد العثـور على الحوار اللغوى والمعنوى بين نصين متباعدين عبر الزمان والمكان.

اليوم، لقـد أصبـح الحديـث عـن "الاسـتنباطية" ***déductisme*** فـى الإبداع أمرا باليا إلى حد ما، فإذا كان فيكتور هوجو ***Victor Hugo*** قد صور الشرق وطبيعته فـى ديوانـه الشـهير الشـرقيات ***Les Orientales*** دون أن يراه، فإن ذلك التصوير لم يخرج خارج نطاق قفصه اللغـوى الفرنسـى وأصبـح صوت النص، رغم اختلاف فضائه، منفردا، يتوافق ومعايير موجودة قبلا.

ومن بين الأعمال الأدبيـة التـى تمثـل ظـاهرة التعدديـة اللغويـة أو

تعدد الأصوات اللغوية، رواية سمكة من ذهب *Poisson d'or* للروائي جان ماري جوستاف لكليزيو *J. M. G. Leclézio* الذي ولد عام *1940*؛ ولعلها من أفضل الأعمال الأدبية تمثيلا لهذه الظاهرة التي لم تلق حتى اليوم حصتها من الخطاب الأدبي؛ فالرواية - شأنها في ذلك شأن معظم أعمال لكلزيو - تعد رحلة قصيرة في الحضارات الإنسانية، في طقوسها وموروثاتها القومية المتباينة، إذ تتخذ شكلا دائريا من حيث أحداثها، اعتبارا من البادئة التي تمتطي الرواية ومرورا بالحي اليهودي بالمملكة المغربية مضيا بباريس ومدينة نيس الفرنسية ثم بعض الولايات الأمريكية ونهاية بمسقط رأس البطلة، عشيرة الهلال، نلحظ الصوت التعددي للبطلة "ليلى" التي تنشطر رويدا رويدا فتحمل أصواتا متعددة، فهي التي تحدثنا عن العرب المسلمين في حي الملاح اليهودي بالمملكة المغربية، ثم تمضي بنا إلى فرنسا حيث تصف الحياة الباريسية وصفا تفصيليا رائعا، إلى حد أن المطابقة بين الوصف ومدينة باريس لايقود إلى إظهار فارقا يذكر على الرغم من أن الأحداث تقع في الستينيات من هذا القرن، ثم تمضي ليلى أبعد من ذلك وترسم حياة الساحل الفرنسية بمدينة نيس، ثم تعبر المحيط إلى العالم الآخر، حيث تمتزج في هذا العالم وتتفاعل معه؛ وما إن نجدها كذلك حتى تنتقل بنا إلى مدينة نيس ثم تعود إلى المكان التي بدأت رحلتها منه. وهي في كل هذه المسيرة الروائية، لاتبدو غريبة، دخيلة على الفضاء الذي تحتله، بل نراها صوتا معبرا ينقل إلينا معطيات حضارة أخرى بأدق مفرداتها.

إن ليلى، العربية، الفرنسية، الأمريكية، ليست سوى إحدى أدوات لكليزيو الروائية التى يمسك بها ويوكل لها أن تؤدى دورا واحدا هو ماذكره فى رواية أخرى له حيث قال بأن العالم ليس سوى "محيط حى"[1] بالنسبه له. وهى تتخذ مسلكا كغيرها من شخصيات لكليزيو، فهى السجينة التى تمتد إليها شباك وشراك الأخرين كى يلحقون بجسدها وروحها العذاب، فلا تذعن، بل تمضى تسخر أدواتها الطفولية فى الخروج من قفصها، وتتقدم شيئا فشيئا حتى تنال حريتها.

ولعل الباعث إلى إقدامنا على تعريب هذا النص الأدبى هو حداثته واهتمامه بحضارتنا وبعض معطياتها الجوهرية، وكذلك تقديم هذا الروائى - الذى لم ينل حظه من الخطاب النقدى العربى رغم اهتمامه بحضارتنا العربية - إلى قراء العربية. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الأوساط الأدبية الفرنسية تضع لكلزيو فى مرتبة عالية بين صفوف الأدباء الفرنسيين فى القرن العشرين، فكتاباته تتميز بسعة أفقها الروائى، وخروجها من القفص الفرنسى المعهود بمعطياته العاداتية والتطلعية الفرنسية لتتخذ من الحضارات الأخرى منطلقا لها، فلقد تناولت رواياته أمريكا الشمالية والبلاد المتاخمة لفرنسا والهند وبعض الحضارات الشرقية الأخرى، فنظمت حوله المؤتمرات الأدبية، وتناولته الصحف والمجلات الأدبية، وعنى به الدارسون

---

(1) انظر

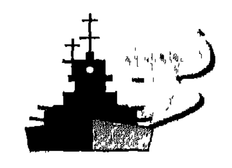
J.-M. G. Le Clézio, Terra Amata, Gallimard, 1967.

فى شتى الجامعات الفرنسية.

ومن أهم أعمال لكلزيو "المحضر الرسمى" *Le procès-verbal* 1963 و"الحمى" *la fièvre* 1965، و"الطوفان" *Le déluge* 1966، و"الأرض المحبوبة" *Terra Amata* 1967، و"الحرب" *la guerre* 1970، و"العمالقة" *les géants* 1973، و"رحلات فى الجانب الآخر" *Voyages de l'autre côté* 1975، و"ثلاث مدن مقدسة" *Trois villes saintes* 1980، و"الباحث عن الذهب" *le chercheur d'or* 1985، و"نجمة ضالة" *étoile errante* 1992، و"بوانا" *Pawana* 1992، وأخيرا الرواية التى نعربها هنا "سمكة من ذهب" *Poisson d'or*.

وفى النهاية لا نأمل إلا أن يكون هذا العمل منطلقا لحوار نقدى عام يحمل مسيرته الخطاب النقدى العربى.

المترجم







عندما كنت فى السادسة أو السابعة من عمرى اختطفت. لا أتذكـر ذلك بحق، لأننى كنت صغيرة جدا آنذاك، وما عشته بعد ذلك محـا فـى هـذه الذكرى. إنه على الأرجح حلـم أو كـابوس قديـم مرعـب يعـاودنى فـى بعـض الليالى ويؤرقنى حتى فى نهارى؛ فيه أتذكر هذا الشارع المبيض من الشـمس، المترب والخـالى، وهـذه السـماء الزرقـاء، والصرخـة المدويـة لعصفـور أسـود، وفجأة يد رجل تلقينى فى قاع حقيبة كبيرة ثم أكاد أختنق. إنها لالا[1] التـى ابتاعتنى.

---

(1) اسم إحدى شخصيات الرواية. (المترجم)

ولهذا لا أعرف اسمى الحقيقى الذى وهبتنى أمى إياه عند ولادتى، ولا أتذكر اسم أبى، ولا المكان الذى ولدت فيه، وكل ما أعلمه من أمرى، وهو ما قالته لى لالا أسماء، أننى أتيتها ذات ليل ولهذا لقبتنى بليلى؛ فلقد جئت من الجنوب، من مكان بعيد جدا، ربما من مكان لم يعد له وجود الآن. وبالنسبة لى، ليس هناك من شئ قبل هذا الشارع المترب والعصفور الأسود والحقيبة.

ثم فقدت بعد ذلك السمع بإحدى أذنى؛ وحدث ذلك حينما كنت ألعب فى الشارع أمام باب الدار؛ حينها صدمتنى شاحنة صغيرة، فهشمت عظمة فى أذنى اليسرى.

كان الخوف من الظلام ومن الليل ينتابنى؛ أتذكر أننى كنت أستيقظ أحيانا من نومى وأشعر بالخوف يدخلنى كدخول ثعبان بارد إلى جسدى، ولم أكن أجسر على التنفس، ولهذا كنت أتدحرج فى فراش سيدتى وألتصق بظهرها الممتلئ حتى لا أرى شيئا ولا أشعر بشىء. إننى على يقين أن لالا أسماء كانت تستيقظ من نومها أثناء ذلك، لكنها لم تكن تدفعنى عنها، ولو لمرة واحدة، ولهذا كانت بالنسبة لى بمثابة جدتى.

انتابنى خوف من الشارع لفترة طويلة؛ فلم أكن أجسر على الخروج من فناء الدار، ولم أرد تجاوز الباب الضخم الأزرق الذى يطل على الشارع. وعندما كان يحاول أحد ما أن يقتادنى إلى الخارج، كنت أصرخ وأبكى متشبثة

بالجدران، أو أفر مختبئة في إحدى قطع الأثاث. وكان الصداع المرعب يستحوزني، وضوء السماء يؤذيني ويخترقني حتى أعماق جسدي.

وحتى الضوضاء المنبعثة من خارج الدار كانت تشعل في الرعب: ضوضاء الخطوات في الزقاق عبر الملاح[2]، أو صوت رجل يتحدث بصوت عال من الجانب الآخر من حائط الدار. ومع ذلك كنت أحب بولع تغريد العصافير وقت الفجر، وصرير السمان في الربيع، وهو يقف على حافة الأسقف؛ ولم تكن هناك غربان في هذه المنطقة من المدينة، بل كان حمام ويمام فحسب، وأحيانا بعض طيور اللقلق العابرة في فصل الربيع، والتي كانت تجثم في أعلى حائط دار وتفرقع منقارها.

وعلى مدار أعوام، لم أعرف سوى فناء الدار الصغير وصوت لالا أسماء التي كانت تصيح باسمي "ليلى"، وكما قلت من ذي قبل، لا أعرف اسمي الحقيقي، فاعتدت الاسم الذي منحتني إياه سيدتي، كما لو كان هو الاسم الذي اختارته لي أمي؛ ومع ذلك فإنني أؤمن أنه ذات يوم، سيناديني شخص ما باسمي الحقيقي، وسوف أرتعش له وأعرفه.

اسمها الحقيقي ليس لالا أسماء، كانت تدعى عظمة، وكانت يهودية أسبانية. وحينما اندلعت الحرب بين العرب واليهود في الطرف الآخر من العالم، ظلت الوحيدة التي لم تترك الملاح، وتترست خلف الباب

---

(2) الملاح هو حي يهودي في المغرب.(المترجم)

الضخم الأزرق، ثم أقلعت عن الخروج؛ واعتبارا من هذه الليلة التى أتيت فيها، تبدل كل شئ فى حياتها.

كنت أناديها "سيدتى" أو "جدتى"، وكانت تؤثر أن ألقبها "سيدتى"، لأنها هى التى علمتنى القراءة والكتابة بالفرنسية والأسبانية والحساب والرياضة، وهي التى علمتني مبادئ الدين، دينها هى، حيث لا يوجد اسم لله، وديني حيث يسمى الله. كانت تقرأ على مقتطفات من الكتب المقدسة، وكانت تعلمنى كل ما كان علي ألا أفعله، كالنفخ فيما نأكله، ووضع الخبز مقلوبا، أو الاستنجاء باليد اليمنى، وتعلمنى أنه يجب قول الحق، والاغتسال كل يوم من القدم إلى الرأس.

وفى مقابل ذلك،كنت أعمل لها منذ الصباح حتى المساء فى الفناء، أنظف وأقطع الخشب الصغير لموقد النار، أو كنت أقوم بغسيل الملابس، وكنت أحب أن أصعد فوق السقف لنشر الغسيل؛ ومن هذا الموقع، كنت أرى الشارع وأسقف المنازل المجاورة والناس الذين يدلفون والسيارات، وطرف النهر الأزرق من بين شقي جدار، وفى هذا الموقع، كانت الضوضاء تبدو لى أقل رعبا، فكان يبدو لى فى هذا المكان أنني فى ملاذ.

وحينما كنت أمكث طويلا على السقف، كانت لالا أسماء تصرخ باسمى، وتظل قابعة فى غرفتها المزركشة على وسادات من الجلد طيلة اليوم؛ وكانت تعطينى كتابا ما كى أقرئه عليها، أو كانت تقوم بإملائى وتسألنى فى الدروس السابقة التى لقنتنى إياها، وكانت تجرى لى اختبارات. ولكى

تكافئنى،كانت تسمح لى بـالجلوس فـى الصالـة بجانبـها، وتضـع فـى جـهاز تسجيلها شرائط المغنيـين الذيـن تحبـهم: أم كلثـوم، سيد درويـش، وهيبـة مسيكة وبصفـة خاصـة فـيروز بصوتـها الخفيـض الأبـح، والجميلـة فـيروز الحلبية التى تنشد "يا قدس"، وكانت لالا أسمـاء تـزرف دمعـا متـى سمعـت اسم القدس.

ولمرة واحدة كل يوم، كـان البـاب الضخـم الأزرق ينفـرج لتمـر منـه امرأة سمراء فظة، ليس معها أطفال، تدعـى زهـرة، كنـة لالا أسمـاء؛ كـانت تأتى لتطهى شيئا ما لأم زوجها، أو كانت تأتى، بصفة خاصة، لمراقبة الدار. وكانت لالا أسماء تقول إنها تراقبها كما لو كانت ثروة سترثها يوما ما.

أما نجل لالا أسماء، فكان يأتى بندرة؛ اسمـه هـابيل، رجـل فـارع الطول، قوى البنية، يرتدى حلة رمادية أنيقة، ثرى يترأس شركة للأشـغال العامة، ويعمل أيضا فى الخارج، فى أسبانيا وفرنسا؛ ولكن وفقا لما روتـه لالا أسماء، فلقد أجبرته زوجته على العيش مع أبويها هى، وهم أناس يسـتحيل تحمل مشقتهم، فهم متباهون يؤثرون العيش فى المدينة الجديدة على الشاطئ الآخر من النهر.

وكنت أحذر هابيل دومـا، ذلـك أننـى عندمـا كنـت صغـيرة، كنـت أتوارى خلف الستائر لحظة مجيئه، فكان ذلك يضحكـه ويقـول: "يالهـا مـن همجية!"؛ وعندما كبرت، كان يخيفنى أيضا، فلقد كـان لديـه أسلوبا خاصـا فى النظر إلى، كما لو كنت شيئا يمتلكه. وكـانت زهـرة تخيفنـى هـى أيضـا،

ولكن ليس بنفس الطريقة. ذات يوم، بما أننى لم ألملم التراب المتناثر فى الفناء، نهشتنى حتى أسالت دمي وقالت لى: "أيتها البائسة اليتيمة !، لست ماهرة حتى في التنظيف!"، فصرخت فيها: "لست يتيمة، إن جدتى لالا أسماء"، فسخرت منى ولكنها لم تجسر على المضى فى توبيخى.

كانت لالا أسماء تدافع دوما عنى، لكنها كانت عجوز منهكة، أقدامها متخمة ومليئة بالدوالى؛ وكانت حينما تسأم أو تشتكى، أقول لها: "أأنت عليلة يا جدتى؟"، فكانت تسمرنى أمامها وتحملق فى، وتكرر المثل العربى الذى تحبه، والذى كانت تقوله بإحتفاء وكأنها تبحث فى كل مرة عن ترجمته الفرنسية:

"الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لايدركها إلا الأعلاء".

والآن، لم تعد تجعلنى أقرأ كثيرا أو تجعلنى أذاكر، لم يعد لديها أفكار لإملائى، وكانت تمضى معظم أيامها فى الصالة الخالية تشاهد شاشة التلفاز، أو تطلب منى أن أحمل إليها علبة مجوهراتها أو علب فضتها. وذات يوم، أرتنى زوج من قرط ذهبى وقالت لى: "انظرى يا ليلى، هذا القرط سيكون ملكا لكى حين أموت".

ومررت القرط فى ثقبى أذنى، وكان القرط قديما مستخدما، على هيئة أول هلال للقمر المعكوس فى السماء، وعندما لفظت لالا أسماء لى الاسم، هلال، اعتقدت أننى أسمع اسمى، وتخيلت أن هذا القرط كنت أتحلى به حينما أتيت إلى الملاح.

قالت لى: "إنه يناسبك كثيراً، إنك تبدين فيه كبلقيس ملكة سبأ".

فوضعت القرط فى يديها، وثنيت أصابعها، وقبلت يدها وقلت:

"شكراً يا جدتى، إنك عطوفة عليَّ".

قالت: " اذهبى!، اذهبى!"؛ وزجرتنى وقالت: "لكننى لم أمت بعد!".

لم أعرف زوج لالا أسماء إلا من خلال صورة فوتوغرافية له كانت تعترشُ الكمودينو، وكانت تحتفظ بها فى الصالة، بجوار ساعة حائط متوقفة، كانت هيئته تدل على أنه رجل يبدو قاسياً، يرتدى زيا أسوداً. كان يعمل محامياً وكان ثرياً، ولكنه خائن، ولما مات، لم يترك لزوجته عدا دار الملاح، وقليل من النقود لدى كاتب العدل؛ وكان لايزال على قيد الحياة حينما أتيت إلى الدار ولكننى كنت صغيرة جداً حتى أتذكره.

كانت لدى أسباب تدفعنى للخوف من هابيل، كنت فى الحادية عشرة أو فى الثانية عشرة من عمرى حينما اصطحبت زُهرة جدتى خارج الدار كى ترى الطبيب أو لتبتاع شيئاً، ودخل هابيل إلى الدار دون أن الحظ ذلك، فبحث عنى داخل الدار، ووجدنى فى الغرفة الصغيرة، بجوار الفناء، حيث يوجد المرحاض وحوض الغسيل.

كان ضخماً وقوياً، لدرجة أنه أغلق كل الباب بجسده، ولم أقو على النجاة بنفسى منه، هلعنى، ولم يكن بوسعى أن أتحرك بأى طريقة؛ اقترب

منى، وكانت حركاته عصبية جنونية؛ ربما كان يتحدث إلىَّ، لكننى وضعت رأسى على أذنى اليسرى حتى لا أسمعه. كان طويل القامة، عريض المنكبين، وجبهته عارية تتلألأ فى الضوء؛ ركع أمامى وتحسس أسفل ثوبى، وتلمس أفخاذى وتحسسنى، وكانت يداه صلبه من الأسمنت. انتابنى إحساسٌ أن زوج من الحيوانات الباردة الجافة قد اختبأ أسفل ملابسى؛ وأحسست بالخوف لدرجة أننى شعرت بقلبى ينبض فى حلقى.

وبغتة، عاودنى كل شئ، الشارع المبيض والحقيبة والضربات فوق رأسى، ثم أيدى تتلمسنى، وتضغط على جوفى فتؤلمنى. لم أدرْ ماذا أفعل؛ أظن أننى بُلت على نفسى من الخوف؛ وحينما فرغ من ذلك سحب يديه، فأفلحت فى المرور من خلفه، وتدحرجت كالحشرة، فعبرت الفناء وأنا أصرخ، ثم سجنتُ نفسى فى صالة الاستحمام، لأنها كانت الغرفة الوحيدة التى يمكن غلقها بالمفتاح؛ وترقبت وقلبى يدق بكل سرعة وأذنى السليمة ملتصقة بالباب.

جاء هابيل إلىَّ، قرع الباب، فى البداية بلطف بأطراف أصابعه، ثم بشدة بكلية يديه قائلاً: "ليلى افتحى لى الباب، ماذا تفعلين؟ افتحى، لن أفعل بك شيئاً. "، ثم رحل؛ أما أنا فمكثت جالسة على البلاط، مولية ظهرى للحمام الرخامى الذى صنعه هابيل لأمهِ.

وبعد ذلك بوقت طويل، جاء شخصٌ ما خلف الباب، وسمعت صوتاً، ولكننى لم أدرك ما جاء فيه، وقُرع الباب ثانية، وهذه المرة عرفت يد

لالا أسماء؛ وعندما فتحت الباب، كان يبدو عليَّ الرعب، حتى أنـها ضمتني بين ذراعيها وهي تقول لى: "ولكن، ماذا فُعل بكِ؟ ماذا حدثَ لكِ؟"، فضممت جسدى إليها، وأنا أمـر من أمام زُهرة، ولكننى لم أتفوه بشئ، فصاحت زُهرة: "لقد غَدت معتوهة، هذا كل ما حدث"، ولم تسألنى لالا أسماء عن شئ آخر، ولكنها منذ ذلك اليوم، لم تتركني بمفردى متى جاء هابيل إلى الدار.

وذات يوم، بينما كنت منهمكة فى غسيل الخضر فى المطبخ لإعـداد الطعام للالا أسماء، سمعت ضوضاء مدوية فى الدار، كما لو كان شئٌ ثقيلٌ يضرب البلاط ويقلب المقاعد، فأتيت مسرعة، ورأيتُ العجوز ملقاة على الأرض، ممددة بكل طولها، فظننتُ أنها ماتت، وفررت أختبئُ فى مكان ما حينما سمعتها تتأوه وتئن. لقد كان مغشياً عليها، وحينما هوت على الأرض اصطدمت رأسُها بزاوية مقعد فسال منها قليل من دم من صدغها، ودارت من الهزة واضطربت عيناها، ولم أدرْ ماذا أفعل؛ وبعد مرور برهة، اقتربت منها وتحسست وجهها؛ فكانت وجنتها رخوة، باردة بشكل لافت للنظر، ولكنها كانت تتنفس بكل قوة رافعة صدرها، وكان الزفير يزلزل شفتيها فى قرقرة مضحكة كما لو كانت تغطُ فى النوم.

"لالا أسماء!، لالا أسماء!"، هكذا كنت أتمتمُ بالقرب من أذنها، وكنتُ على يقين من أنه بوسعها أن تسمعني فى حالتها هذه. كانت عاجزة عن الكلام فحسب، وكنت أرى رعشة جفونها المواربة على عينيها البضتين، وأعلم أنها تسمعني، وقلت لها: "لالا أسماء، لاتموتى!".

في أثناء ذلك، جاءت زُهرة، وقلقت كثيراً من النَفَسِ البطئ الذى لم أعهده في لالا أسماء، وقالت لى:

- "ياغبية! أيتها الجنية الصغيرة !، ماذا تفعلين الآن؟ "

جذبتنى بعنف من كُمِ ثوبى حتى أنه تمزق، وقالت لى: "هيا ابحثى عن الطبيب، ألا ترين أن أمى فى أشد ألمها!"؛ وكانت هذه هى المرة الأولى التى تتحدث فيها عن لالا أسماء وتلقبها بأمها؛ وعندما رأتنى أقف مذهلةً على عتبة الباب، اقتلعت سباطها وقذفتنى به قائلة: "هيا، ماذا تنتظرين؟".

حينئذ عبرت الفناء، ودفعت الباب الأزرق الثقيل، ثم شرعت فى الهرولة فى الشارع دون أن أعرف إلى أين أمضى، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أخرج فيها من الدار، ولم تكن لدى أدنى فكرة عن المكان الذى أستطيع فيه أن أجد طبيب، ولم أكن أعرف سوى شئ واحد هو أن لالا أسماء ستموت، وسيكون ذلك خطئ، لأننى لم أتمكن من أن أجد إنساناً ما كى يعالجها. ظللت أهرول دون أن ألتقط أنفاسى على طول الأزقة التى أنامتها الشمس، وكان الجو حاراً للغاية، والسماء عارية، وكانت جدران المنازل بيضاء للغاية.

هرولت من شارع إلى آخر، حتى بلغتُ مكاناً يمكن منه للمرءِ أن يرى النهر، بل وأبعد من ذلك، البحر، وأجنحة الزوارق. كان المشهد رائعاً حتى أننى لم أخشْ أى شئ، وتوقفت فى ظل جدار، وشاهدت كل ما تمكنت من مشاهدته؛ كان المنظر هو نفس المنظر الذى كنت أشاهده من أعلى سقف

دار لالا أسماء، ولكنه أرحب سعة بكثير. إلى الأسفل على الطريق، كانت هناك سيارات كثيرة، وشاحنات وسيارات نقل. كان الوقت هو الساعة التى يذهب فيها الأطفال إلى المدرسة بعد الظهر؛ كانوا يدلفون على الطريق، الفتيات ترتدين التنورات الزرقاء والقمصان الشديدة البياض، أما الفتيان فكانوا يرتدون ملابس قليلة الأناقة، محلقون رؤسهم، يحملون حقائبهم المدرسية أو كتباً يحفظها ماسك.

حدث ذلك وكأنى أفقت من سبات طويل؛ وحينما مر أطفال المدرسة بالقرب منى، بدا لى أنهم يضحكون ويسخرون منى، وعندما تريثت، بدت علىَّ الغرابة كما لو أننى أتيت من كوكب آخر بثوبى ذى النهج الفرنسى، والذى كان كمه ممزق، وبشعرى الطويل المجعد؛ وفى ظل جدار الحائط، بدا علىَّ أيضا أننى جنية.

تعقبت شارعاً عن طريق المصادفة باتجاه تلاميذ المدرسة، ثم شارعاً آخر يعج بالناس؛ فكان هناك سوق وغطاءات تقى من الشمس. وفى مدخل أحد الديار، كان هناك رجل عجوز يعمل فى حانوت مصنوع من الخشب، وكان الرجل يجلس متربعاً على شئ يشبه المنضدة المنخفضة تحيط به بابوجات[3]، وكان يدق مسامير صغيرة جداً بمطرقة من النحاس فى نعل؛ وبما أننى توقفت أنظر إليه، سألنى: "أتريدين بُلغةً؟"

---

(3) البابوج هو الحذاء دون الكعب، والكلمة الفرنسية babouche مأخوذة من العربية والتى نقلتها بدورها عن الفارسية. (المترجم)

فلقد لاحظ جيداً أن أقدامي عارية، وقال: "ماذا تريدين؟ أأنت صماءُ؟"

أفلحت في الحديث إليه، فقلت له: "أبحث عن طبيب لجدتي".

قلت ذلك بالفرنسية، ثم كررتُ بالعربية لأنه نظر إلى دون أن يفهم، وقال لى: "ما بها؟"

- "سقَطَت على الأرض، وستموت".

أدهشه هدوئي الشديد. وقال لى: "ليس هناك من طبيب في هذه المنطقة، هناك السيدة جميلة في الفندق؛ إنها مولدة، ربما تتمكن من فعل شئ".

غادرتُ مهرولةً في الاتجاه الذى أشار به علىَّ، وظل صانع الأحذية لايتحرك ومطرقته النحاسية مرفوعة، وقال لى شئ لم أفهمه فأضحك الناسَ.

كانت السيدةُ جَميلة تعيش في دار لم أتخيل هيئته، فكان عبارة عن قصر مهدوم، حوائطه شاهقة تتكون من التراب المدكوك، وكان يبدو أن مصارع باب هذا القصر الاثنين مفتوحين منذ زمن طويل، لدرجة أن ما من أحد يستطيع غلقهما، إذ يحجزهما الطين والأنقاض. وفي واجهة القصر، كانت هناك قطعٌ من أوراق طلاء الحوائط تدل على أن الدار كان وردى اللون في الماضى، كانت نوافذه الخشبية ناتئة، وشرفه منخورة بالسوس؛ ورغم علمى بذلك، إلا أنني دخلت إلى فنائه.

فنـاء دار لالا أسمـاء، كـان منظمـاً تنظيمـاً قاسيـاً، نظيـف إلى حـد المُبالغة، وكنت أظن أن أى فناء يكون كذلك؛ ولكن هنا فى داخل الفندق، كـان هناك ركام لا يمكن تخيله، وأناس يخيـم عليـهم السبات فـي كـل مكـان مـن الفندق، تحت ظل الأفـاريز أو أشـجار السـنط الهـزيلـة؛ وكـانت هنـاك مـاعز وكلاب وأطفال ومواقد تستنفذ قواها بمفردهـا، وكـانت هنـاك فـي كـل مكـان أكوام القمامة التى يلوكها الدجاجُ المشابه للنسور. وفى جدران الحوائط، حول الفناء تحت ظل أشجار السنط، كان الباعة الجائلون يكدسون حزم بضائعـهم، ولكى يحرسونها جيداً، كانوا يتوسدونها. لم أعـرف مـاذا كـان يعمـل هـؤلاء الناس، ولم أكن أدرك المظهر الذى يكون عليـه فنـدق. وحينمـا عـبرت ببطئ الفناء مترددةً فى الاتجاه الذى أتخذه، نـادانى شـخصُ مـا مـن أعلـى الشـرفة الداخلية فى حركات واضحة؛ وبما أننى فتنت بالشمس فقد بحثـت عـن ظـل الرواق، وسمعت صوتاً واضحاً يسألنى: "عما تبحثين؟".

فى النهـاية، رأيت سيدة متقدمة فى العمـر، ترتـدى ثوبـاً فيروزيـاً طويلاً، كانت تتكئ على سور السلم، وتشعل سيجارة وهى تنظر إلىّ، فنطقـت اسم السيدة جميلة، فأشارت إلىّ: "أصعدى السلم فى نهاية الغرفة أمامكِ".

وعندما بدا علىَّ أننى لا أعى ما تقول، قالت لى: "انتظرى".

اقتادتنى عبر غرفة كبيرة مظلمة، حيث كـانت هنـاك حـزم أخـرى من البضائع، وأناس يستريحون، وشيوخ يلعبون الدومينو على منضدة قصيرة

القامة وقد وضع نارجيل بجوارهم، ولم يكن هناك من يبدو عليه أنه يعيرني انتباهاً.

وفي أعلى درجات السلم، كان الرواق مُضاءً من ضوء الشمس حيث لم يكن هناك من مصارع أبواب؛ وكانت تقطن الطابق الأعلى أجنبيات، يبدو على البعض منهن أنهن في سن الشباب، والأُخريات في عمر زُهرة أو أكبر منها عمراً. كانت هؤلاء النسوة بدينات، سحنهن صافية وشعورهن حمراء من الحناء، وشفاههن مطلية، شديدة السمارة، وأعينهن محاطة بالكُحل، يشعلن الغليون أمام أبواب غرفهم، جالسات في أرديتهن على الأرض، وكان دخان غليونهن يخرج من ظل الرواق فيتراقص في الشمس.

قلت: "أريد أن أبحث عن السيدة جميلة".

ظللت أعلى السلم وأقدامي تطأ أرض الطابق، وأظن أن ما منعني أنْ أتقهقر مهرولة من هذا المكان هو فقط الخوف من العودة دون الطبيب إلى لالا أسماء، وجاءت النسوةُ تلتف حولي، يتحدثن بصوت عالٍ ويضحكن، وكان دخان الغليون يشغل الهواء برائحة عذبة قليلاً، كانت تجعلني أدير رأسي.

كن يداعبن شعري ويتلمسنه وكأنهن لم يرين مطلقاً شعراً مثله؛ ثم شرعت إحداهن، وهي فتاة شابة يداها فارعتان دقيقتان، محملة رقبتها بالجواهر، في تجديله مخللة الخيط الأحمر بشعري، لم أجسر على التحرك؛ وقالت: "انظرن، لكم هي جميلة! إنها أميرة حقيقية".

لم أدرك ما قالته، وسألت نفسي عما إذا كان هؤلاء النسوة الجميلات بكل حليهن ومساحيقهن لايسخرن مني، وعما إذا كن سينهشنني ويتجاذبني من شعري، كن يتحدثن بسرعة بصوت منخفض ولم التقط كل الكلمات بسبب أذني المصابة.

ثم أتت السيدة جميلة؛ كنت أتخيل أنها امرأة حكيمة طويلة وقوية، وجهها متجهم، فرأيت امرأة قصيرة نحيفة، شعرها قصير، ترتدى ملابسها على النهج الأوربى. رمقتني للحظة، ثم أبعدت عني النسوة، وعندما أدركت مشكلة أذني، مالت نحو وجهي وقالت ببطء: "ماذا تريدين؟"

– "جدتي تموت، ينبغي أن تذهبي لتريها في دارها".

ترددت ثم قالت: "حقا أنني أعيش هنا من أجل الأطفال والأجداد الذين يموتون أيضاً".

كانت تمشي بخطوات منفرجة في الأزقة، وكنت أعدو عدو الطفل خلفها؛ وبدونها ما كان لى أن أتوصل لمعرفة طريقي، ولكنها كانت تعرف دار لالا أسماء.

وريثما وصلنا الدار، كان قلبي منقبض؛ وظننت أنه في خلال كل هذا الوقت قد ماتت لالا أسماء، وأنني سوف أستمع إلى الصرخات المدوية، التى ستطلقها زوجة ابنها. بيد أن لالا أسماء كانت على قيد الحياة؛ كانت تطأ مقعدها المريح في مكانها المعتاد، تتمدد وأقدامها على مقعد وضع أمامها،

وكان هناك فقط قليل من الدم الجاف على صدغها حيث ارتطمت رأسها لما وقعت.

رأتني لالا أسماء، فأشرقت نظرتها، كانت لاتزال ترتعش قليلاً، فشدت على يدى بقوة شديدة؛ لاحظت أنه لديها الرغبة فى الكلام، وأنها لم تقو على ذلك، ولم أكن أدرك إنها تحبني كثيراً، وفجاءة أسال ذلك عبراتي، وقلت لها: "لاتتحركين ياجدتي سوف أعد لك الشاى كما تحبين".

ثم رأيت السيدة جميلة على عتبة الصالة، وطالما أن لالا أسماء لم تكن على وشك الموت، فلم تكن فى حاجة إلى أحد. لم تكن تحب أن يدخل عليها الغرباء، قلت للسيدة جميلة: "إنها بخير الآن، لم تعد فى حاجة لك"؛ واصطحبتها نحو الباب، وأردت أن أدفع لها ثمن الزيارة من دراهمى التى ادخرتها من أعمال التنظيف، لكنها رفضت، وقالت وهى تتفحص وجهى بدقة: "ربما سينبغى عليك أن تستقدمى طبيباً حقيقياً، هناك شيئا ما تحطم فى رأسها، ولهذا السبب سقطت على الأرض".

تسألت: "هل ستتكلم ثانية؟"

هزت السيدة جميلة رأسها: "لن تكون البتة كما كانت من قبل؛ يوماً ما ستسقط ولن تعود مطلقاً، الأمر كذلك، ولكن يجب أن تظلى معها حتى نفسَها الأخير"؛ كررت الجملة بالعربية ولم أنساها: "خرجت الروح...".

عادت زُهرة بعد قليل؛ لم أتحدث إليها عن أمر السيدة جميلة، فلقد كانت ستصفعنى إذا ما علمت أن كل ما أحضرته لها، هو مولدة بفندق

قديم، فكذبت عليها وقلت لها: "قال الطبيب أن صحتها ستتحسن، وأنه سيعود الأسبوع القادم"؛ فقالت: "والأدوية؟ ألم يقرر أدوية؟ "؛ هززت رأسي وقلت لها: "قال أن الأمر لايستدعي ذلك، وأنها ستعود كما كانت من ذي قبل".

كانت زُهرة تتحدث بصوت عالٍ بالقرب من أذن لالا أسماء كما لو كانت صماء: "أتسمعين يا أماه، لقد قال الطبيب أنك ستغدين على مايرام".

ولكن لالا أسماء لم تتحدث إلى منذ أشهر عن كنتها، ولم تلحظ زُهرة أي شئ، وعندما انصرفت، عاونت لالا أسماء على السير حتى فراشها، وكان سيرها غريباً، تقفز كالشحرور[4]، ونظرتها المتفائلة غدت هشة، وحزينة وبعيدة.

فجأة، انتابني خوف مما سيحدث؛ لم اسأل نفسي حتى هذه اللحظة ماذا ساكون حين ترحل لالا أسماء عن الدنيا، أأكون في هذا الدار خلف الجدران العالية من الجانب الآخر من الباب الأزرق؟ وهل سأرى المدينة من أعلى السقف حيث أنشر الملابس المغسولة؟ جعلني ذلك أعتقد أنَّ شراً ما سيحدث لا محالة.

نظرتُ إلى سيدتي، كان وجهها منتفخاً لدرجة أن عينيها كانت بمثابة ثقوب في وجهها، وشعرها القليل جداً أبيض أسفل الحنة.

(4) اسم عصفور. (المترجم)

قلت: "جدتي، جدتــي، لـن تـتركيني ؟ "، وسـرت العـبرات فـوق وجنتــي، ولم أتمكـن مـن إيقافـها، ثـم رددت: " أليـس كذلـك يـاجدتي، لـن تتركيني؟"، أعتقد أنها سمعت ما قلته لها لأنني شاهدت جفونـها تتحـرك، وشفاها ترتعش؛ وضعت يدى في يديها حتى تصافحها بقوة، وقلت: "سوف أهتم بأمرك ياجدتي، لن أدع أي أحد يقترب منك ولاسيما زُهـرة؛ سـأعدُ لـك شايك، وسأقدم لك طعامك وسأمضى أحضر لك الخـبز والخضـر؛ والآن لم يعـد الخوف ينتابني في أن أمضي خارج الدار، فلن نعد في حاجة إلى زُهرة".

كنت أتحدث والدموع لا تتوقف عن السـيل، ويمكنني القـول أنـها ربما كانت هذه هي المرة الأولى، بالنسبة لى أنا التى لم تزرف الدمع أبـدا بـلا وازع حتى عندما نهشتني زُهرة حتى أسالت دمي.

بيد أن لالا أسماء لم تعد كما كانت من ذى قبل، بل علــى النقيـض، أخذت حالتها تسؤ يوماً بعـد يـوم، ولم تعـد تتنـاول الطعـام؛ وحينمـا كنـت أحاول أن أشربها الشاى، كـان الشـاى البـارد يسيل مـن طرفـي فمـها ويبلـل ردائها؛ وكانت شفتاها مشققتين مصدعتين، وأصبح جلدها جافاً وأكتسى بلون الرمل؛ ويجب أن أقول أنها كانت تبول تحتـها، هي التي كانت نظيفـة جـداً ودقيقةً؛ كنت أغير لها ملابسها؛ ولم أرد أن تراها زُهرة وهابيل فـي الحالـة هذه؛ كنت على يقين أن لالا أسماء تستحي من ذلك، وأنها تضع حسباناً لكـل شئ. عندما جاءت زُهرة، سدت أنفها وقالت: "من أين تنبعث هـذه الرائحـة الكريهـة؟"، فقلت لها أن هناك أشغال تُجرى في الدار المجـاور ويتـم إخـلاء

الحفرة؛ نظرت زُهــرة إلى لالا أسمـاء نظـرة ريبــة، ونـهرتنى قائلـة: "لأنـك لاتقومين بأعمـال النظافـة بشـكل جيـد، انظـرى إلى هـذه الفوضى !". كـانت تسعى لتعرف ما لايمضى على مايرام فى الدار؛ وحتـى لاتسـتبطن حالـة لالا أسمـاء، قمـت بتصفيـف شعرها فـى الصبـاح، وطليـت وجنتيـها بالمسـحوق الـوردى، ووضعـتُ زبـدة الكاكـاو علـى شـفتيها، ووضعـت الطبـق النحاسـى بجوارها على المنضدة مع إبريق الشاى والأكـواب، وسـكبت قليـلاً مـن الشاى المحلى بالسكر فى الأكواب كما لو كانت لالا أسماء قد شربت شاياً.

لم أعد اتركها؛ ففى الليل، كنت أرقد على الأرض بجوارهـا مطوقـة فى ملاءة فراش؛ وأذكر أنه، ذات يوم، كان هناك ناموس، وكنـت أسـتمع إلى غنائه فى أذنى طيلة الليل، وفـى الصبـاح عـدت إلى غرفتـى كـى أنـام قليـلاً، نسيت نَفَسَ لالا أسـماء الحزين، ورأيت فى نومـى، أننـا، أنـا وهـى، نرحـل ونستقل، فى نهـاية المطاف، الزورق الشهير الذى كانت تتحدث عنه دوما من مليلا[5]، باتجاه ملاجا[6]، وحتى أبعد من ذلك، إلى فرنسا..

ذات ليل، أخذت الأمور كلها تزداد سوءاً؛ لم أضع هذا الأمر فى حسبانى على الفور، كانت لالا أسماء تختنق، كان نفسها يحدث غطاً فى حلقها، ومع نهاية كل زفير، كانت هناك ضوضاء منبعثة من رئتيها، فظللت

---

(5) أراضى على ساحل البحر المتوسط تطل على المغرب وهى محل نزاع حتى الآن. (المترجم)

(6) ميناء فى أسبانيا على البحر المتوسط وهو موطن بيكاسو، ما زال محل نـزاع بـين المغـرب وأسبانيا. (المترجم)

جامدة متمددة على الأرض دون أن أجسر على الحركة. كانت غرفتها مظلمة مع بصيص من ضوء القمر في الفناء، ولكن لم يكن بوسعى أن أمضى إلى خارج الدار. كنت أترقب، وأردت أن يكون النهار؛ اعتقدت أنه منذ أن تشرق الشمس، ستستيقظ لالا أسماء، وتتوقف عن الغط، ويتوقف ضيق أنفاسها وضوضاء رئتيها.

نمت مع بزوغ ضوء النهار، فلقد كنتُ متعبة للغاية؛ ربما ماتت لالا أسماء في هذه الأثناء، وهكذا استطعت في النهاية أن أنم.

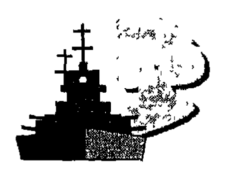
حينما استيقظت كان وضح النهار، كانت زُهرة تجلس بجوار الفراش، وكانت تبكي بصوت مرتفع، فجاءة رأتني فملأ الغضبُ فمها، قرعتني بكل شئ وجَدَتهُ: منشفة من الإسفنج ومجلات؛ ثم اقتلعت حذائها كي تضربني به، فلذت بنفسي والفناء. صاحت فيَّ: "أيتها الجنية الصغيرة!، لقد ماتت أمي وأنت تنامين في سكينة ! أنك قاتلة". اختبأت في المطبخ أسفل منضدة كما كنت أفعل وأنا صغيرة، ارتعشت من الخوف، ولحسن حظي، جاءت سيدة مجاورة أنبئها الصراخ في هذه اللحظة؛ وجاء هابيل بدوره أيضا، وسكَنوا من روع زُهرة. كان معها مدية في يديها كما لو كانت تريد أن تقتلني، وصاحت ثانية: "أيتها الجنية القاتلة !". أجلسوها في الفناء، وقدموا إليها قدحاً من ماء.

أما أنا فقد تدحرجت خارج المطبخ، وعبرت الفناء على قدمي وساعدى على طول الجدار في الظل، وأقدامي عارية، ولم أكن أرتدى سوى

الثوب المجعد الذى نمت به، وكان شعرى مُشعث، وكان يبدو علىّ أننى قاتلة بحق.

أفلحت فى الهرب مارة من الباب الأزرق الكبير الذى ظل موارباً؛ ثم شرعت فى الهرولة فى الشوارع مثل اليوم الذى ذهبت فيه أستدعى الحكيمة، وكان ينتابنى هلعٌ جارف من أن يلحقوا بى ويودعونى السجن لأننى تركت لالا أسماء تموت.

هكذا تركت دار الملاح دون عودة، ولم أكن أمتلك أى شئ ولاسو[7] واحد، وأقدامى عارية وثوبى بالٍ، ولم يكن معى حتى القرط الذهبى وهلال القمر الذى وعدتنى لالا أسماء أن تتركه لى حينما تموت، فشعرت بأننى أكثر عراءً من اليوم الذى باعنى فيه لصوص الأطفال إلى لالا أسماء.



(7) أصغر وحدة من العملة الفرنسية القديمة. (المترجم)

السوق القديم

كان الفندق يختلف تماماً عن كل ما عرفته في حياتي إلى ذلك الحين، كان عبارة عن دار ينفرج على كل الاتجاهات الأربعة، يقع في شارع يكثر العبور فيه، تربكه الشاحنات الصغيرة والسيارات والموتوسيكلات، وكان السوق على بعد خطوتين منه، وهو مبني من الأسمنت يجد فيه المرء كل ما يريد، لحوم المجازر، والخضروات، والسجاد، والدُلِيّ البلاستيكية.

حينما تركت دار لالا أسماء، لم أعرف إلى أين أمضي؛ فلم أكن أعرف سوى شئ واحد، هو أنه ينبغي عليّ أن أختبئ في مكان لا يعثرُ عليّ فيه مطلقاً كل من زُهرة وهابيل، حتى وإن أرسلا الشرطة تبحث عني. سرت على طول الشوارع في الظل، مجاورة للحوائط كالقط الضال؛ وكانت صرخات

زُهرة "أيتها الجنية ! أيتها القاتلة!" تدوى فى رأسى، وكنت على يقين من أنها إذا لحقت بى سوف تدعنى السجن. ورغما عن إرادتى، قادتنى أقدامى إلى الشارع الذى بحثت فيه عن طبيب يعالج لالا أسماء. لما تعرفت على المبنى من خلال بوابته ذات المصرعين المنفرجين على أشدهما، اهتز قلبى من الفرح، ففى ذلك المكان، كنتُ على يقين من أن زُهرة لن تتمكن من العثور علىّ. لم تكن السيدة جميلة فى الفندق، فلقد تم استدعائها إلى مكان ما لحالة طارئة، ولذا فقد جلست بهدوء على الشرفة وظهرى للجدار وترقبتها بالقرب من بابها.

فى المرة الأولى التى أتيت فيها إلى هذا المكان، كنت فى عجلة من أمرى، ولم يكن لدى متسعاً من الوقت كى أشاهد ما يحدث فى الفندق؛ أما الآن، فأتفحص كل شئ: الناس الذين يدخلون ويخرجون من الفناء دون توقف، الباعة الجائلين فى أثوابهم الرثة محملين كالعير، والتجار الذين يضعون حزم بضاعتهم أسفل الشرفات المقوسة، تجار خضر، وتجار تمر، وشباب يحملون شحن غريبة، تتأرجح على دراجاتهم علب كرتونية محملة بلعب الأطفال البلاستيكية، وأشرطة موسيقى وساعات ونظارات سوداء. كنت أعرف كل بضاعتهم، ذلك أنهم كانوا يأتون، فى الغالب، يقرعون باب لالا أسماء، وبما أنها لم تكن تقو على الخروج لتقضى مشترياتها، فلقد كانت تجعلهم يفرغون سلعهم فى الفناء، وتشترى منهم أشياء لم تكن فى حاجة إليها: أقلام وصابون، وكل ما يحمل الغضب إلى كُنتها التى كانت تقول لها:

"أماه ! ماذا أنتِ فاعلة بهذه الأشياء؟"، وكانت لالا أسماء تهز رأسها وتقول: "ربما سأكون يوماً ما راضية لأننى ابتعت هذه الأشياء". لم أتصور مطلقا أنه من الممكن أن يتلاقى الباعة الجائلون فى مكان مثل هذا الفناء.

فى الطابق تقطن سيدات فى مقتبل العمر، لم أراهن المرة السابقة. كن أنيقات جميلات إلى حد أننى بسذاجتى حسبتهن أميرات. فى هذه الساعة، كن يرقدن فى الحجرات خلف الأبواب المواربة؛ وعندما تفحصت ثقب الباب رأيت إحدى الأميرات نائمة على فراش كبير؛ وفى رمق، تبينت هيئتها، كانت ترقد عارية تماماً فوق ملاءة الفراش، يوارى شعرها وجهها، وذهلت لمشاهدة بطنها بضاً وعانتها منزوعة الشعر تماماً، فلم أرى قط مثل ذلك، فلم تكن لالا أسماء تصطحبنى إلى صالة الاستحمام، وحتى فى لحظات عمرها الأخيرة، لم ترد أن أراها مجردة من ملابسها. جسدى الهزيل الأسود لا يشبه البتة هذا الجلدَ الأبيض، وأعتقد أننى تقهقرت خائفة قليلاً والعرق فى كفة يدى.

انتظرت كثيرا أسفل الرواق مولية اهتمامى لغدو ومجئ التجار فى الفناء؛ ولم أكن قد تناولت الطعام ولا الشراب منذ البارحة، فلقد كان لدى شعور جارف بالجوع وأشعر أننى أموت من الظمأ.

إلى الأسفل فى الفناء، كان هناك بئرٌ. لاحظت أسفل الشرفات المقوسة جوالا مفتوحاً به فاكهة جافة، تأتى العصافير لتنقرها؛ فتدحرجت حتى حزمة البضاعة، استحييت قليلاً، ذلك أن لالا أسماء كانت تقول لى

دوماً، أنه ليس هناك أسوأ من سرقة الآخرين، لابسبب ما نأخذه منهم، بل بسبب خداعنا لهم، ولأننى كنت جائعة للغاية، أبعدت تعاليم لالا أسماء عن رأسى.

جلست القرفصاء بجوار الحقيبة المفتوحة، والتهمت بعض التمر والتين المجفف وحفن من العنب الجاف الذى أخرجته من تعليبه البلاستيكى، وأظن أنه كان بإمكانى أن آكل الجزء الأكبر من حزمة البضاعة لو أن صاحب البضاعة لم يأتى فى صمت من الخلف؛ مسكنى بيده اليسرى من شعرى وبيده الأخرى طوقنى بزُنار[1] وقال لى: "أيتها اللصة الزنجية !، سوف أريك ماذا أفعل بأمثالك من البشر"، وأذكر أن أكثر ما كان يؤلمنى هو ليس مباغتته لى، وإنما الطريقة التى كان يمسك بها شعرى بأصبعه ويناديني "أيتها السوداء! "، لأن ذلك لم يكن شئ يتلفظ به أحد مطلقاً ولا حتى زُهرة فى غضبها، فلقد كانت تدرك أن لالا أسماء لا يمكن أن تطيق مثل هذا الشئ.

تخبطت، ولكى أفلت منه، ضرستهُ حتى سال دمه، وجابهته وصحت فيه: "لست لصة، سوف أدفع لك ثمن ما أكلته".

فى هذه الأثناء، أتت السيدة جميلة ومالت سيدات الطابق من الشرفات، وشرعن فى سب التاجر الجائل بشتائم لم أسمعها قط، حتى أن إحدى الأميرات لم تجد قذيفة أفضل من أن تلقى عليه قطعاً من النقود فئة

---

(1) حزام. (المترجم)

العشرة والعشرين سنتيماً[2] صائحة فى وجهه: "هاك أيها اللص!"، ظل التاجر مبهوتاً أمام مجون السيدات، أسفل سيل قطع النقود، إلى أن أخذتنى السيدة جميلة من ساعدى واصطحبتنى إلى الطابق، وأعتقد أنه كان بيدى إلى هذه اللحظة حفن من العنب الجاف لم أدعها حتى عندما تناولنى التاجر من شعرى وضربنى بزُناره.

غير أن الهلع تملكنى بغتة، أو ربما كان ذلك ركام كل ما حدث فى هذا الوقت مع لالا أسماء التى سقطت على البلاط، وزُهرة التى طردتنى ناهبةً قرط أذنى، فأخذت أبكي بشدة على السلم حتى أننى لم أتمكن من الصعود. حملتنى السيدة جميلة، التى لم تكن أضخم منى، إلى أعلى كما لو كنت طفلة صغيرة، وكررت فى أذنى: " ابنتى !، ابنتى ! "؛ أما أنا فقد أشتد بكائى لأننى افتقدت جدتى وعثرت على أم لى فى يوم واحد.

فى أعلى السلم، كانت الأميرات – اللواتى كنت ألقبهن كذلك فى أعماقى حتى حينما أدركت أنهن لسن أميرات بحق – تنتظرننى بألف مداعبة وإشارة ترحيب؛ "وسألننى عن اسمى وكررنه بينهن: "ليلى، ليلى"، وحملن إلىَّ الشاى المركز والحلوى المصنوعة من العسل، فتناولت كل ما استطعت أن أتناوله؛ ثم أعددن لى فراشاً فى غرفة كبيرة، رطبة، بها وسدات ملقاة على الأرض، فرقدت بعد ذلك مباشرة وسط هرج ومرج الفندق،

---

(2) وحدة من العملة الفرنسية، والفرنك يشتمل على مائة سنتيماً. (المترجم)

يهدهدني صوت موسيقى المذياع في الفناء. وهكذا دخلت في حياة السيدة جميلة قاتلة الأجنة وأميراتها الستة.

تدبرت حياتي بالفندق بشكل هادئ ولافت للنظر، ويمكنني أن أقول غير مبالغة، أن هذه الفترة كانت أكثر فترة من حياتي سعادة؛ فلم يكن هناك أدنى إجبار ولا أدنى هَمٍ، فلقد وجدت في شخص السيدة جميلة وفي شخص الأميرات كل البهجة، وكل المحبة التي حرُمت منها حتى ذلك الحين.

حينما كان ينتابني الجوع، كنت آكلُ، وحينما كان ينتابني النعاس كنت أنام، وحينما كنت أرغب في الخروج – وهو ما كان يحدث بشكل ثابت تقريباً – كنت أخرج دون أن أسأل أحدا، دون أن أسأل عن أي شئ كان. كانت الحرية المطلقة التي حييتها في الفندق هي حرية النسوة اللواتي كنت أشاركهن عيشهن، ولم يكن لديهن حساب الساعات، طالما أنهن سعيدات، وتبنينني كما لو كنت ابنتهن، أو بالأحرى دُمية، أو أخت صغيرة جداً، وهكذا كن ينادينني. وكانت السيدة جميلة تناديني: "يا ابنتي"، وكانت فاطمة وزبيدة وعائشة وسليمة وحورية وتغادير ينادينني: "شقيقتنا الصغرى"، لأنهن كن بحق في عمر أمي، وكنت أنام دورياً في كل غرفة تشغلها اثنتان من الأميرات، إلا تغادير التي كانت غرفتها دون نافذة، والتي نمت فيها اليوم الأولى. كانت للسيدة جميلة شقة على الجانب الآخر من الرواق، بها نافذة تطل على الشارع، وكنت أرقد هناك أيضا في بعض

الأحيان، ولكن بشكل نادر نظراً لانشغال السيدة جميلة في مكتبها المخصص للفحص الطبي، حيث كانت تأوى السيدات اللواتي لديهن مشكلة في طفل؛ ولما كانت تتلقى المرضى، كنت أدرك أنه لا ينبغي أن أذهب لأطرق بابها. وفي مثل هذه الليالي، كانت تغلق الباب بالمزلاج وكنت أرى عبر السجف الفانوس الذى كانت تتركه مشعلاً في مكتبها، وكان ذلك بمثابة إشارة فهمتها بسرعة.

كانت الأميرات تحببني كثيراً، وكن يشركنني في مهامهن وشئونهن، وكنت أحضر لهن الشاى في الفناء أو اشترى لهن الحلوى من السوق أو الغليون، وأحمل رسائلهن إلى مكتب البريد؛ وفي بعض الأحيان، كن يصطحبنني معهن لإجراء المشتريات في المدينة، ليس كي أحمل حقائبهن - فلقد كان هناك دوما صبية لذلك الأمر - إنما كي أعاونهن على الشراء، ولكي أساوم في الأسعار، فلقد كانت لالا أسماء تعلمني أن أشترى بمساومة الباعة الجائلين الذين كانوا يطرقون بابها، فاستوعبت دروسها جيداً.

كانت زبيدة تحب أن تذهب معي إلى سوق القماش، وكانت تختار أقمشة من القطن لحياكة ثوب أو لغطاء فراش. كانت فارعة ونحيفة، لونها كالحليب، شعرها أسود في لون السبج[3]؛ وكانت تلتف بالمنسوجات وتتقدم

---

(3) السبج هو مادة قيرية سوداء، وتستخدم اللفظة jais في اللغة الفرنسية للدلالة على شدة السواد. (المترجم)

فى الضوء وتقول لى: "كيف ترينني؟ "، وكنت آخذ وقتا حتى أجيبها، كنت أقول مجدة: هذا حسن ولكن اللون الأزرق الداكن يناسبك أكثر".

كان التجار يعرفونني، ويدركون أننى أساومهم بشكل لاذع كما لو كنت أنا التى تدفع، ولم يكن بوسعهم أن يخدعوننى فى الجودة، فلقد تعلمت هذا أيضا من لالا أسماء. ذات يوم منعت فاطمة من شراء حُلية ذهبية فيروزية قائلة لها: "انظرى يا فاطمة هذا ليس بحجر حقيقى، إنما هو طرف معدن مطلى"؛ وضعته على أسنانى وقلت: "أترين؟ ليس هناك من شئ بداخله"، غضب التاجر، بَيدَ أن فاطمة وبختـه قائلة: "صه، إن أختى الصغرى تقول دوما الحق، انج بنفسك لأننى لن أضعك أمام القاضى ".

واعتباراً من ذلك اليوم، ضاعفت الأميرات من انتباههن لى، وكن يقصصن حسن صنيعى مع كل الناس، والآن، حتى الباعة الجائلين فى الفندق، يحيوننى بوقار. كانوا يأتون إلىّ حتى أتوسط لدى هذه وتلك، وكانوا يسعون أن يشتروننى بأن يقدموا لى الهدايا، ولكننى لم أكن أخدعُ، فقط كنت آخذ الحلوى واللوز المسكر من التاجر وأقول لفاطمة أو زبيدة: "احذريه، إنه بكل تأكيد لئيم".

وكانت السيدة جميلة تعرف كل ما يحدث، ولم تكن تتحدث عن شئ، ولكننى رأيت أنها لم تكن راضية. حينما كنت أمضى أجرى المشتريات، أو كانت إحدى الأميرات تصطحبنى للخارج، كانت تتعقبنى بنظرتها، وكانت تقول لفاطمة: "أتصحبيها إلى هناك ؟" على سبيل اللوم، أو كانت

تحاول أن تأخذني وتكلفني بواجبات أفعلها، صفحات أكتبها أو حساب أو علوم طبيعية، فلقد أرادت أن تعلمني الكتابة باللغة العربية. لقد كانت تتوسم فيَّ خيراً.

ولكنني لم أعر انتباها إلى ما كانت تريد أن تقوله لى، وكنت ثملة بالحرية، فلقد حييت سجينة لفترة طويلة، وكنت مهيأة للفرار إذا ما سعى امرؤ إلى أسرى.

واليوم أجد مشقة فى الاعتقاد بأن الأميرات لم تكن أميرات، كنت أمزح معهن؛ كانت هناك زبيدة وسليمة اللتان كانتا فى مقتبل العمر، لا مباليات، تضحكان طوال الوقت، ولقد اتيتا من قرى الجبل، هاربتين، وكانتا تعيشان محاطتين بلفيف من الرجال، تمتطيان السيارات الأمريكية الأنيقة التي كانت تأتي تسعى إليهن أمام الفندق. أتذكر أنه ذات مساء، جاءت سيارة سوداء كبيرة زجاجها مطلى، تحمل علمين على جناحيها، علمان من اللون الأخضر والأبيض والأحمر والأسود أيضاً، فقالت تغادير لى: "إنه رجل ذو شأن وثرى"، حاولت أن أنظر إلى داخل السيارة، بَيدَ أن الزجاج الأسود لم يتح لى أن أرى شئ، وقلت لها "أهو ملكُ؟"، أجابت تغادير دون أن تسخر منى: "إنه إنسان مهم مثل الملك".

كنت أحب وجه تغادير كثيراً، ولم تكن شابة إلى درجة كبيرة، كانت بها بعض التجاعيد اللاحظة فى ركن عينها وكأنها تبتسم، وكان جلدها شديد السمرة، به وشم صغير مخط على الجبين، وكنت أذهب معها

إلى صالة الاستحمام مرتين أسبوعياً. كان ذلك يحدث على مقربة من مصب النهر بالقرب من رصيف الشحن، وكانت تغادير تعطيني منشفة عريضة، وتأخذ معها حقيبة بها أشياء نظيفة، وكنا نمضي سوياً؛ وفي عهد لالا أسماء، لم أكن اعرف أن هناك مكان مثل ذلك، ولم أتخيل قط أن أتجرد من ملابسي أمام الأُخريات.

لم تكن تغادير تحتشم البتة، تغدو وتعود أمامي عارية من ملابسها، وتحك جسدها بأحجار نسفة[4]، وتدعك نفسها بقفازات من الساف[5]؛ وكان ثديها مكتنزاً، حلمته في لون البنفسج، وكان جلدها ينثني على أردافها وجوفها، وكانت تنزع بعناية شعر عانتها وإبطها وأفخاذها، وكنت أبدو بجوارها زنجية صغيرة هزيلة البنية؛ وبالرغم من كل شئ، لم أكن أتمكن من إخفاء خثلتي[6] بمنشفة.

كانت تغادير تحب أن أقوم بتدليك ظهرها وعنقها بزيت لب النرجيل[7]، الذى تبتاعه من السوق والذى يشيع برائحة الفانليا. وفي صالة الاستحمام العامة، كانت غيوم البخار تتدحرج خلف الأجساد، وكانت هناك

---

(4) أحجار نخرة توجد عادة عند مرمى الموج فى البحار. (المترجم)

(5) الساف هو جلد الحيوان. (المترجم)

(6) الخثلة هى أسفل البطن. (المترجم)

(7) لب النارجيل هو لب يعصر منه دهن النارجيل وهو من السمون النباتية الشهيرة. (المترجم)

دوما ضوضاء من الأصوات والصراخ والهتافات، وكان هناك صبية عرايا تماماً، يهرولون على طول حوض الماء الساخن وهم يصرخون، وكان كل ذلك يجعل رأسي يدور ويحمل إلىَّ الغثيان، وكانت تقول لى: "استمرى يا ليلى، إن يديك قاسياتان وهذا ما يريحنى".

لم أكن أعرف ما إذا كنت أحب ذلك، فلقد كنت أمضى فى غلغلة الزيت في ظهر تغادير، وكنت أستنشق رائحة الفانليا ورائحة العرق؛ ولكى تفيقنى، كانت تغادير تنضحنى بالماء البارد وتضحك حينما أفرُ وشعر كل جسدى منتفش.

غدوت تميمة الفندق، ربما لم تكن السيدة جميلة سعيدة لأجل هذا السبب؛ من الجائز أنها كانت تعتقد أننى كنت مُداعبة وممدوحة لحد أكثر من اللازم لدى الأميرات، وبالتالى كان ذلك ينعكف على خطر قد يفسد طابعى من فرط سماعى لهؤلاء النسوة يمتدحننى طيلة النهار قائلين: "آه لكم هى جميلة!" وبسبب استغلالى فى نزواتهن، انتهيت إلى تصديقهن، وتأقلمت بخيلاء مع نزواتهن. وكن يبهرجننى بأثواب فضفاضة، ويطلين أظافرى بالزجنفر، وشفاهى بالمسحوق القرمزى، ويزين عيناى بالكُحل. كانت سليمة التى هى من أصل سودانى تهتم بتصفيف شعرى، كانت تقسم شعرى إلى مربعات صغيرة، ثم تجدلها بخيط أحمر أو بعقد ملون، أو كانت تغسله بصابون جوز الهند، حتى تجعله أكثر جفافاً وانتفاخا مثل لبدة الأسد، وكانت تقول لى أن أفضل شئ فىَّ، هو جبهتى وأهدابى الطويلة المقوسة بشكل

باهر، وعيناى لوزيـة الشكل، وربمـا كـانت تقـول لى ذلـك لأننـى أشبهـها، وكـانت تغـادير تخـط يـدى بالحنـاء، أو تخـط علـى جبينـى ووجنتـى نفـس العلامات التى كانت تضعها هـى مستخدمة قـذاة مبللـة فـى سواد مصباح، وكانت تعلمنى الدق على الدف وأنا أرقص فى وسـط غرفتـها، وعندمـا كـانت الأميرات تنصتن إلى صوت الدف الصغـير، كـن يـأتين لأرقـص لهـن وأقدامـى عارية على البلاط، دائرة حول نفسى إلى أن أترنح.

كنت أنفق السواد الأعظم من فترة ما بعد الظهيرة فى هذه التصرفات الصبيانية؛ وفى المساء كانت الأميرات تسرحننى لكى تستقبلن زيارتـهن، أو أذهب إلى غرفة من غرف أولئك اللواتى يخرجن فى سيارة. وحينئـذ، كـانت السيدة جميلة تنظفنى بطرف منشفة مبللة وتقول لى: "ماذا فعلن بـك ثانيـة، أنهن معتوهات". وبشعرى المنتفش والكُحل السائل وأحمر الشفاه الذى يطفـح على وجهى، كنـت أشبه، علـى الأرجـح، دُميـة مجهلـة، ولم تكـن السيدة جميلة تقوى على إمساك نفسها عن الضحك من مشهدى، وكنت أنام مـهدهدة بإعصار ذكريات هذه الأيام الطويلة جداً، إلى حد أننى لم أعد أتمكن من تذكـر كيف بدأت.

ظفرت حورية بإيثارى لها، كانت أكثرهن شباباً، وآخر من أتى إلى الفنـدق؛ وصلـت قبلـى ببضعـة أيـام، قَدمـت مـن مدينـة بربريـة بعيـدة مـن الجنوب، كانت مقترنـة برجل ثرى من تنجر، قهرها وأخذها عنوة، فـأعدت حقيبة صغيرة ذات يوم وفـرت؛ انتشلتها تغـادير مـن شـارع بجـوار محطـة

القطار، وحملتها إلى هنا حتى تتمكن من الاختفاء والفرار من رسل زوجها، وخشيت السيدة جميلة هذا الأمر، ولكنها وافقت شريطة أن تنصرف حورية متى زال الخطر، فلم تكن ترغب في مضايقات الشرطة.

كانت حورية قصيرة ورقيقة، كان يبدو عليها أنها طفلة تقريباً؛ أصبحنا بسرعة أصدقاء، وكانت تصطحبني معها في كل مكان، حتى في المساء، إلى المطاعم والحانات الليلية، وكانت تقدمني إلى أصدقائها وكأني أختها الصغيرة، وكانت تقول لهم: "إنها أختي، ألا تشبهني؟".

كان وجهها جميل الطلعة، متناسق، وأهدابها مرصوصة وعيناها أجمل العيون التي رأيتها قاطبة؛ لم أطرح عليها سؤالاً عن الطريقة التي تكسب بها عيشها، كنت أعتقد أنها تتلقى هدايا، لأنها تعرف كيف ترقص وتغني، ثم أنها كانت جميلة، فلم يكن لدى أي فكرة عما تكون عليه أي مهنة ما، وما يمكن أن يكون حسناً أو سيئاً؛ عشت كحيوان صغير مستأنس، وكنت أرى حسناً فيمن يمدحني ويداعبني، وسوءاً في كل من كان يمثل خطر عليّ ويخيفني مثل هابيل الذي كان ينظر إليّ كما لو كان يريد أن يلتهمني، أو زُهرة التي تسعى إليّ بالشرطة قائلة لها أنني سرقت أم زوجها.

أكثر ما كان يخيفني هو الوحدة؛ أحيانا في نومي كنت أعيش ما حدث منذ زمن بعيد حينما أختطفت، وكنت أرى الضوء في شارع مبيض، وأسمع صيحة العصفور الأسود المتوحشة؛ أو كنت أسمع صوت العظمة التي كسرت في رأسي حينما صدمتني الشاحنة.

حينئذ كنت أتدحرج فى فراش حورية، وأطبق عليها بشدة وألتصق بظهرها كما لو كان سيغشى على، وكانت هى الأولى التى قصت لى عن جذورى، حينما قصصت عليها القرط الذى نهبته زُهرة، قالت أنها تعرف أين يكون أناس عشيرتى، الهلاليين، ناس هلال القمر على الجانب الآخر من الجبل، على شاطئ نهر عريض جاف، ووددت أن أذهب إلى هناك فى هذه القرية التى دخلتها، فى الشارع الذى فى نهايته تكون أمى التى ترقب قدومى إليها.

غير أن حورية لم تمكث كثيراً فى الفندق، فلقد رحلت ذات صباح، ولم يكن ذلك من جراء زوجها، ولكن بسببى أنا.

ذات مساء، ذهبتُ إلى مطعم على شاطئ البحر مع حورية وأصدقائها، وسرنا كثيراً أثناء الليل حتى أتينا شاطئ عريض خال، وكنت فى مؤخرة مقاعد السيارة المرسيدس بجوار الباب،وكانت حورية تجلس فى وسط السيارة مع رجل، وكان هناك أيضا رجلان فى الأمام وامرأة شقراء، يتحدثون بصوت مرتفع، وبلغة لم أعرفها، ظننت أنها من الجائز أن تكون الروسية، وأتذكر جيداً الرجل الذى كان يقود السيارة، فلقد كان طويلاً وقوياً مثل هابيل، شعره كثيف وذقنه أسود؛ وأذكر أيضا أنه كان له عين زرقاء وأخرى سوداء. ظللنا لوقت طويل فى المطعم، ومن الجائز أن الساعة كانت منتصف الليل. كان مطعما بهياً، به ثمة شعلُ تضئ رمال الشاطئ، وكان هناك فتيان يرتدون الحلل البيضاء. أمضيت السهرة أرمق البحر الأسود،

وضوء زوارق الصيد التى تعود وضوء "فنار بعيد. كانت السيدة الشقراء تتحدث وتضحك بشدة، وكان الرجال يحاصرون حورية؛ وكانت الريح التى تمر من النافذة المفتوحة تحمل دخان الغليون. شربت خمراً خلسة؛ أسقانى سائق المرسيدس فى كأسه، خمر لذيذ للغاية، كثير السكر، يشعل الحلق؛ كان يحدثني بالفرنسية بلكنة غريبة ثقيلة إلى حد ما يجرها على الكلمات، وكنت متعبة إلى حد أننى نمت على مقعد بالقرب من إحدى نوافذ السيارة.

ما إن أفقت حتى وجدتنى بمفردى فى مؤخرة السيارة، والسائق يميل علىَّ، ورأيت شعره المجعد المتلألئ فى ضوء المطعم. لم أدرك الأمر فى الحال، ولكنه حينما وضع يده أسفل ثوبى استيقظت؛ كنت ثملة وكان لدى رغبة فى التقيئ. صرخت رغم إرادتى لما انتابنى خوف، وحينما أراد السائق أن يضع يده على فمى ضربته وصرخت فيه وأنا أنشب مخالبى فى جسده.

أتت حورية على الفور، كانت أكثر غضباً منى، جذبت الرجل من الخلف، وضربته بقبضة يديها، وصاحت فيه بالشتائم؛ حاول الرجل أن يرد الشتائم، تقهقر على الشاطئ، وتناولت حورية حجراً غليظاً، وكادت أن تقتله لو أن الأخرين لم يأتوا؛ ظلت تسب السائق حتى بكت، وبكيت أنا أيضا. ثم أبتعد السائق بنفسه وذهب على الجانب الآخر من السيارة، وأشعل سيجارة كما لو كان شيئا لم يحدث، وبعد لحظة هدأ روع حورية واستطعنا أن نستقل السيارة. كان السائق يقود السيارة دون أن ينظر إلينا، يضع سيجارته فى فمه، ولم يعد أحد يتفوه بشئ، حتى أن الروسية صمتت..

أودعتنا السيارة فى السويقة، ودلفنا حتى الفندق، وكان هناك حتى هذه اللحظة أناس كثيرون فى الخارج. فى الغالب حدث ذلك فى مساء يوم سبت. كان شارع العشاق العريض ممتلئُ، كان به زوج من البشر أسفل كل مغنولية[8]. ابتاعت حورية فنجانين للشاى والحلوى. كنا منهكتين، نرتعش كما يحدث على أثر حادثة، ولم تتحدث حورية عما حدث، إلا أنها قالت مرة واحدة: "أين الكلب هذا قال لى: دعيها تنم وسوف أقوم عليها كأبيها".

علمت السيدة جميلة أمر ما حدث على الشاطئ، ولكنها لم تقرر بنفسها أن ترحل حورية؛ ففى الصباح أخذت حورية حقيبتها التى كانت معها حينما التقت بها تغادير بالقرب من محطة القطار، ورحلت دون تبرير، ربما عادت إلى زوجها فى تانجر، لم أعد أعرف عنها شيئاً على مدار أشهر، بَيدَ أن رحيلها جعلنى حزينة جداً لأنها كانت بحق كأختى إلى حد ما.

بعد ذلك اليوم، حاولت السيدة جميلة أن تمنعنى من الخروج مع الأميرات الأخريات، ولكننى مع حورية اعتدت الحرية ولم أعد أمارسها سوى فى رأسى؛ وبصحبتى لعائشة وسليمة اعتدت عادة أخرى: شرعت فى السرقة.

---

(8) المغنولية نبات زهرى جميل الطلعة أوراقه رائعة. (المترجم)

كان ذلك بداية مع سليمة، عندما كانت تتلقى وصديقها فى الفندق، أو عندما كانت تمضى إلى المطعم، كنت أرافقها، وكنت أتخذ جانباً، متقلصة إلى الباب كالحيوان مترقبة اللحظة. كان صديق سليمة فرنسياً، مدرساً للجغرافيا فى المدرسة الثانوية، أو شئ من هذا القبيل، وكان رجلاً حسن الملبس، يرتدى حُلة من قماش الفلانيلا الرمادى وصدرة وحذاءً أسوداً مطلياً طلاءً حسناً.

كانت له عادت مع سليمة، كان يصطحبها فى البداية لتناول وجبة الغذاء فى مطعم بالمدينة القديمة، ثم كان يحملها إلى الفندق، وكان يقيم فى الغرفة التى ليس بها نافذة، وكان يحمل إلىّ الحلوى ويعطينى فى بعض الأحيان قطع النقود، وكنت أظل جالسة أمام الغرفة ككلب حراسة، وفى الواقع كنت أنتظر كثيراً حتى ينهمكان وأدخل الغرفة بخفة متناهية، ثم أندس فى الضوء الخافت حتى أصل إلى الفراش، ولم أكن أهتم بما تفعله سليمة مع الفرنسى، كنت أبحث عن ملابسه، فقد كان المدرس رجلاً يعتنى بهندامه، فكان يطوى البنطال ويضع حلته وصدرته فوق مسند مقعد، وكانت أصابعى تتدحرج فى الجيب كحيوان صغير خفيف الحركة، وتأخذ كل ما تعثر عليه: ساعة بصلية الشكل، خاتم من الذهب، حافظة نقود منسوجة من أوراق البنك ومليئة بالنقود، قلم أزرق رائع مطلى بالذهب، وكنت أحمل غنيمتى إلى الرواق حتى أتفحصها فى ضوء النهار، وأختار منها بضعة أوراق

وبضعة نقود؛ ومن وقت إلى آخر، كنت أحتفظ بشئ يعجبني، أزرة حاشية قميص من عرق اللؤلؤ أو القلم الأزرق الصغير.

أظن أن المدرس انتهى إلى الشك في شئ ما، ذلك أنه، ذات يوم، أهداني سواراً من الفضة في علبة صغيرة، وحينما قدمه إليّ قال: "هذا حق لك"؛ كان رجلاً عطوفاً معي، فكنت في خجل من نفسي لما فعلت، وفي ذات الوقت، لم أكن أقدر على حبس نفسي عن إعادة الكَرة، وكنت أفعل ذلك ليس لروح شريرة بي، وإنما على سبيل اللعب، فلم تكن لدى حاجة إلى النقود، سوى أن أشترى هدايا لسليمة وعائشة أو للأميرات الأخريات، ولم تكن النقود تفيدني في شئ.

ظللت أسرق بصحبة عائشة في المتاجر، كنت أصحبها إلى وسط المدينة وأدخل معها إلى المتجر، وبينما كانت تنهمك في شراء الحلوى، كنت أملأ جيوبي بكل ما أجد من الشيكولاته وعلب السردين والبسكويت والعنب المجفف؛ وما إن كنت أبلغ خارج المتجر، حتى كنت أنقب سعياً عن فرصة، فلم أعد حتى في حاجة إلى صحبتها. كنت قصيرة سوداء البشرة، وكنت أعلم أن الناس لا يعبئون بي، ولا يمكن رؤيتي. ولكن في السوق، لم يكن هناك من شئ أفعله، كان التجار يعرفونني وكنت أحس أن عيونهم ترقب كل حركاتي.

كنت أذهب وعائشة إلى مكان بعيد جداً حتى حي المحيط حيث تقام فيلات رائعة وأبنية كلها حديثة البناء، وحدائق. كانت عائشة تحب أن

تتجول كثيراً في المراكز التجارية، وفي هذه الأثناء، كنت أمضى إلى دار المقابر كي أرمق البحر.

وفي هذا المكان كنت أشعر بأنني في مأمن، كان الجو ساكناً وصامتاً، لانرى فيه ازدحام المدينة، وكان يبدو لى أن ذلك هو فضائى منذ الأبد. كنت أجلس فوق أكمة المقابر وأستنشق رائحة عسل النباتات الصغيرة كثيفة الأوراق، ذات الورود الروزية، ثم أتلمس الأرض براحة يدى حول المقابر.

في هذا المكان، كان بوسعي أن أتحدث مع لالا أسماء، لكنني لم أكن أعرف البتة أين دُفنت؛ كانت يهودية ولهذا السبب لم يكن ينبغي لها أن تدفن بين المسلمين؛ غير أن هذا الأمر لم يكن له أهمية بالنسبة لى، لقد كنت أشعر بأنني على مقربة منها، في دار المقابر هذه، وأنه بوسعها أن تسمعني. قصصت عليها حياتي، ليس كل شئ، مقتطفات فحسب، ولم أرد الدخول في تفاصيل، فقلت: "ياجدتي لن تكوني فخورة بي، أنت التي كانت تقول لى دوما أنه ينبغي أن نحترم متاع الأخرين، وأن نقول الحق، ها أنا الآن أكبر اللصوص وأكبر كاذبة على وجه الأرض".

حزنت للتحدث إلى لالا أسماء عبر الأرض، وكنت أزرف الدمع ولكن الريح كانت تجففه في الحال، كل شئ أصبح طيباً للغاية في هذا المكان: أكمة المقابر المغطاة بالزهور الوردية الصغيرة، وأحجار المقابر البيضاء التي لا تحمل أسماءً، والآيات القرآنية المحاة، والبحر الأزرق الذى يُرى من بعيد،

وطيور النورس المعلقة فى السماء، والتى تنزلق على الريح وترشقنى بعين حمراء وماكرة. كانت هناك سناجب بدار المقابر، ويبدو أنها كانت تخرج من المقابر، كانت تعيش مع الموتى، ربما كانت تأكل أسنانهم كما تأكل الجوز.

لم ينتابنى قط الخوف من الموتى، فلأنى رأيت لالا أسماء هاوية على بلاط الصالة تغط وتقرقر، أعطانى هذا الأمر فكرة عن أن الموت عبارة عن سبات عميق، فلم يكن الموتى هم الذين أخشاهم فى دار المقابر.

ذات يوم، ظهر لى عجوز ضارب فى العمر، له لحية بيضاء؛ من الجائز أنه كان يرقبني منذ وقت طويل، تسمر بجوار مقبرة كما لو كان قد خرج منها، وعندما نظرت إليه مرر يده أسفل ثوبه ثم رفعها وأبان عن نفسه. فكر أنه ربما خوف ينتابنى وأصيح؛ غير أننى فى الفندق كنت أرى رجال عرايا تقريباً كل يوم، وكنت أنصت لمداعبات الأميرات حول موضوع أعضاء الرجال التى كن يحكمن عليها عامة أنها غير كافية إلى حد ما.

طاب لى أن ألقى بحصوة على العجوز وفررت وسط المقابر، بينما كان يسبنى ويمسك ببابوجه محاولاً تتبعي قائلاً: "أيتها الساحرة الصغيرة!"

- "أيها الكلب العجوز !"

فى هذا اليوم فهمت أنه ينبغى ألا ننخدع بالمظهر، وأن عجوز فى ثوب أبيض ولحية أنيقة يمكن فى الغالب ألا يكون سوى جرو لئيم..

كان حي المحيط مكانا مهيئاً للسرقة، فكانت هناك متاجر رائعة، بها أشياء للأثرياء فقط، كما لو كان المرؤ لايجدها في جانب سوق المدينة القديمة. في السويقة، لم يكن هناك سوى نوع من البسكويت، نوع من المضيفة، وكشراب، فقط الفانتا بعصير البرتقال أو البيبسي؛ أما في متاجر حي المحيط، كان المرؤ يجد علب من عصير بأسماء مدونة باليابانية والصينية والألمانية، لها مذاق جديد غير معروف، كالتمر الهندي والكيوي[9] والجوافة، وكنا نجد سجائر من كل البلدان حتى السجائر الطويلة السوداء ذات الطرف الذهبي التي كنت أشتريها لعائشة، والشيكولاته السويسرية التي كنت أسرقها من العرض في المحلات.

كنت أدخل إلى المتاجر خلف عائشة، وأقوم بجولة، وأخرج وجيوبي ممتلئة. لم يكن الناس يعرفوني، فلم يكونوا يحذرونني. كان يبدو عليَّ أنني فتاة صغيرة عاقلة في ثوبي الأزرق ذي العنق الأبيض، والشريط الأبيض في شعري الكث، وعيني الساذجتين. اعتقدوا أنني قاطنة جديدة في الحي، وأنني أصطحب أمي التي تعمل في الفلل، ولاحظت أن الكثير من الناس بسطاء، لم يستوعبوا الدرس بسرعة مثلي، كانوا يعتقدون بداية فيما يرون، وفيما يقال لهم، وفيما يجعلهم يعتقدون فيه الآخرون. كنت في الرابعة عشرة من عمري، وكان يبدو عليَّ أنني في الثانية عشرة، وكنت أعلم

---

(9) ثمرة حلوة المذاق. (المترجم)

من الجن، هكذا كانت تقول لى تغادير، وربما كان لديها الحق فى قولها هذا، وكانت تتشاجر مع سليمة وعائشة وكانت تعاملهن كقوادات.

أعتقد أنه لم يكن لدى أى معنى للتقدير والسلطة، فلقد كنت أخاطر بنفسى فى أسوأ المتاعب؛ وفى أثناء هذه الفترة من حياتى، تشكل طابعى وأصبحت غير قابلة للتكيف مع أى شكل من النظام، مائلةً لعدم الإذعان إلا لرغباتى فاكتسبت نظرة قاسية.

وضعت السيدة جميلة فى حسبانها أن تلك الأمور لن تدوم، لكنها لم تعتاد الأطفال أو بمعنى آخر، كانت الأميرات بمثابة أطفالها؛ ولكى تصحح الانحدار السئ الذى تركتنى اكتسبه، أرادت أن تدون اسمى فى المدرسة، ولكننى لم أكن أتحدث العربية بشكل جيد حتى أتمكن من دخول مدرسة بلدية، وكان عمرى متقدم جداً على الدخول فى مدرسة أجنبية، وإضافة إلى ذلك، لم يكن لدى أى مستند يدل على شخصيتى، فاختارت لى شيئا من قبيل المدرسة الداخلية، حيث كانت هناك امرأة جافة شرسة تدعى الآنسة روز تأخذ على عاتقها مسؤولية اثنتى عشرة صبية عضال. وفى الحقيقة، كان ذلك المكان بمثابة دار إصلاح على الأرجح. كانت الآنسة روز راهبة فرنسية نزعت عنها لباس الرهبنة، وراحت تعيش مع رجل أصغر منها سناً يكرس وقته للحسابات وأمانة الصندوق.

كان السواد الأعظم من الفتيات لهن ماض محمل أكثر من أى ماضى، فكن إما هاربات من منازلهن، وإما لهن عشاق، وإما خطبن وجعلتهن أسرهن

حبيسات الدار حتى تتيقن من خاتمتهن؛ أما أنا فقد كنت حرة بجوراهن غير مهمومة، ولم أكن أخش شيئاً، ولم أبق سوى بضعة أشهر لدى السيدة روز.

أساس التربية في الداخلية كان ينص على تكليف الفتيات في أعمال الحياكة والكي وقراءة كتب عن الأخلاق، وأعطتنا الآنسة روز بعض دروس اللغة الفرنسية ودرس لنا المحاسب الوسيم ببخل شديد أهم أفكار في الحساب والهندسة.

عندما كنت أصفُ للأميرات عبودية الفتيات المضطرات إلى كنس وتنظيف أرض الداخلية، أو عندما كنت أقص عليهن أن أصابع الفتيات تحترق بآلات كواء الملابس، أو من مماسك الطناجر، كانت الأميرات تسخطن. أما بالنسبة لي، فلم تكن المسألة أن أزين أي شئ كان، أو أن أقوم بأعمال النظافة، فلقد فعلت كل ذلك للالا أسماء، لأنها كانت جدتي، وكنتُ مدينة لها بحياتي، ولم يكن الأمر أن أعيد الكَرة كي أنال إعجاب فتاة طاعنة في السن تتقاضى أجرها بصرف النظر عن هذه الأشغال. كنت أسعد بالمكوث جالسة على مقعدي، أستمع إلى دروس الآنسة روز التي كانت تقرأ بصوتها الأبح" الزيرُ والنملة"[10] أو "حلم الياغور"[11]. ولم أتعلم الكثير في داخلية

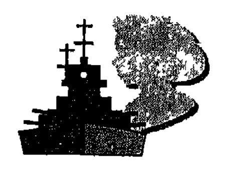
(10- 11) إحدى حكايات لافونتين الشعرية Les Fables ، كتبت في القرن السابع عشر، التي يحاول فيها أن يسرد قصة على لسان الحيوانات للخروج بموعظة أو حكمة، ولقد حاكى فيها المؤلف الإغريقي إيزوب، وهناك دلائل على تأثر صاحب هذه الحكايات بكليلة ودمنة.

الآنسة روز، ولكنني تعلمت أن أقدر حريتي، وقطعت عهداً على نفسي حينئذ، أنه مهما حدث لن أدع نفسي مطلقاً تُسلب هذه الحرية.

في نهاية هذا الفصل الدراسي في الداخلية، أتت الآنسة روز بشخصها إلى الفندق حتى تتبين، بلا شك، الوسط الذي صنع إنسان سئ الطباع مثلي، وكانت السيدة جميلة في جولة خارج الفندق، فقابلتها كل من سليمة وعائشة وزبيدة في الرواق بملابسهن المنزلية الطويلة المصنوعة من قماش الموصلي الملون وأعينهن مفحمة بالكُحل؛ وقلن لها: "نحن عماتها"؛ وأمامها هي التي لم تصدق بأذنيها وعينيها، أثقلنني بالشكوى فقلن أنني كاذبة، سارقة، سليطة، كسولة، وأنني إذا ظللت لدى الآنسة روز سأعرض كل الفتيات الداخليات للهرب أو أحرق الداخلية بآلة كي الملابس، وهكذا طُردت من الداخلية. آلمني ذلك قليلاً، بسبب كل النقود التي خصصتها السيدة جميلة لتربيتي، لكنه لم يكن بوسعي أن أعاقب بالأشغال الشاقة كي أرضيها فحسب.

وهكذا بعد شهور انقطاع، عثرت على حريتي، التسكع في السويقة، في حي المحيط الثري، في دار المقابر الكبيرة أمام البحر؛ غير أن سعادتي كانت قصيرة الأمد. حينما عدت ذات ظهيرة من غزوة وجيوبي ممتلئة بأشياء غير ذات قيمة لأميراتي، قبض عليَّ رجلان يرتديان حُلَى زُرقاء في مدخل الفندق، ولم يكن لدى الوقت كي أصرخ أو أطلب النجاة. مسكاني، كلاهما من ذراع ونهضا بي والقياني في شاحنة صغيرة زرقاء،

نوافذها محروقة. حدث ذلك الأمر وكأن كل شئ يعيد الكَرة، أصبحت مشلولة بالخوف من جديـد، كنـت أتذكـر الشـارع الأبيـض الـذى ينغلـق علـى نفسـه والسماء التى تتوارى. كنت مكورة فى قاع الشاحنة الصغيرة، رُكبى ترتفع إلى جوفى ويداى متكئة إلى أذنى وعيناى مغلقتان، أصبحت من جديد فى الحقيبة الكبيرة السوداء التى كانت تبتلعنى.



حى المحيط

لم تكن لدى أية فكرة عما حدث لى، ولكننى فيما بعد، أدركـت مـا حدث: تعقبتنى شرطة زُهرة ونصبت لى فخاً. كل المتاجر التى سرقتها كـانت تبحث عنى. مثلت أمام قاضى الأحداث، كان رجــلاً هـادئ الطبـاع، يتحـدث بصوت منخفض للغاية؛ وبما أننى كنت أجيب بنعم على كل الأسئلة، بـدوت له مذعنة؛ لكنه أراد أن يسألنى أيضاً عن الفندق، عمـا تفعلـه السـيدة جميلـة والأميرات، وبما أننى لم أجب بشئ فى هذا الصدد، غضب ولكن دائما بلطف جم. كسر فحسب القلم الرصاصى الذى كان يقلبه بين أصابعه وهـو ينظـر إلىّ، كما لو كان يريد أن يفهمنى أنه بوسـعه أن يكسـرنى أنـا أيضـاً بحركـة منـه.

وخلال أيام عديدة، تم استجوابى، ثم أرسلت إلى غرفتى التى كانت نوافذها مسيجة، فكانت كمدرسة أو مبنى ملحق بمستشفى.

ثم سلمنى إلى زُهرة، ولو كان قد ترك لى الاختيار بين زُهرة والسجن، لاخترت السجن، لكنه لم يمنحنى الاختيار.

فى هذا الوقت، كانت زُهرة وهابيل عَظْمة يقيمان فى مبنى جديد فى مخرج المدينة، وسط الحدائق الكبرى؛ كانا قد باعا دار الملاح، ووافقت زُهرة على أن تترك أمها وأباها لتأتى وتعيش فى هذا الحى الراقى.

فى البداية، كانت زُهرة وهابيل عطوفين معى، وكانا يفعلان ذلك معى وكأنهما قد قررا أن تُمحى الشكوى، وكل الماضى، وأن نبدأ بأسس جديدة، وربما كانا يخشيان أيضا السيدة جميلة، أو كانا يشعران أنهما مراقبين.

بيد أن طبيعتهما عادت بسرعة، فبعد مرور وقت ما، عادت زُهرة شريرة معى، فكانت تضربنى، وتصيح فىَّ أننى لستُ سوى خادمة، خادمة لا تفعل شئ، فى الواقع. كانت تتخذ أقل الزرائع حتى تمضى فى غضبها الوحشى، لأننى كسرت قصعة زرقاء، أو لأننى لم أغسل العدس، أو لأننى تركت أثراً على بلاط المطبخ.

لم تكن تدعنى أمضى خارج الدار، وكانت تقول أنه هناك أمر من القاضى ينص على أن أتوقف عن أى ممارسة سيئة. حينما كان يلزم لها المضى خارج الدار، كانت تحبسنى فى الشقة مع كومة الملابس التى فى حاجة إلى

الكيِّ. وذات يوم، صهبت ياقة قميص من أقمصة هابيل، ولكي تعاقبني حرقت زُهرة يدى بالنار. كانت عيناى مفعمة بالدموع، ولكنني كنت أشد على أنيابى بكل ما أوتيت من قوة حتى لا أصيح، فكدت أفقد نَفَسى، كما لو كان شخص ما ضغط على حلقى، ولكنه لم يغشى علىَّ. وحتى اليوم يوجد على يدى مثلث أبيض لن ُيمحى أبداً من أثر تلك الواقعة.

كنت أظن أننى سأموت من الجوع، ولم يكن هناك شئ آكله، وكانت زُهرة تطهى الأرز لجرو صغير كان لديها، كلب من نوع الشتنرو[1]، شعره طويل، لونه أبيض أقرب إلى الصفرة؛ كانت تسقى الأرز بحساء الدجاج، وكان هذا كل ما تعطينى إياه، كان طعامى يقل عن طعام جروها الصغير، فكنت أختلس، من وقت إلى آخر، حبة فاكهة من المطبخ، وكان هناك خوف ينتابنى من ما يمكن أن يحدث إن لمحتنى. كانت قدماى وذراعاى مدثرة باللون الأزرق من جراء ضرباتها لى بالزُنار، لكننى كنت أتضور جوعاً إلى حد أننى كنت أسرق من خزانة المطبخ السكر والبسكويت والفاكهة.

ذات يوم، كان لديها مدعوين على الغداء، أسرة فرنسية يطلق عليها الدلاهاى، فاشترت لهم عنقود عنب أسود كبير من متجر كبير فى حى المحيط؛ وبينما كانوا يأكلون المشهيات، كنت أرقب فى المطبخ وآكُلُ الكَرْم. ثم لاحظتُ أننى التهمت كل الحبوب المتراصة على العنقود. حينئذ، وحتى

(1) جنس الكلب أو فصيلته. (المترجم)

أوجل لحظة اكتشافهم للجريمة، وضعت محاشر من الورق أسفل العنقود بطريقة يبدو بها أنه مكتنز فى الطبق، وكنت أعلم أن الأمر سيُكتشف، إن آجلاً أو عاجلاً، ولكن الأمر كان فيه شرٌ لى، فلقد كان الكَرْمُ لذيذ المذاق، حلو وشذى كالعسل.

فى نهاية الغداء، حملتُ الكَرْم، وطلب المدعوون أن أمكث معهم، وقالوا لزُهرة عنى: "إنها محميتك الصغيرة".

كانت زُهرة تتصنع، فنزعت عنى ملابسى الرثة والبستنى الثوب الأزرق ذا الياقة البيضاء الذى كان بحوزتى فى دار لالا أسماء. كان الثوب قصيراً إلى حد ما، وضيقاً جداً، لكن زُهرة تركت الزلاقة منفرجة، وربطت ستارة فوقها، ثم إننى أصبحت نحيفة للغاية.

كان المدعوون يقولون: "إنها رائعة!، إنها جذابة!، كل تهانينا لكم"؛ وكان الفرنسيون لطفاء، وكان السيد دلاهاى ذا عينين زرقاوتين شديدتين الصفاء بارزتين على وجهه البرونزى؛ وكانت زوجته شقراء، بشترها حمراء قليلاً، غضة كثيراً. وددت كثيراً فى أن أطلب منهم أن يحملوننى معهم، ويتبنونى، ولكننى لم أكن أعرف كيف أقول ذلك لهم؛ أردت أن يطالعوا يأسى فى نظراتى وأن يفهموا كل شئ عنى.

بالطبع، فى لحظة تناول الحلوى اكتشفت زُهرة أسفل العنقود المأكول وحشو الورق، فلفظت اسمى، وكانت أطراف ساق العنقود منزوعة الحبات ومنتفشة كالشعر، إلى حد أن عنقود العنب بدا عليه الخزى.

قالت السيدة دلاهى: "لاتنهريها، إنها طفلة، ألم نفعل نحن شيئا من هذا القبيل حينما كنا أطفال؟". كان زوجها يضحك علناً وكان هابيل يطلق بسمة غامضة؛ ولم تتظاهر زُهرة بالضحك، ألقت علىَّ نظرة سيئة وبعد رحيل الفرنسيين، مضت تبحث عن الحزام الثقيل ذا البزيم النحاسى وقالت لى: "عن كل حبة سوط"، ضربتنى حتى سال دمى.

وبفضل عائلة الدلاهاى تمكنت من الخروج من الشقة، فلقد هتفت السيدة دلاهى إلى زُهرة ذات يوم قائلة لها: "قولى لى ياعزيزتى، أتعيرننى لوقت قصير محميتك الصغيرة، إنك تعلمين لكم أنا فى حاجة إلى من يعاوننى فى الدار، وفى ذات الوقت سيمكنها ادخار قليلاً من نقود جيبها".

فى البداية، رفضت زُهرة متزرعة بأشياء مختلفة، لكن السيدة دلاهاى عابتها على ذلك قائلة: " أتمنى ألا تسجنيها "، فانتاب زُهرة شئ من الخوف، وظنت أن هناك تهديد وراء مزاح السيدة معها، ولذا تركتنى أذهب إليها، مرة ثم مرتين فى الأسبوع.

كانت أسرة الدلاهاى تستأجر داراً أنيقاً فى حى المحيط، وكانت شركة هابيل هى التى قامت بأعمال الدهان والإصلاح للدار. وكان هذا الدار مكانا هادئا، به حديقة مزروعة بأشجار البرتقال وأشجار الليمون وسياج دفلى[2]. كان هناك الكثير من العصافير، وأحسست أننى على ما يرام فى دار

---

(2) الدفلى: نبات يغرس بجوار السياج لتزيين أسوار المنازل. (المترجم)

الدلاهاى؛ كان يبدو لى أننى عثرت على الهدوء الذى عرفته فى طفولتى فى الملاح عندما كانت الدنيا تنحصر فى فناء لالا أسماء الأبيض.

كانت جوليت دلاهاى حنونة معى؛ حينما كنت آتى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، كانت تقدم لى الشاى والحلوى الصغيرة من علبة معدنية حمراء، وعلى الأرجح أنها كانت تشك فى أنى لا آكل بشكل كاف لدى زُهرة، حينما كانت تلحظ أننى أسرع نحو الخشكنان[3]. أظن أنها تعرف ماضىَّ، ولكنها لم تكن تتحدث عنه، فعندما كنت أمرر خرقة الأتربة فى غرفتها، كانت تترك كل حليها بشكل واضح على الصوان، وكذلك قطع من النقود الصغيرة، بينها قطع معدنية نقدية؛ وأعتقد أنها وضعتنى تحت الاختبار، فمنعتُ نفسى من الاقتراب من هذه القطع؛ كانت تحصى النقود بعد مرورى، ومن مرح صوتها كنت أعلم أنها سعيدة لأنها وجدت قطع النقود كلها؛ ولكنها بينما كانت تفعل ذلك، كان بوسعى أن أفتش جيوب حُلة زوجها المعلقة فى الشراع فى بهو البيت.

كان السيد دلاهاى مسناً إلى حد ما، أنفه عريض، ونظارته كانت تضخم عينيه الزرقاوتين، وكان حسن الملبس، يرتدى دوماً حُلة رمادية اللون، غامقة، مزينة بكرة حمراء على العروة، وحذاء من الجلد الأسود مطلى طلاءً حسناً. كان فى السابق رجلاً هاماً، سفيراً أو وزيراً لا أعرف؛ أما

(3) هو البسكويت الخشن. (المترجم)

أنا، فلقد كنت معجبة به، كان ينادينى: "صغـيرتى" أو "آنسـتى"، ولم يكـن هناك مطلقاً من يخاطبنى بهذه الطريقة؛ كان يخاطبنى بلغة المفـرد، لكنـه لم يكن يعطينى أبداً الحلوى ولا النقود. أما هوايته فكانت تتمثـل فـى التصويـر الفتوغرافى، فكانت هناك صور فى كل مكان فـى داره، فـى الممـرات والصالـة والغرف، حتى فى المرحاض.

ذات يوم، دعانى إلى مشغل التصوير؛ كان عبـارة عـن مبنـى صغـير ليس به نوافذ، يقع في طرف الحديقة، كان يُستخدم كمقـر سيارات قبـل أن يهيئه لعمله، وفى هذا المكان، كان يحمض ويستخرج الصور الفتوغرافية.

ما أدهشنى فى مشغل الصور الفتوغرافية، هو صـور قرينتـه المعلقـة على الحائط؛ صور قديمة إلى حد ما، كانت تبـدو فـى ريعـان الشباب، تبـدو مجردة من ملابسها، بها ورود مغروسة فى شعرها الأشقر، أو فى لباس بحر على شاطئ، لقد التقطت لها هذه الصورة فى بلـد آخـر، فـى جزيـرة بعيـدة، حيث تُرى أشجار النخيل والرمال البيضاء والبحر فى لـون فـيروزى. ذكـر لى الأسماء، يبدو لى أنها مانورافا أو اسم من هذا القبيل، وكان هنـاك أيضـا علـى الحائط شيئا عجيباً من الجلد الأسود، مزين بمسامير من نحاس عددته بداية سلاحاً، مقلاعا أو خطاما؛ وحينما شاهدت الصور دهشت للتحقق من أن ذلـك هو ساتر عورة السيدة دلاهاى الذى علقه زوجها هنا على سبيل الغنيمة.

اعتدت أن أرى النساء عاريات، فـى صالـة البخـار مع تغـادير، أو عندما كانت عائشة أو فاطمة تتجولان فى الحجـرة، وبـالرغم مـن ذلـك، فقـد

كنت أستحى أن أرى هذه الصور باللون الأبيض والأسود لمدام دلاهاى، كانت ممددة وعارية تماماً فوق شرفة في الشمس، وأسفل جوفها، كانت عانتها تكوم قطعة مثلثية سوداء تتعاكس مع لون شعرها. كان السيد دلاهاى يرقبنى من خلف نظارته بضحكة غامضة، اعتقدت أيضا أن ذلك كان بمثابة اختباراً لى، فأخفيت خجلى، إذ كنت أرغب كثيراً في نيل رضاهما.

عدت إلى مشغل الصور الفتوغرافية مرات عديدة، وكان السيد دلاهاى يشرح لى تقنية استخراج الصور، وحمامات التحميض، وكيف نأخذ الصورة بالملقاط ونعلقها بخيط حتى نتركها تجف. كنت أحب كثيراً أن أظهر الأوجه في الدلو، وببطئ تصبح شيئا فشيئاً سوداء. كان هناك أوجه نساء وأطفال ومشاهد من الشارع، وفتيات أيضا فى أوضاع غريبة بالثوب المفتوح الذى يتدلى على الكتف والشعر المتهدل.

كان السيد دلاهاى يقول لى أننى ذكية وأننى موهوبة فى التصوير؛ وتحدث بشأنى إلى السيدة دلاهاى بحماس وقال أنه ينبغى أن نلحقها بمعمل تصوير، وأنه بوسعى أن أتخذ من ذلك مهنة لى. أما أنا، فلقد كنت أنظر إلى هذه المرأة الراقية للغاية وأود لو أذهب عن رأسى قطعة الجلد الأسود التى تتدلى على حائط مشغل الصور، فقلت لنفسى إن ذلك لايمثل شئ، وأنهما على الأرجح قد نسياه، كما ينسى المرؤ ويعلق قبعته في مسمار مثبت على الحائط وهو يمضى.

ذات بعد ظهيرة، فى بداية فصل الصيف، كان الطقس حاراً للغاية فى خارج الدار، فذهبت كعادتى بعد نهاية مهامى كى أعمل قليلاً فى

استخراج الصور، وكان السيد دلاهـاى منـهمكاً وقـد علـق حُلتـه علـى عَلاَقـة ملابس، ولم يكـن يشـعل الضـوء الأحمر وقـال: "اليـوم لـدى الرغبــة فـى تصويرك"، كان ينظر إلىّ نظرة غريبة؛ وقال ذلك كما لو أننا اتفقنـا علـى هـذا الأمر مسبقاً، لكننى لم أكن ارغب فى أن يلتقط لى أحد صوراً فوتوغرافية، فلـم أحب مطلقاً هذا الأمر، أذكر أن لالا أسماء كانت تقول إنه من السوء أن يُلتقـط صوراً للمرء، لأن ذلك يهلك الوجه؛ وفى ذات الوقت، كنت سعيدة أن تحـزو الرغبة رجل كالسيد دلاهاى فى تصوير فتاة سوداء مثلى..

أشعل مصابيحه ذات الكلابة، ووضـع منضـدة منخفضـة أمـام مـلاءة كبيرة بيضاء مثبتة على الحائط بمسامير، ثم أعد كل هذه التجهيزات، وعلى الأرجح أنه فكر فى هذا الأمر منذ وقت طويل، فلقد كان وجهه جـاداً عمليـاً، وجبينه يلمع بالعرق من حرارة المصباح، ثم أجلسنى علـى المنضـدة المنخفضـة وجعل نصفى الأعلى مستقيماً جداً.

ثم شرع فى التقاط الصور لى، واضعا آلة التصويـر علـى قدمـه حيـث كان يسطع ضوء أحمر، وكنت أنصت إلى صوت صمام الآلة، وكان يبدو لى أننى أسمع صوت استنشاقه ونفسه الربوى، فكان ذلك الأمر غريباً. لم يكن ينتابنى مطلقاً خوف منه، وأحسست فى نفس الوقت أن قـلبى يدق بقوة كما لـو كنـت فى طريقى لفعل شئ محرم وخطير.

توقف، رأى أن شـعرى لم يكـن مصففـاً بطريقـة حسنـة، أو رأى أن شعرى لم يكن متهدلاً بشـكل كـاف؛ نـزع عنـى العصابـة التـى كـانت زُهـرة

تجبرنى على وضعها، ثم بلل شعرى بالماء البارد وجففه بآلة تصفيف شعر من ماركة بابيليس، فأحسست بالهواء الساخن على عنقى والماء البارد الذى كان يسرى على رقبتى، ويبلل ثوبى. فى هذه الأثناء، كان السيد دلاهاى يبدو غريباً بحق، كان يشبه هابيل عندما حاصرنى فى حوض الغسيل فى فناء لالا أسماء؛ تصبب عرقاً، وكانت نظرته لامعة متفحصة، وبياض عينيه كان أحمر اللون قليلاً. فكرت فى أن زوجته من الممكن أن تصل بين لحظة وأخرى، وأن ذلك سيغضبها. فى لحظة ما، ذهب نحو الباب، ونظر للخارج، ثم أغلق علىَّ الباب وأدار المفتاح فى القفل. كان ذلك الأمر بمثابة شئ غريب يشبه الأشياء الغريبة التى حدثت لى من ذى قبل، من السيدة جميلة إلى الآنسة روز ثم زُهرة. ومنذ هذه اللحظة، شعرت بأننى لست على مايرام، وكان قلبى يدق بسرعة شديدة، وأحسست بعرق من القلق الذى استشرى فى جنباتى وعلى طول ظهرى.

بداء السيد دلاهاى فى التقاط الصور، وقال لى شيئا ما حول ثوبى، إنه لايناسبنى، وإنه مبلل للغاية. كان يريد شيئا، يتفق مع وجهى، شيئا أكثر همجية وبربرية وأكثر حيوانية، ففكَ أزرار ثوبى وجوف الرقبة؛ وأحسست بيده على رقبتى وكتفى، وأحسست بنَفَسِهِ، فكنت أناى عنه وأميل بنصفى الأعلى. على الأرجح كان الغضب فى عينى، ذلك أنه رجع للخلف وأخذ فى ترديد العبارات مكرراً: "هكذا رائع، إنك رائعة". ومن وقت إلى آخر، كان يمر خلفى، ينزع زر من أزرة ملابسى ويدحرج الثوب قليلاً من على أكتافى، ولكنه كان يلمسنى بالكاد، وكنت أشعر بهواء استنشاقه فى عنقى.

وفى لحظة ما، لم أقو على التحمل، وملكنى الغثيان، فنهضت دون أن أصلح من شأنى، هرولت حتى الباب. وبما أن المفتاح لم يكن فى القفل، عدت. كان السيد دلاهاى متصلباً أمام آلة تصويره، بدا عليه التفكير، كان على وجهه انطباع غريب عنى، كما لو كان يأسف كثيراً؛ ولم أعرف ماذا أقول، وبصوت غضوب قلت: "إن لم تدعنى أخرج فسوف أصيح"، ففتح لى الباب، وأبتعد عنى كما لو كنت عقرباً، وقال لى: "ماذا بك؟ ماذا فعلت بك؟ لم أرد أن أخيفك، أردت أن التقط لك صوراً فحسب"، لم أنصت إليه، ورحلت مسرعة، وخرجت من الدار دون أن أقول "إلى اللقاء" للسيدة دلاهاى، وكان قلبى يدق بشدة، وشعرت بنيران فوق وجنتى وفوق رقبتى حيث مرر هذا الرجل أنامله.

انتهيت بالعودة إلى دار زُهرة، ولم يكن هناك أحد، انتظرت عودتها وأنا على السطح، ولم تضربنى مخالفة لعادتها، ولم تطرح على أى سؤال. وببساطة لم أعد أرى عائلة الدلاهاى، وأعتقد أنه اعتبارا من هذا اليوم قررت أن أرحل، أن أذهب إلى مكان بعيد على قدر استطاعتى، فى نهاية الدنيا وألا أعود مطلقا؛ وفى هذه الفترة أيضاً قررت زُهرة أن تخطبنى إلى شخص ما.

لم أدرك على التو أنها دبرت هذا المشروع، ولكننى لاحظت أننى منذ لم أعد أذهب إلى عائلة الدلاهاى، كانت زُهرة أكثر عطفاً علىَّ، لكنها ظلت تسجننى فى الشقة، ولكنها لم تعد تضربنى، بل كانت تعطينى كميات أكثر من الطعام، وعلى غير المعتاد كنت أقتسم الطعام مع الشتزو، وكان لدى

الحق في حبة فاكهة من حين إلى آخر، حبة موز، أو تفاحة، أو تمر محمص؛ حتى أنها ذات يوم أعطتني العلبة الصغيرة الحجم التي تحتوي على القرط الذهبي وهلال القمر الذي يحمل اسم عشيرتي والذي تركه لي لصوص الأطفال عندما باعوني إلى لالا أسماء، وقالت لي: "هذا لكِ، كنت أحتفظ به حتى لاتخاطري بفقده، وهذه إرادة أمي وكيف لا أتبعها ؟ ". كنت أسأل نفسي دوماً لماذا تفعل ذلك، إن التفسير الوحيد الذي عثرت عليه، هو أن لالا أسماء ظهرت لها في منامها وقالت لها أن تفعل ذلك، فلقد كانت زُهرة تتصور أن روحها شريرة.

كانت كثيراً ما تأتي السيدة دلاهاي كي تطلبني، ولكن زُهرة لم تكن تُرد أن أراها، إضافة إلى ذلك، كنت قانعة بـزُهرة لحد كبير، وتعلمت فجأة أن أمقت هؤلاء الناس الطيبين المهذبين، بسبب قصة ساتر العورة وصورهم الشاذة.

ثم كان هناك هذا الرجل الذي جاء الآن إلى الدار، كان شاباً، موظفاً في بنك، أو شئ من هذا القبيل، متكلفاً للغاية، وعلى الأرجح أن زُهرة قالت له أنني أتحدث العربية بصعوبة، فكان يخاطبني بفرنسية مهجورة رسمية تولد لدي الرغبة في الضحك. كانت زُهرة تقدم له شاياً في الصالة، وتحضر له طفاءة غليون، حتى لايسقط رماد السجائر على السجاد. كانت له طريقة في مسك سيجارته بشكل مستقيم وكأنه يمسك بقلم رصاص. الخلاصة، كانت هيئته خرقاء وساذجة.

عندما كنا نعلم أنه سيأتى، كـانت زُهـرة تجعلنـى أرتـدى قميصـى الأزرق ذا الرقبة المثقوبة، ذلك الرداء الذى كان يمقته السـيد دلاهـاى والـذى أراد أن ينزعه عنى يوم التصوير. كنت أحمل إليه الصينية وبها أكواب مطلية بماء الذهب وعلبة سكر، وكان السيد جماح - الذى كنت ألقبه دومـاً بـأبداً[4] - ينظر إلىّ بعينين عطوفتين للغايـة، وكـان وجهـه الرقيـق الأبيـض ينـم عـن عاطفة؛ وحينما كنت أجلس أمامـه علـى الوسـادات، كنـت أبغـت بـالنظرات الخاطفة التى يصوبها إلى سـاقى مـن آن إلى آخـر. ظـل هـذا الأمـر لمدة أشـهر عديـدة، وانتـهيت بـأن أمـزح بلقاءاتـه، فكنـت أسـلك سـلوك المتدللـة فـألفظ الكلمات المضمرة المعنى حتى يفكر فى ما وراء ذلك. وفى هـذه الفـترة، أصبـح هابيل غيوراً، دنيئاً، فكان ذلك الأمر بالنسبة لىّ لُعبة أتسـلى بـها، ووسـيلة للانتقام من كل ما فعله بىّ فى السابق؛ كنت ألهو بإيهامه بأننى سـعيدة مـن هذه الخطبة المُعلنة؛ وعندما كان يأتى من خارج المنزل، كنت أسأل زُهرة عـن السيد جماح كثيراً، ثروتـه، ودار أسرته، وموقع أخوتـه، إلخ..

ذات يوم وهو يمر أمامى، القىّ على نظرة سامة وقـال: "علـى كُـلٍ، ليس لديك الوقت الكثير الذى ستمكثينه هنا"، ثم قال لى أن حفلـة الخطوبـة ستكون فى شهر أكتوبر، وأضاف: "طالما أنـك تحبـين الفنـادق فـإن الخطوبـة ستعقد فى فندق على شاطئ البحر حيث حجزنا الصالة".

---

(4) فى النص الفرنسى هناك مايشبه السـجع الخفيـف أو التقـابل الصوتـى بـين أسـم العلـم Jamah والظرف النافى jamais الذى لقبت البطلة جماح به. (المترجم)

لم أقم بـإعداد حقـائبى حتـى لا يفطنـوا أمـرى؛ وقمـت بوضـع كـل حصيلتى فى ملابسى، كل ماسرقت، وكل مـا كسـبت وأنـا أعمـل لـدى عائلـة الدلاهاى، وكل ما أخفيت تحت قطعة فى أسفل جدار الحائط فى الغرفة التـى كنت أرقد فيها. وضعـت النقـود فـى جيوبـى وحكـت الأوراق النقديـة داخـل قميصى فى واجهة معدتى، وغرست القرط الهلالى أسفل عصابة رأسى.

ولكى أخرج، انتظرت أن تنتهى زُهرة مـن مسـاعيها، وألقيـت مـن خلال نافذة مغسل الثياب بعض الملابس فى الفناء، وقلت لزهرة أننى سأذهب لإحضار هذه الملابس. كان قلبى يدق، خشيت أن تفطن أمرى من خـلال نغمـة صوتى. بعد الظهيرة، انتاب زُهرة نعاس، ترددت فـى النـوم، لكنـها كـانت متعبة، فأعطتنى المفتاح وقالت: "لا تنتهزى ذلك الأمر فى التسكع خارج الدار".

- "كلا ياخالتى سأعود على التو".

تثاءبت وقالت: "شدى الباب، وأعيدى غسيل كل شئ".

خرجت عن طريق السطح، ولكى أنتقم لنفسى، أخذت معى الكلب، وأغلقت الباب بالمفتاح بسنتين. أما المفتاح الآخر فكان مع هابيل، وكنت أعلـم أنه لن يعود قبل أن يأتى المساء.

وفـى أسـفل السـلم، دفعـت الكلـب الشـتزو بركلـة قدمـى، وألقيـت بالمفتاح فى صندوق القمامة، ثم أغرته فى الفضلات حتى أكون علـى يقـين مـن أن أحداً لن يعثر عليه، ثم مضيت فـى الشـوارع الخاليـة، فـى الشـمس، دون عجلة من أمرى.

دوار تبريكة

كان همى الأول، كما تتصــورون، أن أذهـب إلى الفنـدق حتـى أرى السيدة جميلة والأميرات، فبعد مُضى قليل من الأيام سيكون قد مرّ عــامٌ علـى اللحظة التى جاءت فيها شرطة زُهرة وهابيل للقبض عليَّ. عندما وصلت أمام الفندق، لم أعرف شيئاً؛ كان الأمرُ يبدو وكأن زلزالاً أرضيـاً قـد داهـم المكـان؛ الحائط السياجى المرتفع، والباب ذو الشقتين تلاشا؛ وفى ساحة الفناء، حيث كان الباعة الجائلون يقفون، طُليت الأرضُ بالقار وتم تهيئتها مقراً للسـيارات والشاحنات التى تأتى إلى السوق؛ أما الغرف السفلى، فقد تسـورت أو أغُلقـت بالستائر المعدنية؛ وأما الطابق العلوى، فقد ظـل هـو فحسـب مشـابه لحالتـه القديمـة تقريبـاً، اللـهم إلا أنـه كـان يبـدو لايصلـح للإقامـة فلقـد كـان بـــال

ومهجور. أوراق الحائط فيه كانت تسقط من الواجهة، والمصارع كانت مهشمة، وكانت هناك أيضا البُوم تعشش في سقف الرواق، لم أتصور المنظر، ودهشت، انتابني إحساس بأن غدر ما قد أتى على المكان.

في مدخل مقر السيارات، كان هناك حارس، رجل جاف، وجهه محروق كوجه الجندي، يرتدي بذلة طويلة، شعره مصفف على هيئة العِمّة التراخية؛ وخلفه في الفناء، كان هناك صبية صغار منهمكين في غسيل زجاج السيارات بدُلى الماء الممتزج بالصابون ومماسح بالية. في هذه الأثناء، كان الحارس ينظر إليّ نظرة ريبة، ولذا لم أجسر على طرح أسئلة عليه، فربما كان سيوشي بي للشرطة. على أية حال، ماذا يمكنه أن يعرف؟. ما كان يحزنني هو الظن بأنني السبب في إخلاء الفندق، فلقد نفذ المالك تهديداته، واخرج السيدة جميلة والأميرات بدعوى سوء الخلق وباع المنزل للبنوك.

قال لي هذه الأخبار العجوز رومانة، التاجر الذي كنت دوما أذهب إليه كي أشتري منه التبغ الأمريكي لتغادير؛ أما السيدة جميلة فقد قُبض عليها وأودعت السجن، ورحلت كل الأميرات؛ لكنه أبلغني أن تغادير مضت تعيش على الجانب الآخر من النهر في دوار يطلق عليه تبريكة، وأبلغني أن حورية تعيش معها. اشتريت منه بضعة سجائر، ولاسيما تذكاراً للماضي، لكنه لم يكن بوسعي أن أتأخر في هذا المكان، لأن زُهرة ستأتي لتبحث عني في البداية في ناحية الفندق دون شك.

كان النـــهار يوشـك مـن نهايتـه، فاستقليت الـزورق، كـان مرسـى المراكب شاسعاً، وقد شـرعت مراكـب الصيـد فـي العـودة إلى الشـاطئ محملـة بالأسماك الطازجة، تحلق فوقها طيــور النـورس وقـد أحـاطت بـهـا. تلاشـت حدود المدينة في الضباب، وعلى الساحل الآخر، كـان الشـاطئُ مظلمـاً، وكـان هناك ضوء يبرق في السماء. وللمرة الأولى، أحسسـت أننـي طليقـةُ، ولم يعـد لدى أي ارتباطات، فأُدلف نحو المستقبل. لم يعد ينتابني الخوف من الشـارع الأبيض وصيحة العصفور، ولن يكون هناك من يلقيني في حقيبة ويضربنـي، وتظل طفولتي في الجانب الآخر من هذا النـهر.

وجدتُ مشقةً في العثور على تغادير، فلقد كان دوار تبريكـة نائيـاً عن النهر؛ كان يقـع فـي حـي مرتفـع يغلقـه شـارع تحـت الإنشـاء تمـر فيـه الشاحنات الكبيرة. كان حياً بائساً جداً، لم يكن بـه سـوى الأكـواخ الخشـبية المغطاة بالصفائح المعدنية المطلية، أو من الفيروسمان[1] المتكئـة علـى الأحجـار كي تقاومَ الريحَ. كـانت الشـوارعُ متماثلـة، ممـرات أرضيـة مسـتقيمة للغايـة مزوبعة بالأتربةِ، وكان الشارع الكبـير بمثابـة غيمـة كبـيرة تميـل إلى اللـون الأحمر فوق المدينـة.

دلفتُ في الأزقـة علـى غيـرِ هـدى، وبسـبب شـعرى الكث وثوبـى الـرث، جعلـت الكـلاب تعـوى صوبـى؛ وأمـام صنبـور للمـاء، كـانت هنـاك

---

(1) مادة بناء صلبة يدخل في تكوينها الأسمنت. (المترجم)

مجموعة من النسوة والأطفال يعبئون أقداح ماء بلاستيكية؛ وكان هناك أيضاً صبية يمرون على الدراجات في كل مكان، معهم أقداح الماء أو أخشاب النار التي كانت تتوازن على دراجاتهم. أشارت إحداهم إلى منزل تغادير، ثم اصطحبتني إلى نهاية الطريق بينما كان قدحها يمتلئ بمفرده تحت صنبور الماء؛ وفي نهاية شارع، أشارت إلى منزل صغير مطلي باللون الأخضر، وكان هو الدوار.

كان قلبي مشدوداً، لأنني لم أكن أعرف كيف تستقبلني كل من تغاديرو حورية بعد ما حدث، وظننت أنهن قد ترفضان لقائي وترمياني بالأحجار.

لم أكن في حاجة لطرق الباب، فلقد أخبرهن عن قدومي على الأرجح شخص ما، إذ خرجت حورية في اللحظة التي وصلت فيها، وعانقتني ضامة جسدي إليها بقوة شديدة وكررت: "ليلى، ليلى"، وكانت هناك دموع في عينيها، لقد تبدلت؛ أصبحت أكثر شحوبا، شهباء قليلاً، بها ازرقاق دائري حول العين من جراء المشقة؛ وكان ثوبها ملوث من الوحل، أقدامها عارية في صندلها الذي لم تربط قدته.

سمعت صوت تغاديرالأبح في قاع الفناء، وكان هناك نوع من الأفريز البلاستيكي الأخضر المتموج كذلك الذي نراه في الحدائق، والذي كان يحيط بموقد النار في الدار. جاءت تغادير، كانت ترتدي هي أيضا اللون الأخضر، لم تتبدل كثيراً؛ كانت التجاعيد الصغيرة التي كنت أعشقها فيها على طرف

عينيها وعلى جانبى فمها ملحوظة بشكل واضح، وكانت تعرج قليلاً، إذ كـان أحد ساقيها محاط بضمادة.

تعانقنا، وسعدت بالعثور عليها واستنشاق رائحتها، وبـدا لى أننـى عثرت على قريبات لى، على أسرتى بعد سنوات وسنوات من الغيـاب. أعَدَتْ تغاديركوب شاى لنفسها، به نبات الجونبود الشهير الـذى تعشـقه والنعنـاع الذى تزرعه فى أوانى بالقرب من المطبـخ. كـانت لـدى أسئلة كثـيرة أريـد أن أطرحها عليها، ولكننى لم أكن أعرف كيف استهلها. حدثتنـى حوريـة عـن السيدة جميلة: فبعد أن أمضت مدة قصيرة بالسجن، ذهبت إلى مدينة أخرى، ربما إلى ميلالة أو إلى فرنسا؛ ورحلت الأميرات، كل أميرة فى جانب: زبيدة وفاطمـة تزوجتـا، وتزوجـت سـليمة مـن أسـتاذ الجغرافيـا، وعائشـة تعمـل بالتجارة، وظل الفندق مغلقاً لفترة طويلة ثم هُدم الجـدار. عندمـا كنـت أقـول لها أن كل ذلك حدث بسبب خطئى وبسبب أنه قد قُبض علىَّ، كـانت تغـادير التى تبدو عجوزة تُهداً من روعى وتقول: "كان لابد أن يحدث ذلك، فلقد مـر وقت طويل دون أن تُسَددَ السيدةُ جميلـة الإيجـار، بخـلاف وشـايات التجـار الذين لم تنس لهم، ثم أن الفندق كان داراً لكل الناس، وكان لابد من أن ينتهى هـذه النهايـة يومـا مـا"، فواسـتنى، لكنـه فـى نفـس الوقـت، لم يبعـد عـن مخيلتـى أن شـر زُهـرة كـان وراء كـل ذلـك، فلقـد كـانت هـذه المـرأة بمثابـة شيطان لى.

قلت لتغادير وهى تبين عن ساقها: "ما بك؟"

هزت كتفها كما لو كان تساؤلى قد ضايقها، وقالت: "لا شئ لدغنى عنكبوت، أعتقد ذلك".

وقالت لى حورية الحقيقة بعد ذلك: تغادير معتلة بداء السكر، وفحص الطبيب ساقها فى المستشفى وعهد بها إلى حورية وقال لها: "إنها مُعتلةٌ للغاية، ساقها يتآكل وسيلزم أن تُبتر"، ولكن حورية لم تُردْ أن تصارحها بشئ، وقالت لى: "مازالت تعتقد أنها لدغة عنكبوت، وتضع كمادات النباتات، وتقول أنها تتحسن، لكنها لم تعد تتألم لأن ساقها فى طريقها للهلاك "، وكان ذلك الأمر مخيفاً، ولكن من جانب آخر، كان من الأفضل ألا تعرف الحقيقة طالما أنه ليس هناك أملُ فى شفائها.

لم تكن حياة دوار تبريكة يسيرة، ولاسيما بالنسبة لى، أنا التى لم أعرف قط حياة البؤس، فحتى فى دار زُهرة، كنت أتناول الطعام يومياً، وكان هناك الماء والكهرباء. أما هنا، فى تبريكة، فكان ينتابنا الجوعُ دوماً، وحتى الأشياء البسيطة كانت تنقصنا، كإمكانية الاغتسال كل يوم، أو وجود الخشب الصغير لغلى الماء للشاى. كان هناك أطفال يبيعون الخشب المقطوع، يجلبونه من مكان بعيد، من على الجانب الآخر من الطريق، من التلال. وكانت هناك فتيات صغيرات، ملابسُهن رثةٌ، يحملن على ظهورهن حزم الحطب الموثوقة بأحبال أضخم من أجسادهن. ومع ذلك فقد كان دارنا بعيداً عن أن يكون أكثر الديار فقراً.

كانت تغادير فخورة بهذا الدار، ذلك أن ابنها عيسى هو الذى شيده؛ وكان عيسى بَناءً يعمل فى ألمانيا. وفى الحجرة التى تُستخدم كصالة للدار، علقت تغريد صورته، صورة كبيرة مبقعة إلى حد ما، كان يشبهها، كانت عيناه مصدوعتين إلى حد ما كالصينيين.

ولقد اختارت تغادير أن تطلى البيت باللون الأخضر، لونها المفضل: طلت باللون الأخضر أوانى الزهور حيث كانت تغرس النعناع والقويسة، وباللون الأخضر القاعد والمنضدة المنخفضة ووجدت أيضا إبريق شاى إنجليزى فيروزى به أذن درهمية وغطاه مستدير كحب البسلة.

كانت الدار كبيرة بالنسبة للمقيمين فيها، كان هناك بلاط أرضى وسقيفة ماثلة للمطبخ، وحجرة تغادير، والغرفة التى كنت أبيت فيها مع حورية على وسادات موضوعة على الأرض، وكان هناك أيضا حجرة لعيسى بفراشها ودولابها، مهيئة لليوم الذى يعود فيه دون إخطار. ولقد شيدت تغادير صالة استحمام من ألواح الخشب بجوار المطبخ، حيث يستطيع المرؤ أن يسكب لنفسه الماء عن طريق دلو زنكى ويأخذه فى وعاء بلاستيكى حتى يغسل اللاءات والملابس الثقيلة، وكنت أذهب وحورية لنعبأ الدلو من صنبور الماء بالشارع، وكنا دورياً نتراشق بالماء، مُطْلقات صرخات كبيرة، ولم يكن هناك بالدوار حمام عام، كان الناس فى فقر مدقع، وكان الماء شحيحاً،

ولكننا بصالة الاستحمام التى شيدتها تغادير والدلو الزنكى، كنا نعيش فى رخاء.

لم تعد تغادير تعمل منذ أن اشتكت من ساقها، فشغلت حورية عملها، إذ كانت تحيك وتكوى الملابس فى مصبغة تعمل لصالح الفنادق، وكانت تمضى كل يوم قبل السادسة، ثم تستقل زورق المعبر حتى تذهب للمدينة. كنت أقول لحورية "جدى لى عملاً"، فكانت تهز رأسها وتقول: "ليس هذا بأمر طيب بالنسبة لكِ، ينبغى عليك أن تقومى بشى آخر، يجب أن تذهبى إلى المدرسة"، وكانت تشترى لى كتب لغة فرنسية وأسبانية وإنجليزية وكراسات، وكانت تغادير تشاطرها الرأى وتقول لى: "يجب ألا تكونين مثلنا، عليك أن تكونى ذات شأن مثل طالبة وطبيبة، وليس خادمة مثلنا". لا أعرف لماذا كانتا تقلن ذلك، كانت هذه هى المرة الأولى التى لم يُراد بى زوجة لأحد الرجال، وكانت هذه هى المرة الأولى، التى لايُرى فىّ خادمة، خادمة من أجل لاشئ، خادمة للطهى لزوجها فحسب. ويمكن أن أقول أن ذلك كان يجعلنى أزرف دمعاً، فلقد كانتا بحق أميراتى الطيبتين، فعانقتهما.

ولكن لم يكن بوسعى أن أبقْ بالمنزل وأتعلم، حيث كان هذا الأمر فوق طاقتى. وكنت آخذ كتبى يمسكها مشبك كالأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة، ثم أبحث عن مكان هادئ حتى أطالع فيه بعضها وأنا مطمئنة.

ذات يوم من أيامي الأولى، وعندما كان الوقت شهر تشرين الرائع جداً، مضيت حتى دار المقابر الكبرى أمام البحر، وهناك كان يمكن للمرء أن يرمق الأفق بوضوح، فأنفقت كل فترة الصباح وأنـا أقـرأ وسط المقـابر. كانت عصافـير البحـر تتمـوج أمـامي سـاكنة فـي تيـار الريـح، أو كـانت السناجب الحمراء تخرج من الأكمة وترمقني في وقاحـة، لكننـي لم أكـن مطمئنة كثيراً منذ ما حدث مع العجوز أبن الكلب، فلقد كنت أخشى أنـه - كي ينتقم مني - سيبلغ عني الشرطة، ولهذا بحثـت عـن مكـان آخـر، واهتديت إلى مكتبة الحي بجـوار متحـف الآثـار القديمـة. كـانت مكتبـة صغيرة، بها فحسب بعض مناضد كبـيرة للقـراءة ومقـاعد قديمـة ثقيلـة، وكانت تفتحُ أبوابها كل الأيام عدا يومي الأحد والاثنـين وعـدا اللحظـات التي يأتي فيها طلاب المدارس الثانوية لإجـراء واجباتـهم المدرسـية بعـد الخروج من المدرسة، ولذا لم يكن هناك أحد تقريبـاً. وفـي هـذه المكتبـة، وفي خلال هذه الأشهر، تمكنت من قراءة كل الكتب التـي كنـت أريـد أن أطالعها، دون أي نظام، عندمـا كـان يـأخذني الخيـال. قـرأت كتـب فـي الجغرافيا وفي علم الحيوان، وطالعت بصفة خاصة بعض الروايات، "نانا" و "جريمينال"[2] لـزولا و"مـدام بوفـاري"[3] و"ثـلاث حكايـات" لفلوبـير

---

(2) نانا وجريمنال من روايات الروائي الفرنسي إميل زولا الواقعية. (المترجم)

(3) رواية فلوبير الشهية التي شقت اتجاها في الواقعية أطلق عليه البوفاريـة Bovarisme. (المترجم)

و"البؤســاء" لفيكتــور هوجــو و"حيــاة"[4] لموباســان و"الغريــب" و"الطاعون"[5] لابير كامى و"آخر المنصفـين" لشوارزبارت و"واجـب العنـف" ليامبو اولوجم و"طفل الرمل" لطاهر بن جولون و"بيير الصغير صديقى" لكينو و"دائرة مورمبير" لاكسبيريت و"جزيـرة الخرساوات" لبخلـرى و"العشـواء" لفنسنو و"مورافاجين" لسندرس، وقرأت أيضا بعض المترجمات، "خانة العـم توم"، و"ميلاد جلنـا"، و"قـال لى صـابعى"، و"القديسـون الأبريـاء" و"الحب

(4) رواية شهيرة لموباسان تنتهج البوفارية؛ ولقد عُرِف موباسان بنزعته البوفارية فى الكتابة لتتلمذه على يد جوستاف فلوبير. تدور أحداث الرواية فى إحدى الأقاليم الفرنسية، بـين مدينة روان النورماندية وأريافها حيث تخرج البطلة جـان مـن الدير وتشـرع فـى ارتيـاد حياة جديدة، نائية عن حياة التعبد القاسية، وما إن يطيب لها المقام فى الريف بصحبة أبويها حتى تتزوج من شاب ماجن تنجب منه طفلاً وما تلبث أن تقع يدها على خيانتـه لها مع خادمتها وحملها منه سفاحاً. ولم يمض وقت طويل حتى قُتل وعشقية أخرى لـه بالقرية، وتمضى الكوارث تحدق بجان، التى فقدت بعد ذلك أمـها، والتـى كـان موتـها نقطة اكتشاف لخيانة زوجية عبر الماضى من خلال الخطابات التى عـثرت عليـها جـان فى صندوق أمها التى خانت أبيها. ثم مات أبوها ومضى أبنها يجرى دراسته بعيداً عنها فى مدينة أخرى، فعاشت وخادمتها حيـاة بائسـة، تشـقيها سلسـة الذكريـات المحزنـة الكئيبة. حاولت عبثا استعادة أبنها. وفى خضم الفقـر، أجـبرت علـى بيـع قصـر أبيـها والذهاب للعيش وخادمتها فى مكان آخر. حاولت ثانية العثور على أبنـها فـى بـاريس، وقطعت المسافات ولكنها تُوجت بالفشل عائدة إلى ريفها. وتنتهى الرواية بمعرفتها لمجئ مولود أبنها ورغبة الأخير فى إرساله إلى جدته. (المترجم)

(5) روايتان من روايات البير كامى Albert Camus الشهيرة. (المترجم)

الأول" لتورجينوف الذى كنت أحبه كثيراً. في خلال هذه الفترة، كـان الجـو لايزال ساخناً فى الخارج بينما كانت المكتبة مكاناً هادئاً ورطبـاً، وكـان لـدى إحساس بأن أحداً لن يأتيها ليبحث عني. وفى المكتبة عرفت رُشدى الذى كان يعمل مدرساً للغة الفرنسية فى مدرسـة ثانويـة؛ وعندمـا كـان الإنـهاك مـن القراءة يبلغ نصيباً منى، كنت أخرج أمام المكتبة وأجلس على حائط قصير فى الحديقة الصغيرة المُتربة، وكان يأتى بجوارى السيد رُشدى ويشعل سيجارته متحدثاً إلىَّ. لم يكن يرمى إلى نيل شـئ منـى، لكننـى أظـن أنـه كـان يندهـش حينما يرانى أطالع الكثير من الكتب، فنصحنى آنذاك وقال لى عما يجـب أن أقرئه فى البداية، كما حدثنـى عـن الكُتـاب العظـام، عـن فولتـير وديـدرو[6] والمحدثين، وأيضا عن كوليت[7] وشعر رامبو[8] الذى لم أكن أفهمه، مع أننى

---

(6) روائى وفليسوف فرنسى ولد عام 1713-، ومن أشهر أعماله روايتـه "جـاك القـدرى ومعلمـه" Jacques le fataliste et son maître عـام 1796، ولـه بعـض الكتابـات الفلسـفية مثـل "خطاب حول المكفوفين" Lettre sur les aveugles فى عام 1749، ويرجع إليـه الفضـل فى تأسيس "الموسوعة" L'Encyclopédie لعام 1715 رغم كثافة المشكلات التى تعرض لهـا آنذاك، وفى ميدان المسرح، حاول تأسيس الدراما البورجوازية وذلك من خلال مسرحيته "الابن الشرعى" Le Fils naturel عام 1757 ومسرحية "أب الأسـرة" Le Père de famille عـام 1758. وفى مجال النقد الأدبى والفنى، له محاولات أهمها "الصالونات". (المترجم)

(7) سيدونى جابريل كوليت Sidonie Gabrielle colette هى روائية فرنسية ولدت عـام 1873 ومن أهم أعمالها الروائية كلودين Claudine والقمح فـى العشـب Leblé en herbe، ورحلت عام 1954. (المترجم)

كنت أراه شعراً رائعاً. كان السيد رُشدى فقيراً، ولكنه كان أنيقاً فى حلته الكستنائية المكوية دوماً، وقميصه الأبيض، ورباط عنقه الأزرق الداكن. كان يدخن بشراهة، وكان شاربه الرمادى يميل إلى اللون الأصفر من أثر التبغ، ومع ذلك فلقد كنت أحب طريقته فى مسك السيجارة بين الإبهام والسبابة كما لو أنه يمسك بمسطرة.

عندما كان ضوء النهار ينحدر، كنت أعود للدوار؛ ولما كان زورق المعبر يدلف فى الماء الشاحب لمصب النهر، كانت رأسى جلها مضببة بالكلمات التى انتهيت من قراءتها، ومن الشخصيات والمغامرات التى عشتها. وكنت أدلف بعد ذلك فى شوارع مساكن الإيواء كما لو كنت آتية من عالم آخر. كانت تغادير تعد الحساء والتمر البُكرى الصلب والجاف المشابه للسكر المصفى، وتطهى رغيف خبز مستدير فى الفرن المشتعل المغلق بوضع إطار من الصفيح. ويبدو أننى لم أتذوق أفضل من ذلك فى حياتى، ويبدو أننى لم أعش حياة غير مهمومة كتلك، فلقد نسيت مع هذه الحياة زُهرة وما حدث من ذى قبل.

كانت حورية لا تعود إلى الدار إلا فى الليل، مُضنية، وجنتاها محروقتان ببخار النار، وعيناها حمراوان من الحياكة طيلة اليوم؛ وكانت تئن قليلاً ثم تحتسى عدداً من أكواب الشاى وترقد، لكنها لا تنام؛ وكنا نتحدث سوياً فى الظلام مثلما كنا نفعل فى السابق بالفندق، بمعنى أننى كنت أتحدث بمفردى ذلك أننى لم أكن أسمع ما تقوله لى ولا يمكننى أن أقرأ ما على شفتاها.

وكانت تخرج خارج الدار من وقت إلى آخر مساء يوم السبت، فلقد كان هناك من يأتي يسعى إليها، لكنها لم تكن ترغب في أن يعرف أصدقائُها أين تُقيم، فكانت تنتظر أسفل شجرة سنط هزيلة في مدخل الدوار، وكانت السيارة تحملها في غيم من التراب، يعقبها أطفال يلقون عليها الأحجارَ.

ذات مساء، بينما كانت تغادير منهمكة في خارج الدار، همست حورية في أذني السليمة بما تنوي أن تفعله: عندما ستكون لديها النقود الكافية سوف تستقلُ المركبَ إلى أسبانيا ومنها إلى فرنسا، ثم أبانت لي عن بعض مدخراتها، حزم من الدولارات ملفوفة ومربوطة في ماسك تخفيه في حقيبة أدوات زينة تحت الوسادة، وقالت لي أنه لاينقصها سوى بعض النقود لدفع أجر السفر والمهرب. كانت تتحدث إليّ بصوت منخفض وبحمية كما لو كانت قد شربت خمراً، وأنقبض قلبي حينما رأيت كل هذه النقود، لأن ذلك كان يعني أن حورية سترحل عما قريب.

قالت لي: "ماذا بك؟"، فلقد ضايقتها لأنني قطبت وجهي كما لو كنت على وشك البكاء، فقلت لها: "إذا ما رحلتي، فما مصيري أنا ؟ لا أريد أن أبقى هنا مع تغادير". ضمتني إليها، وحاولت أن تواسيني بكلمات رقيقة، ولكنني أيقنت أنها قررت كل شئ، وقلبها لم يعد معنا.

كانت تبدو واثقة من نفسها من خلال طالعها المتفعم بالدم. ولقد كانت حورية رقيقة جداً، يداها الصغيرتان، ووجهها ذو الجبهة المكتنزة يحتفظ بتعبير الطفولة المرح. قررت أن تفلت من كل شئ، الشوارع المتربة،

وهذا الشارع الذى يزأر من الشاحنات، وأن تفلت من السقف الفيروسمانى الذى يجعله المطر يحدث ضوضاء كضوضاء جرف ثلجى، ومن حيث تحرقك الشمس كحرق الحديد الأحمر، وأن تفلت من الحوائط التى تفوح براشحة البول العفنة، ودلو الماء الأسود السام، والأطفال العرايا الذين يلعبون فى أكوام القمامة، والفتيات الصغيرات بوجوههن الملوثة من السناج، منحنيات أسفل حمولهن كالنساء الطاعنات فى السن، وأن تفلت من كل ما يذكرها بطفولتها: الفقر فى الريف حيث حتى ماء الشرب له مذاق الفقر؛ وأرادت أن تفر بصفة خاصة من الحفلات مع سادة المجتمع الراقى بسيارتهم اللموزية السوداء ذات الزجاج المطلى، حيث ينبغى عليها أن تتظاهر بالضحك وأن تكون مرحة وسعيدة، لأن الحزن لايعجب أحداً، وأن تفر إلى الأبد من رسل هذا الرجل المخبول الذى يعتقد أن له كل الحقوق على جسدها ولو حق تعذيبها.

ذات مساء، عادت حورية إلى الدار ثملة، وكانت نظرتها شاردة، مخبولة تقريباً، فأخافتنى؛ وفى ضوء مصباح الكيروسين، رأيتها تنقب فى وسادتها، وتحصى حزم دولاراتها التى جلبتها من البضاعة المهربة، ثم لاحظتْ أننى غير نائمة وأننى أتفحصها، فاقتربت منى وقالت لى: "لن تحولى بينى وبين الرحيل، لا أنت، ولا أى مخلوق"، فنظرت إليها دون أن أقول لها شيئاً، وقالت لى: "سوف أقتلك، سوف أقتلك إذا حاولتى، سوف أقتل نفسى إذا ما اضطررت أن أمكث هنا"؛ قالت لى ذلك ثم وضعت فوق حلقها

المدية الصغيرة التى كانت تحملها بشكل دائم معها حتى تذود عن نفسها ضد القوادات.

بعد ذلك لم تعد تتحدث عن ذلك الأمر، وبدورى أيضا لم أقل لها أى شئ، فقد كنت على يقين من أنـها سـترحل وأنـها التقت بمـهرب؛ وحينئـذ أتتنى أنا أيضاً فكرة الرحيل والعبور والذهاب إلى الجانب الآخر مـن البحـر، إلى أسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو حتى بلجيكا، أو أمريكا أيضاً.

لكننى لم أكن مهيأة للرحيل، إذا ما رحلـت، يجـب أن يكـون ذلـك للأبد حتى لا أعود. كنت أفكر فى هذا الأمر فى ليلى ونـهارى، وكنـت أسـير فى ممرات دوار تبريكة وروحى فى مكان آخـر، كنـت أقفـز مـن فـوق الحفـر ومستنقعات الوحـل، وألتـف حـول مجموعـات الأطفـال أو أعبـأ الوعـاء البلاستيكى من الصنبور فى نهاية الشارع الرئيسى، ولكننى كنـت أفعـل كـل ذلك وكأنى فى حلم.

بدأت أطالع الأطالس الجغرافية كى أعـرف الطرقـات وأسمـاء المـدن والموانـئ؛ وقمـت بتسـجيل اسمـى فـى دروس اللغـة الإنجليزيـة بمعـهد UDESIS وفـى دروس اللغـة الألمانيـة بمعـهد جوتـه وبـالطبع كـان الأمـر يستوجب أن أسـدد مصاريف الدراسـة وأن أحصـل علـى التصاريح وأن أقـدم بياناتى الشخصية؛ لكننى ارتديت ثوبـى الأزرق الشـهير ذا الرقبـة البيضـاء والذى أطلته بشريط قماش ونقلت أزرتـه، وشددت شـعرى الكـث الضـارب إلى الشقرة أسفل عصابة حسنة بيضـاء، وقصصـت علـى المسؤولين قصتـى: أننـى

يتيمة، دون مال، لا أسمع، وأنني على استعداد لأى شئ كى أتعلم، ولكى أسافر ولكى أكون شخصاً ما. كان بوسعى أن أسدد المصروفات عن طريق القيام بأعمال النظافة أو عن طريق كتابة الظروفات أو ترتيب الكتب بالمكتبة أو بالقيام بعمل أى شئ. بهرتُ سكرتيرة قطاع الثقافة الأمريكى، كانت سيدة سوداء البشرة يبدو عليها الثراء، وحينما دخلت عليها في مكتبها صاحت: "يالهى ! إننى مولعة بشعرك!"، ثم مررت يديها على خصلات شعرى الهائجة التى كانت تدفع العصابة الشبكية فوق رأسى، ثم سجلتنى دون أن تطلب منى أى شئ آخر.

وعند الألمان، كان هناك السيد جورج شون الذى كان يستلطفنى، وكان شابا طويل القامة، نحيف، شعره أشقر ومجعد، وكانت نظرته صهباء جادة وحزينة، وكنت أسليه، فقَبَلَنى على سبيل التجربة فى فصله. كنت أردد أمامه قوائم من الكلمات الألمانية وأقوم بتصريف الكلمات؛ وكنت أقرأ ذلك بصوت واضح جداً كما لو كنت أسمع ما أقول، وكأنه الشعرُ؛ وكان السيد شون يقول لى أن لدى ذاكرة لا تُقارن، ربما كان ذلك بسبب أذنى المصابة.

فى المساء، كنت أحمل دروسى إلى منزل تغادير، وأستذكرها على ضوء شمعة، وأنجز واجباتى الدراسية. وذات يوم، أمام كل الفصل، أبان شون عن كراستى، وكانت هناك بقعة كبيرة تتمدد فى أسفل ورقة منها، فقال لى: "ما هذا ؟ هل تناولتى الطعام وأنت تستذكرين؟ "

فضحك التلاميذ، وقلت له: "كلا ياسيدى، إنها بقعة من الشمع".

ولم يبدو على السيد شون أنه قد أدرك ما قلت له، واستطردت: "كل ما في الأمر، أنه ليس في منزلى كهرباء، ولذا فأذاكر دروسى على ضوء الشمعة، هل تريد أن أعيد كتابة كل شئ في كراستى ؟"

نظر إلى نظرة حيرة وقال: "كلا، كلا، حسن".

ولكنه فيما بعد، أصبح غريب الأطوار معى إلى حد ما، فكان ينظر إلىّ وكأنه يفكر دوما فى أمر هذه البقعة التى كانت على كراستى، ولم أفهم ما كان يضايقه. كان يطلب منى أن أنتظره بعد الدرس ثم يطرح على تساؤلات حول المكان الذى أعيش فيه، وعن الناس الذين يعيشون معى، ولم أكن أدرك ماذا كان يريد بذلك. خفت أن يخبر عنى الشرطة، فلقد كان له نظرة غريبة غامضة، دوما حزينة، وعندما كان يحدثنى، كان يشبك يديه ويقلب أصابعه، فكان يذكرنى بالسيد دلاهاى، ولكنه كان أكثر منه رقة وحناناً، مع أنه كان له نفس الأسلوب فى النظر قليلا من طرف عينه رافعاً جفونه؛ كان يقول لى أنه سيحصل لى على منحة دراسية كى أذهب إلى ألمانيا فى مدينة دوسلدورف[9]، مسقط رأسه؛ وكان يريد أن أذهب إلى هذه المدينة ثم أبحث عنه هناك، وكان يقول أنه سيكون بإمكانى فعل الكثير هناك بلا شك، وأننى سأكون شهيرة وثرية، وستنشر صورتى الفوتوغرافية فى الصحف.

---

(9) Düsseldrof مدينة ألمانية تقع على نهر الراين وتشتهر بالصناعة ولاسيما صناعة السيارات وبها جامعة ومتحف للفنون الجميلة. (المترجم)

كان السيد رُشدى يرقب كل ذلك، ولم أعد أذهب كثيراً إلى المكتبة بسبب دروس اللغة الألمانية والإنجليزية، ولكننى عندما كنت أذهب، كنت أراه هناك، كنت أجده يطالع كتباً فى الفلسفة فى نهاية قاعة المكتبة؛ وبعد مرور لحظة، كان يخرج إلى خارج المكتبة ليدخن سيجارته، فكنت ألحق به فى الحديقة الصغيرة. عندما حدثته عن أمر شون، هز كتفيه وقال: "إنه عاشق لكِ، هذا كل ما فى الأمر"، ونظر إلى نظرة قاسية قليلاً وقال: "وأنتِ يا آنستى ؟ هل تحبينه؟ "، فأضحكنى سؤاله لى، ثم ختم حديثه قائلاً: "أنتِ التى تقرر، إنك شابة وأمامك الحياة "، ثم أشار علىَّ بقراءة "ضمير زنو" للكاتب إيتالو سففو[10]، وقال لى على سبيل اللغز: "من لم يطالع هذا الكتاب، فكأنه لم يطالع شيئاً ! ". وبعد ذلك الموقف، كان يحدثنى بلا مبالاة، كان يلقى علىَّ شعر الشهادى وأدونيس. وحتى أضايقه، قلت له ذات يوم: "أعتقد أننى سوف أتزوج من السيد شون"، وحينئذ بدا عليه الغم فجأة، ثم قال لى: "لا أشير عليك به"، وكان ذلك بمثابة فخر بنفسى، فلقد كنت أعلم أن السيد رُشدى عاشقٌ لى، وكنت أمزح برؤية وجهه يتبدل عندما كنت أحدثه عن أمر زواجى.

---

(10) كاتب إيطالى عاش بين 1861 و1928، من أهم أعماله الأدبية: ضمير زنو 1923 و"العجوز الطيب" و"الطفلة الجميلة" وهى أعمال نُشرت بعد موته فى عام 1929. (المترجم)

استمرت حياتي الدراسية هذه ستة أشهر كاملة حتى فصل الربيع؛ ثم قررت ألا أذهب إلى المعهد الألماني، فلقد كانت هناك صعوبات أواجهها فى الدار: كانت تغادير تتشاجر طول الوقت مع حورية، واتهمتها أنها تبتزهـا وأنها لا تعطيها النقـود وأنـها تسطو عليـها أيضـاً، فكـانت حوريـة تغضـب حينئذ وتلقيها بشتائم غليظة، ثم تخرج ضاربة البـاب. كـانت تختفـى ليـالى بأكملها، وكنت أظل غير نائمة أترقبها كما لو كنت سأسمع وقع أقدامـها فـى الزقاق.

ثم كان هناك ما حدث بعد ظهيرة يوم مـا فـى قاعـة الفصـل: ظللـت كالعادة بعد الدرس عندما كانت السـماء تمطـر، أسترجع دروس التصريفـات النحوية، وكان السيد شون واقفاً خلفى، فوضع يده فوق كتفى، وكنت أرتـدى ثوباً أسوداً أعارته إياى حورية وكان يكشف عن ظـهرى قليـلاً، وكـانت هـذه هى المرة الأولى التى أرتدى فيها هذا الثوب لأننا كنا فى فصـل الربيـع، وكـان لدى الكثير من الثياب المسـردة والمعـاطف. وفجـأة تقـدم السـيد شـون نحـوى وقَبَلنى فى عنقى بخفة شديدة، وتم ذلك بسرعة شـديدة إلى حـد أنـه لم يكـن لدى الوقت كى ألحظ ذلك جيداً. على الأرجح، كان هـذا الأمـر بمثابـة ذبابـة توقفت فوقىَّ ثم رحلت، ولكننى عندما نظرت إلى السيد شون خلفى، كان كله خجل، فكان يزفر كما لو كان قد فرغ من الجرى؛ أما أنا، فقد تصرفـت وكـأن شيئا لم يحدث، رأيت أن ذلك من الهَزلُ، وأن السيد شون غريب الأطوار على الأرجح: رجل حزين جداً وبارد جداً يتصرف فجأة كالصبية الصغار. تقهقر،

وجهه كله شاحب، كان حزيناً للغاية، وكان ينظر إلىّ من بعيد من بين شجر السوسن الرمادى كما لو كنت شيطاناً. لا أعلم ما هَمْهَمَ به، فلم أسمع كلماته ولكننى أدركت أنه ينبغى علىّ أن أنطلق بسرعة، فلقد كان ما حدث أمر لا يُصدق: هذا الرجل العظيم، ذو الشأن، أستاذ اللغة الألمانية فى جامعة ديسدورف ترك نفسه يُقَبلُ جيد فتاة صغيرة شديدة السواد من دوار تبريكة. حينئذ، جمعت كراسى وكتبى وفررت تحت رزاز المطر الذى كان يقرع ظهرى من خلال ثوبى المكشوف والذى كان له عظيم الأثر على السيد شون.

وبعد ذلك ببضعة أيام، التقيت مصادفة عندما كنت أتنزه فى بورت دى فان [11] بالين بوسوترو – والتى كانت تدرس الألمانية معى – فقالت لى أن السيد شون يأسف كثيراً على انقطاعى عن دروس اللغة الألمانية، وأنه يتمنى أن أعود إليها، لأننى على قائمة الطلاب الذين سيعاونهم فى الحصول على منحة دراسية فى ألمانيا. لم أعرف لماذا قصت علىّ كل ذلك، ربما خرجت ذات مرة مع السيد شون فمنحها ثقته، ولكنها كانت تبدو لى طيبة وساذجة، ولا أعتقد أنه قد قص عليها ما فعله معى.

قلت لها: "نعم، بالتأكيد، أننى سوف أعود فى أقرب وقت ممكن، ولكننى فى هذا الوقت مشغولة للغاية". أردت أن أتخلص منها، ونظرت فى كل الاتجاهات من حولى وقلت لنفسى لو ظللت فى وضعى هذا، فسوف يأتى

---

(11) اسم مكان. (المترجم)

عسكر زُهرة كى يقبضوا علىَّ. قرأت الين شئً ما فـى نظرتـى لهـا، شيئًا مـن الحذر، من الخوف، فمالت إلىَّ وقـالت: "ليلـى، الديـك مشـكلات؟ ". كـانت ابنـة لأحـد كبـار التجـار الفرنسـيين والـذى كـان يحتكـر تجـارة الدراجـات الصينية فى أفريقيا؛ هل بوسعها أن تدرك شيئًا عن حيـاتى ؟ كنـت أخشـى، بصفة خاصة، أن يرانى أحد بجانب هذه الفتاة الشقراء جـداً والأنيقـة جـداً، فقلت لها: "كلا، كلا، كل شئ يمضى على ما يـرام"، ثـم انصرفـت وتواريـت وسط الزحام، ودرت دورة كبيرة للوصول إلى العَبَّارَة المائية.

بعد هذه الحادثة، توقفت عن عبور النهر، أحسست أننى فى مـأمن على هذا الجانب الآخر من النهر، وتوقفت عن كل الدروس، وقاطعت مكتبـة المتحف والسيد رُشدى. وعلى مدار عدة أسابيع، لم أجسـر علـى الخـروج مـن دوار تبريكـة، فبقيـت فـى مـنزل تغـادير، فـى الفنـاء، تحـت الأفريـز البلاستيكى، أنصت للجج المطر علـى الفيروسمـان وأنظـر للأمطـار وهـى تمـلأ الدفاف.

كانت هذه الفترة طويلة ومُحزنـة؛ كـانت حوريـة تنتظـر مولـوداً، ولهذا السبب، كانت فى شجار دائم مع تغادير، ولم أكن أسـأل عـن السـبب، ولكننى أعتقد أنه بسبب صديق حورية الـذى كـان يـأتى إليـها فـى سيارته. وفجأة اشتدت حالة تغادير سوءاً، فلقد أصبح الألم الموجـود فـى ثنيـة قدمـها يحدق بها ليلاً ونهاراً فى هذه الفترة، وأصبحت غددها جافة سوداء فـى لـون الزيتون؛ وكانت ساقها رماية اللون ومنتفخـة، ولم تعـد تشعر بـها كمـا لـو

كانت هذه الساق مصنوعة من خشب. كانت تمضي يومها جالسة في مقعدها تنظر إلى ساقها، تلعن العنكبوت الذى لدغها، وتتهم أيضا الفتيات الأخريات، سليمة وفاطمة وعائشة بسبب تشاجرهن المستمر، وتقول أنهن جنيات وساحرات، وكانت تكرر نفس الكلمة التى كانت ترددها زُهرة فى الماضى: سَحَرةُ؛ وكانت تَسُبُ وتَدَعى أنهن وضعن شوكة فى حذائها، فاعتقدت آنذاك أنها سوف تتهمنى أنا أيضاً إن أجلاً أو عاجلاً.

وللمرة الأولى أصبحت لدى رغبة فى الرحيل بعيداً، الرحيل للبحث عن أمي وعشيرتي فى بلد الهلال خلف الجبال؛ ولكننى لم أكن مهيأة لهذا الأمر؛ ربما لم يعد لذلك المكان وجود وأننى فكرت فيه حين النظر إلى قرطى.

ذات ليلة، التصقت بجسد حورية وأسندت أذنى إلى بطنها كما لو كنت سأنصت إلى جنينها وهو يتحرك، وسألتها: "متى سنرحل؟"، فلم تجب، ولكننى عن طريق تحسسى لها بيدى أدركت أنها تبكى أو كانت تضحك فى صمت؛ ثم همست لى فى أذنى: "عما قريب، عندما يكون هناك مقعدين فى الزورق المتجه إلى ملاجا ".

الآن نحن متآمرتين؛ فبعد ظهيرة يوم ما، وبينما كانت تغادير تستريح في غرفتها، وبدلاً من أن نقوم بالمهام المنزلية، كنا نحيك مؤامرات، فكانت حورية تذكر لى المدن التى سنذهب إليها والناس الذين سنراهم، أما أنا فلم أكن أعرف سوى أسماء الكتاب أو المطربين، فذكرت لها أسماء جوزيه كابينى وكلود سيمون وأيضا سرج جنسبور بسبب أغنيته إليزا، فقالت لى:

"إذا شئت فسوف نراهم أيضا"، كانت تظن أنهم إناس مثلها ومثلى، بشر يمكننا أن نراهم.

خرجت تغادير من غرفتها تعرج، فسبتنا، فلقد أدركت أننا سنرحل، وصاحت: "اذهبن إلى حيث تردن، إلى فرنسا، إلى أمريكا، إلى الشياطين إن أردتن ولكن لاتعودن إلى هنا".

وعن طريق مدخراتى، تمكنت من شراء مذياعٍ من سوق البضائع المهربة الواقع بقرب النهر؛ كان مذياعاً صغير الحجم، أسود اللون، كان فى الماضى بحوزة دَهان على الأرجح، ذلك أنه كان ملطخاً بالدهان الأبيض. وفى المساء، كنت أستمع منه إلى جيمى هاندركس بإذاعة تانجييه؛ وكان هناك فى نهاية بعد كل ظهيرة برنامج لديجاما، وكنت أعشق صوتها الشاب، الرطب، الساخر قليلاً. كان يبدو لى أنها صديقتى وأنها تشاركنى حياتى. كنت أقول: "كنت أود أن أكون مثلها". كنت أدون دوماً كل أسماء المطربين الذين تقدمهم فى بطاقة، وأحاول أن أكتب كل كلمات الأغنيات الإنجليزية "فوكس لايدى". كان عجيباً فصل الربيع هذا، ربيعى الأفريقى الأخير: ففيه كان المطر يتساقط على الإفريز البلاستيكى فى الفناء ويفيض عن الأروقة الأسطوانية الصغيرة؛ وفيه كان صوت دجاما يقرع أذنى وموسيقى المذياع ونسنا سيمون وبول مكارتنى وسيمون وكارفونكل وكات ستفنز الذى كان يغنى "الزوارق الطوال"، فكان كل ذلك بمثابة انتظار طويل؛ وفيه كانت حورية تنتظر أيضاً وهى تتمدد على الوسادات ويدها فوق بطنها، وكانت تمشى مترنحة كالبطة مع

أنها كانت بالكاد في شهرها الأول من الحمل، وفيه كان دوار تبريكة حولنا – والذى كان يبدو شاسعا بلا نهاية – ينتظر شيئاً ما، شيئاً لن يحدث مطلقا؛ وفيه كان الأطفال رثو الثياب يتشردون في المستنقع، وفيه كانت أصوات النساء الصائحات، وفيه كان النداء إلى الصلاة في المساء ينطلق أمام النهر فيختلط بأصوات طيور النورس لحظة عودتها من الصيد، وفيه كان خلفنا – في الليل المترب – الطريق الذى تتقدم فيه الشاحنات التى تشبه حشرات مؤذية.

وذات مساء، كانت تغادير في أسوأ حالاتها الصحية، فأرسلتني حورية كى أهتف إلى ابنها، فلقد كنت أتحدث الألمانية. وعندما عدت إلى الدار، كانت تغادير قد رحلت إلى المستشفى حيث ستُبتر ساقها، وتم كل شئ على عجل. وفي اليوم التالي، بعد الظهيرة، هيئنا أنفسنا للسفر. كان من المفترض أن تنقلنا شاحنة إلى ميلالة وفي ذات الليل يبحر بنا المهرب في زورق مالاجا.

أحصينا النقود في توتر، واحتفظت حورية بما ينبغى أن يُسدد للمهرب وأعطتنى المبلغ المتبقى، حزمة من ألفى دولار مربوطة بمشبك كبير؛ وعندما هممت أضع الحزمة في جيبى، قالت لى حورية: " لاتضعيها في هذا المكان، ستُسلب منك كل النقود"، وأخذت أحد رافعى نهدى وضيقتها محيكة حمالاتها، حاشية جيبوها بالحزم النقدية المحاطة بالمناديل، ثم ألبستني رافعة النهدين، وقالت: "الآن يبدو عليك أنك امرأة حقيقية، وسيتهافت عليك كل الرجال "، فانتابنى إحساس أننى أحمل حقيبتين ثقيلتين على

صدرى، وكانت والحمالات تنشر كتفى، فقلت لحورية: "لن أستطع أبـدأ، إن ذلـك يؤلمنـى، سـوف آخـذ نقـودى ". غضبـت حوريـة وقـالت: "توقفـى عـن التباكى، يجب أن تعتادى ذلك، أنت التى ستحمل النقـود، ليس هنـاك مـن وسيلة أخرى ".

قلت: "ربما يجب أن نمضى نعود تغاديرفى المستشـفى؟ "، وعندمـا كنت أفكر فى أمرها كان ينتابنى النـدم، وكنـت علـى اسـتعداد لإلغـاء فكـرة رحيلى، ولكن حورية كانت لها نظرة قاسية ومحددة، وكان تعبيرهـا مطـابق لتعبيرها يوم أن وضعت المدية فوق حلقها، وقالت: " كلا سنبلغها أن تتبعنـا متى اتخذنا موقعاً".

ترقبنـا الشاحنة الصغيرة فـى نهايـة الطريـق حتـى الليـل، وكـان التراب يغطينا فكان يبدو علينا أننا متسولتان.

وفى لحظة ما، مرت أمامنا الشاحنة، وقللت سـرعتها، ثـم توقفـت بعيدا عنا إلى حد ما، وانطفـأت كـل الأضـواء، فكنـت خائفـة، ولكـن حوريـة جذبتنى بخبل؛ وهبط السائق، ثم قال لحوريــة وهـو يدفعنـى إليـها: " هـل بلَغَتْ سنَ الرشـدِ؟ " فـردت عليـه حوريـة قائلـة: "أرأيـت صدرها ؟ أم أنـك كفيف البصر؟ "؛ أعتقد أنه كان مندهشا خاصـة مـن لـون بشـرتى، ربمـا ظـن أننى من السودان أو السنغال. وضعتنى حورية إلى مؤخرة الشاحنة الصغـيرة، ثم صعـدت بدورهـا. ولم تكـن لدينـا حقـائب، فلقـد كـان ذلـك اتفـاق بيننـا، وكان معنا فقط حقيبة صغيرة بيد كل منا، بها قليل من الملابس ومذياعى الشهير.

وبما أن السائق لم يدر محرك السيارة على الفور، قالت له: "ماذا تنتظر أيها الغبى ؟" فتذمر السائق شطراً بالأسبانية وشطراً بالعربية. قالت لى حورية: "هم كذلك فى ميلالا".

وصلنا إلى الميناء حوالى الرابعة صباحاً؛ وفى لحظة عبور الجمارك، قرع السائق مربع الزجاج الخلفى وأشار لنا أن نرقد. كانت الشاحنة مليئة بكراتين الملابس التى كُتب عليها بلانكو، فكان ذلك الأمر مضحكا لأننى وحورية كنا سمراوات البشرة[12].

مرت الشاحنة الصغيرة ببطئ من أمام مكتب الجمارك، ومن خلال الزجاج الخلفى رأيت المصابيح التى تعطى ضوءاً أصفر اللون تتباعد عنا، ثم أصبح كل شئ أسودا بعد ذلك، فنهضت حتى أرى شيئاً: فرأيت أنها مدينة حديثة وقبيحة، بها مبانى شاهقة معمدة، وكانت السماء تمطر.

على الرصيف، كان هناك الكثير من الناس ينتظرون الزورق، رجال بصفة خاصة وأيضا بعض النساء اللواتى كن يتدثرن بمعاطفهن، وكان الهواء بارداً، ولم يكن هناك ثمة أطفال.

أما أنا وحورية فقد كنا جالستين متكئتين إلى حوائط المرفأ نحتمى من رزاز المطر. نامت حورية واضعة رأسها فوق كتفى؛ منذ زمن بعيد وهى

(12) الأمر مضحك لأنه لم يكن هناك تطابقا بين ما كُتب على الكراتين "بلانكو" أى اللون الأبيض ولون بشرة البطلتين. (المترجم)

تنتظر هذه اللحظة، ثم بغتة لم تتمكن من مقاومة الإضناء. حـاولت أن أشعل مذياعي ولكـن فـي هـذه السـاعة لم تـعـد تتحـدث ديجاما، ولم تكـن هنــاك بالإذاعات سوى فرقعات كانت تجعلني أقفز وكأنها حشرات أتت من آخر العالم.

قبل الفجر بقليل، أرتكن قارب إلى الشاطئ، وكان عبـارة عـن زورق ضخم لونه أبيض له معبر مغطى بساتر؛ وشـرع النـاس فـى الصعـود، وكـانوا يهرولون لكي يحصلون على مقعد في حجرة القبطان، وكنـا آخـر الصـاعدين، فجلسنا فوق جسر القارب أمام حائط الدرابزين.

كان المهرب يمر بيننا دون أن يقول شئ، ويبسـط يديـه، وكـان كـل واحد يضع له ما تبقى عليه من نقود؛ وكان يلتهم الأوراق النقدية على عجل، ويردد من آن إلى آخر بصوته الأخن: مضبوط، مضبوط. لم يكن هناك من يريـد أن يتحدث، فكان الجميع ينصت لاهتزاز محرك الزورق بانتظار اللحظة التى يرتفع فيها للرحيل.

وفي خلال بضعـة دقـائق، كـان كـل شـئ معـداً، فـالقى القبطـان القلـس وتدحرج الزورق ببطئ نحو المـر المـائي راقصاً فـوق تموج المـاء، وهكـذا رحلنـا. مضينا ولم نكن نعلم إلى أين نمضى، ولم نكن نعلم متى سنعود؛ كل ما كنـا نعرفـه ولى، فكرت في منزل الملاح الصغير جداً، الواقـع وسط كومـة المنـازل علـى شـاطئ النهر النأى جداً حيث ينبثق النهار فوقـه، وفكـرت فـى دوار تبريكـة، والنسـاء اللواتى كانت تتطوبرن أمام صنبور الماء البارد. ربما سنموت هنـاك علـى الجـانب الآخر من البحر، وهنالك لن يعرف أحد عن ذلك شيئاً.



باريس

كيف أمضينا بقية سفرنا حتى باريس، ذلك ما لا أعرف أن أقصه عليكم، فأنا التى لم تخرج تقريباً من مكانها، والتى أمضت كل طفولتها فى فناء لالا أسماء، والتى كان أبعد مكان ذهبت إليه بعد ذلك هو نهاية شارع كبير في حي المحيط، والتى استقلت قاربا حتى سالى[1] ودوار تبريكة، ها أنا أستقل زورقاً كبيراً وسريعاً، وأعبر أسبانيا فى عربة حتى فال دى ارن[2] – وهو اسم لن أنساه مطلقاً – ثم أسير على قدمى فى الجبل المغطى بالثلج مادةً يدى إلى حورية التى كانت تلهث.

(1) ضاحية فى الرباط اشتهرت بالتجارة منذ العصور الوسطى. (المترجم)

(2) Valle de Aran وادى أسبانى يقع فى جبال البيرينيه. (المترجم)

كنا نسير دون أن نعلم إلى أين نمضى، مترنحات على الطريق عبر الجبل بصحبة أناس آخرين لا نعرف حتى أسمائهم، فكل إنسان كان يتأمل في شأنه. كان المرشد صبياً صغيراً يرتدى الجينز وحذاءً رياضياً، وبشرته أكثر سواداً ممن يقتادهم. وبالرغم من التعليمات التى تلقيناها، كان بعض الناس يحملون أمتعة وحقائب أو حقيبة سفر بحمالة.

تجاوزنا الممر الجبلى مع هبوط الليل، وكان قاع السفحِ مفروشاً بالضباب اللبنى، الذى كان بمثابة ركامة دخان دون نار. همست إلى حورية: "انظرى ! ها هى فرنسا، إنه لمنظر بديع..! ". بدت حورية شاحبة اللون للغاية، فلقد أنتابها ألم فى بطنها، فجاء الصبى ونظر إليها وقال لى بالأسبانية: "هل تنتظر مولوداً لها؟ "، فقلت له: "لا أعرف، إنها متعبة"، فهز كتفيه. وتركت حورية الآخرين يسيرون بمفردهم، فرأيتهم كالقطيع الصغير يهبط إلى تعرج الطريق؛ كانوا لايتحدثون، ولايحدثون أية ضوضاء. كان الوادى الرحب والنهر الذى يكونه الضباب يجعل المنظر بديعاً، حتى أننى فكرت فى أننا لو متنا هناك، لن يكن لذلك أهمية لأننا سنكون هنا فى أعلى الجبل وسنرى هذا الوادى الشاسع الذى يشبه البوابة.

لا أدرى لماذا فكرت – للمرة الأولى – فى بلدتى كما لو كانت تقع هنا فى هذا الوادى الذى لم أمض بعيداً فيه والذى أتركه يتوارى رويداً رويداً خلفى. ظللت فى مؤخرة السائرين وأبطأت من سيرى، إذ سحرتنى عذوبة

منظر الضباب والليل الذى كان يقترب مجيئه، فتعجلتنى حورية وقالت: "هيا سنضل طريقنا".

في أسفل الجبل، كانت المجموعة تنتظر في طرف غابة صغيرة، كنا ننصت لصوت سيل أخفاه الليل عنا؛ وعندما وصلت إلى المجموعة، توجه إلىّ الأسبانى كما لو كان يرقب قدومى كى أقوم بالترجمة للآخرين، ثم قال: "سننام في هذا المكان، ينبغي عليكم ألا تحدثوا صوتاً وألا تشعلون النار ولا السجائر، متفقون؟ "، فكررتُ ما قاله بالعربية، ثم أضاف: "غدا تنقلكم شاحنة إلى مدينة تولوز[3]، حيث القطار"، ثم مضى دون أن ينتظر إجابة منا، فوجدنا أنفسنا فرادى في الغابة.

أتذكر هذا الليل، فبعد حرارة النهار التى لمسناها عندما ارتقينا الجبل، هبط برد قارس ومبلل تخلل كل أجسادنا حتى العظام؛ وحاولت أنا وحورية أن ننام بين جذور شجر التنوب المجتثة، ولكن البرد الصاعد من الأرض كان يقرقع أسنانى؛ ولم يكن لدينا أى شئ، حتى الغطاء. وفى لحظة، جلسنا الواحدة في واجهة الأُخرى حتى لا نشعر ببرد الأرض؛ وحتى لا ننام، كنا نتقاص حكايات، أى شئ مما كان يحدث في الفندق أو عن الخنازير البرية أو عن الوشايات، وكنا نخترع حكايات. لا أتمكن من تذكر ما كنا نقوله، أتذكر فحسب أننا كنا نتحادث الواحدة تلو الأخرى هامسات

(3) مدينة فرنسية فى الجنوب على مقربة من أسبانيا. (المترجم)

ضاحكات، وأحيانا كنا ننسى ونرفع من صوتنا، فكان الآخرون ينهضون قائلين: "سكوت ! سكوت ! ".

كان الآخرون لاينامون أيضا، ومن خلال الضوء الخافت للسماء المليئة بالنجوم، لاحظت أنهم قد نهضوا وأرتكنوا إلى الأشجار؛ ومن آن إلى آخر، كنا نسمع وقع أقدام فى جذوع أشجار الصنوبر وشخص ما يجلس القرفصاء ليبول.

تمكنا من أن ننام فى الشاحنة الصغيرة التى كانت تحملنا إلى مدينة تولوز، فمع مطلع النهار، كانت الشاحنة تقف على الطريق فى طرف الغابة، حيث جعلنا الأسبانى نصعد بسرعة فائقة، ثم مضى ناحية الجبل دون نظرة أو حتى إشارة وداع. فى الشاحنة الصغيرة نمت على كتف الشاب الجزائرى هابيل، كنت متعبة للغاية وكان الطريق يدور ويدور؛ ومن بين فتحة غطاء السيارة، شاهدت للحظة أشجار التنوب الشاهقة السوداء، وشوارع القرى، ومعبر؛ ثم كانت محطة قطار تولوز، البهو الكبير بسقفه العالى، الأرصفة حيث كان الناس ينتظرون القطار المسافر إلى باريس. أعطانا السائق بطاقات السفر والتعليمات التالية: لا تبقوا معاً، أذهبوا كل منكم فى جانب، لا تسعوا بعضكم على البعض الآخر. أخذتُ حورية من يدها واقتدتها حتى نهاية الرصيف حيث كان الزجاج ينتهى إلى هذا الحد ويسمح بمرور الشمس، وحينما رأيت السماء الزرقاء شعرت بالراحة. تناولنا ما تبقى لدينا من خبز تغادير مع التمر ونحن جالستين فوق مقعد. عبثاً بذلنا ما فى وسعنا حتى لانلفت انتباه الآخرين، وكان الناس ينظرون إلينا؛ ويمكن أن أقول أنه على

الأرجح كان لايبدو علينا أننا ككل الناس،فحورية فى ثوبها الطويل الأزرق ووشاحها الأبيض وأنا ببشرتى السوداء وشعرى المتهدل من النوم، كنا متشردتين بحق.

جاء طفلٌ وتسمر أمامنا حتى يتفحص جيداً وجوهنا، وكان يبدو عليه سوء الخلق، فنكست حورية رأسها، أما أنا فلم أغضب، وقلت له "ماذا تريد؟"، وبما أنه لم ينصرف، تظاهرت بأننى أتقدم نحوه فولّى. على الرصيف، كان هناك إناس يبدون غرباء مثلنا، من رجال ونساء بشرتهم سوداء، وشعرهم حالك السواد كالسبج، وكانت ثيابهم غير مهندمة، وكانوا يتحدثون لغة غريبة بها بعض الكلمات الأسبانية. همست إلىّ حورية: "هؤلاء هم البوهيميون، إنهم يسافرون دوماً، فليس لهم من ديار"؛ لم أراهم مطلقاً من ذى قبل، كانت هيئتهم بائسة، ويشوب نظراتهم شئ من الفخر. دقق أحدهم النظر فىّ، وكان شاباً طالعه حاد، ونظر إلىّ نظرة كما لو كان لا يستطيع عنها فكاكاً؛ وللمرة الأولى منذ وقت طويل، دق قلبى من الخوف، من الرعب أو شئٍ من هذا القبيل؛ فجذبتنى حورية من ذراعى وقالت لى: "لا ينبغى أن تنظرى إليه، سيضايقنا". اقترب البوهيمى منا وقال: "من أى البلاد أنتم ؟ هل ستسافرون إلى باريس"، كانت أسنانه البيضاء تتلألأ فى وجهه الأسود، وكان يقف متواركاً كداعر، فاقتادتنى حورية إلى الطرف الآخر من الرصيف، ثم استطردت: "إنك معتوهة، إنه مؤذ ". ثم وصل القطار واحتجزنا زحام الناس حول أبواب القطار، وعثرنا على مقعد فى عربة خالية

وأخذ القطار طريقه ببطئ تاركاً المحطة، ورأيت المنازل تتقاطر إلى الخلف، ففكرت في كل ما تركته، الشوارع الضوضائية، منازل تبريكة المتكدسة، أو فناء بيت لالا أسماء، أو أيضا الفندق بتجاره الذين كانوا يشغلون الحجرات في السابق، والأروقة المقنطرة بحزم بضاعتهم وحقائبهم المليئة بالفاكهة الجافة. فكرت في أنني ربما أعود يوما ما، ولن يبقى لى شيئاً من ذكرياتي ولا أى إنسان أعرفه. كان قلبى مشدوداً، وكانت لدى رغبة في البكاء وأنا أفكر في تغاديرفي غرفتها بالمستشفى وساقها المبتورة، ويبدو لى أننى حينما رحلت فقدت آخر شخص لى في عائلتي. نامت حورية أمامي على المقعد متوسدة حقيبتها، وكان ضوء الشمس يضئ للحظات وجهها وعينيها المغلقتين ذى الأهداب الطويلة جداً وفمها حيث تبرق قواطع أسنانها البيضاء.

ذهبت إلى المر كى أشعل سيجارة، فلقد شرعت في التدخين في الزورق ذلك أن السجائر الأمريكية كانت تُباع دون ضرائب في ميلالا، وكنت أحب أن أدخن في الخارج وأنا أنظر إلى الدخان يتراقص في الريح، وكنت في خجل من أن تراني حورية وتقول لى: "أتشعلين السجائر الآن؟".

كان القطار طويلاً، لم يكن يحمل الكثير من الركاب، وشرعت في التنقل من عربة إلى أخرى مارة بين العربات، وفجأة رأيت البوهيمى، وكان من المفترض أن يتتبعنى لأنه كان بمفرده في نهاية المر، تصرفت كما لو أننى لا أعرفه، وأردت أن أعود إلى العربة التى بها مقعدى، فأغلق المر أمامي؛ كان فارعاً، وبشرته داكنة، وكانت حواجبه الحالكة السواد تتراص

في وسط جبينه. أبتسم لي، وأعتقدُ أنه قال لي: "ما اسمك؟". كانت له لكنة فرنسية غريبة كلكنة رجل من جنوب أمريكا، وقال لي أيضا: "هل تخافين مني؟"، ولما كنت لا أحب المزهوين بأنفسهم، قلت له: "ولما أخاف منك، إذا سمحت لي؟". وفي ذات الوقت مررت هكذا من أسفل ذراعه خافضة نفسي إلى أسفل كالطفلة، فسار خلفي. ولم أرد أن يعرف أين تجلس حورية، فتوقفت في الممر بجوار المرحاض وأشعلت سيجارة أخرى. ظل البوهيمي بجواري، وكان ينظر من نافذة باب القطار. كاد اهتزاز القطار أن يلقينا على الأرض، وكانت الضوضاء التي تنبعث من الريح مُصمةً، وقال لي وهو شبه صائح: "اسمي بنيكو، وأنتِ؟"؛ دفعت الريح شعره، وكانت له خصلة شعر تخفي جبهته، وفي ومضة، أدركت أنه يضع سِنَة من الذهب في فكه وحَلَق ذهبي صغير في أذنه، ولا يبدو عليه أنه مؤذ. قلت له اسماً وهمياً، أعتقد أنه "ديزي" وأخذنا نتحادث معاً قليلاً. فقد كنا في نفس القطار، كنا في طريقنا إلى باريس، ولكي نقتل الوقت، كان من المناسب أيضا أن ننظر من النافذة أو نطالع مجلة. ولم يكن النعاس ينتابني، بل على النقيض، أحسست بنفسي غير متعجلة، مليئة بالحيوية. أما هو، فقد كان يتحدث عن الموسيقى لأنها كانت مهنته، كان يعزف ويغني؛ وفي لحظة ما قال لي: "انتظريني"، ثم دلف إلى مقدمة القطار وعاد بآلة جيتار، ثم وضع أحد قدميه على حافة الباب وشرع في العزف؛ كان يعزف موسيقى غريبة تشبه دحرجة ممتزجة بضوضاء القطار، ثم مدونات موسيقية تتفجر وتتحدث بسرعة. لم أستمع

البتة إلى مثل تلك الموسيقى من ذى قبل، حتى ولو على موجات مذياعى القديم. كان يعزف ويتحدث فى ذات الوقت، أو بالأحرى كان يتمتم بكلمات من لغته أو بهمهمات مثل: هوم، أهم، هم، شئ كهذا؛ ثم توقف وقال: "هل هذا يعجبك؟ هل تحبين موسيقاى؟ "؛ وكان هناك من الناس من قدم ليرى العزف، كما كان هناك أطفال يخرجون من الطرف الآخر للعربة ليشاهدوا المنظر، وجاء أيضا مفتش قطار يرتدى حلة زرقاء داكنة وقبعة، وتوقف لحظة ثم مضى. توقف البونيكو لحظة وقال على عجل: "أترين؟ عندما أعزف لايسألوننى عن بطاقة سفرى "، كما لو أنه أحضر لى جيتاره لهذا الغرض. أما أنا فقد انتابتنى رغبة فى الرقص، وتذكرت عندما كنت أرقص للأميرات بالفندق فى الأيام الماضية، وأقدامى عارية على البلاط البارد فى الغرف، بينما كانت الأميرات تغنين وتصفقن. ولقد كانت موسيقى البوهيمى هكذا، كانت تتخللنى وتعطينى قوى جديدة.

جاءت حورية، وكما يمكن لك أن تعتقد، لم تكن سعيدة وهى ترانى فى هذه الصحبة، فقالت لى بالعربية وهى تكشر عن أنيابها: "هيا لا ينبغى أن تبقى مع هذا الرجل". كانت قد خرجت من العربة تحمل حقائبنا ومذياعى خوفاً من أن يتم سرقتهم؛ وفى قميصها الصوفى الكستنائى وثوبها الطويل الأزرق والذى يجعلها تبدو كالحبلى بحق، كانت تبدو بائسة تثيرُ الشفقة فى نفسى، فلقد كانت حورية فى الواقع هى أسرتى الوحيدة وأخت لى. جذبتنى من يدى ونظر إلينا البوهيمى ونحن نمضى وراح يضحك. كنت

أبغضه لازدرائه لى ولحورية، فلقد كان فخوراً بنفسه جداً. ولم تكن حورية تخشى عليَّ من أن أضل طريقى، فلقد استيقظت فوجدت نفسها بمفردها فى العربة، وكان ذلك الأمر بالنسبة لها شيئاً مرعباً. ضممتها إلىَّ على المقعد حتى أهدأ من روعها، وقلت لها: " أتَعْلمين ؟ إنك فى فرنسا، والآن أنت لا تخاطرى بشئ، فما من أحد يستطيع أن يعثر عليك ". كنا فى موقف واحد: هي يبحث عنها زوجها، وأنا تبحث عنى كُنة سيدتى. وكانت كل خطوة لعربة القطار على شريط الطريق الحديدى تبعدنا عن جلادينا، وتبعدنا عن البحر الذى يفصلنا عنهم.

كنت أغط فى النوم حينما توقف القطار فى باريس، أما حورية فكانت مستيقظة آن ذاك، وقالت لى فى لطف: "استيقظى يا ليلى، ها نحن قد وصلنا". كان الوقت ليلاً، كنت أشاهد عبر الزجاج أضواءً تتراقص بينما كان القطار يهتز وهو يحدث صريراً على ملتقى الطرقات؛ وكانت السماء تمطر، فنظرت بإمعان إلى القطرات التى كانت تتساقط على الزجاج دون أن أبدى أى رد فعل؛ كنت على الأرجح متعبة إلى حد أن حورية خافت وغضبت قائلة: "ما بك ؟ استيقظى، يجب علينا أن نهبط من القطار ". لم أستطع تصديق أن كل شئ تم، وأن ذلك كان بمثابة نقطة النهاية فى سفرنا؛ وبالرغم من إنهاكى، وددت لو أعطى أى شئ حتى يمضى القطار أبعد من ذلك، وحتى أتمكن من أن أنام فى هدوء. هكذا كنا فى باريس، فأدلفنا تحت المطر متقلصات أسفل مطرية حورية المنثنية، ومعنا حقائبنا وسلة برتقال والمذياع

الشهير رياليستيك. وعلى طول الرصيف، حول محطة القطار، بحثاً عن مسكن نمضى فيه الليل، فى شارع جان بوتون حيث شقة الآنسة ماير التى لم يعد لها وجود الآن.

فى البداية، كانت باريس رائعة، فكنت أهرول فى الشوارع، ولا أتوقف؛ أما حورية فقد ظلت حبيسة الشقة، تطهى الطعام، وتنتظر قدومى؛ كانت تخشى كل شئ، ومثلما كان يحدث في الفندق فى السابق، كنت أقوم بالمشتريات وأذهب في كل مكان. كنت أخرج صباحاً فى السابعة أو الثامنة ومعى حقائبى البلاستيكية لأشترى البطاطس (كنا نأكل البطاطس المسلوقة بصفة خاصة)، والخبز، والطماطم، والحليب، فلقد كانت اللحوم باهظة الثمن، ثم أن حورية لم تكن تثق فى شئ، وكانت تخشى أن يدعها الآخرون تتناول لحم الخنزير.

كانت حورية تقتصد، فكانت الغرفة تكلفنا خمسمائة فرنكا أسبوعياً، إضافة إلى مصاريف الكهرباء، وكنا لانستخدم آلة التدفئة، وكان المطبخ عاماً بين المستأجرين جميعاً، الذين كانوا جميعهم من السود، كانت تضعهم الآنسة ماير رباعى فى غرفة واحدة، حتى أنها كانت تقيم فوق السطح، وكانت تهبط فى كل لحظة تراقب ما يحدث فى الشقة. وبعد مرور بضعة أيام، تعرفت على مارى هيلين الجوادلوبية[4] والتى كانت تعمل فى

(4) Guadeloupe من بين الجزر التى تخضع للسيطرة الفرنسية، مساحتها 1704 كيلو متر مربع، ويتكون غالبية سكانها من العنصر المختلط، كما توجد أقلية من السود وأخرى من الفرنسيين الأصل، ولغة الجزيرة الرسمية هى اللغة الفرنسية. (المترجم)

مستشفى بوسيكو[5] وصديقها جوزيه أيضا، وهـو مـن جـزر الأنتيـه[6]، كمـا تعرفت على كل الأفارقة، نامبى ومادى وانتـوان ونونـو الـذى كـان يصغرنـى عمراً، وكان شديد السواد ويلعب الملاكمة. كنت أحبهم كثيراً، كانوا غرباء فى سلوكهم، وكانوا يلهون بأى شئ ويتحدثون عن المالكة، الآنسـة مـاير ملقبـين إياها بـ " المرأة المُسنة "، أو كانوا يلقبونـها بـ "شيبانية"، ذلك أن هـذا الاسـم هو الذى لقبتها به فاطمة التى كانت تقيم قبلنا فـى الغرفـة؛ وكـانت الآنسـة ماير تقول لنـا عندمـا ترانـا: "لـدى مبـدأ ألا أؤجـر شـقتى للعـرب مطلقـاً "، ولكنـها قامت بهذا الاستثناء ربما للون بشرتى.

فى البدايـة، أحببـت هـذه المدينـة بشـدة، وأخـافتنى قليـلاً لأنـها شاسعة جداً ولكنها مليئة بالأشياء الخارقة، والناس الغرباء فـى سـلوكهم... نهاية، هكذا رأيتها.

فى بداية الأمر، دهشت للكلاب، فلقد كانت فـى كـل مكـان. كـانت هناك كلاب كبـيرة وكـلاب صغـيرة وقصـيرة تنتصـب علـى أرجلـها ، وكـلاب شعرها طويل جداً إلى حـد أننـى لم أكـن أعـرف أيـن رأسـها، أو أيـن ذيلـها، وكلاب شعرها متموج كمـا لـو كـانت قـد خرجـت مـن لـدى مصفـف الشـعر، وأخرى مُجتزة علـى شكل الأُسـود والثـيران والخـراف وكـلاب البحـر. كـان بعضها صغيراً جداً إلى حد أنه يقال عنها أنها فـئران، ترتعـش مثـل الفـئران

---

(5) من المستشفيات الشهيرة بباريس. (المترجم)

(6) جزر تخضع للسيادة الفرنسية. (المترجم)

وتبدو شريرة مثلها؛ وكان بعضها الآخر، في براطيلها الملطخة وأجنابها المتراخية، كانت فارعة كفحول العجول وكالعير، وعندما كانت تهز رؤوسها كانت تلوث كل شئ بروالها[7]. كان هناك بعضها الذى يقيم فى شقق الأحياء الراقية، ويسير فى سيارات أمريكية وإنجليزية وإيطالية. وكان هناك بعضها الآخر الذى يخرج بين ذراعى صاحبتهن مزينين على أكمل وجه ويرتدون صدرياتهم الصغيرة من القماش ذى المربعات، حتى أننى رأيت أحدهم يتنزه فى سلسلته التى ربطتها صاحبته فى السيارة.

لا أريد أن أقول لكم أنه لم يكن لدينا كلاب، كان هناك الكثير ولكنها كانت تتشابه جميعها، لونها ترابى وعيونها صفراء اللون وبطنها مقعر وكأنها حشرة الزُنبور. وتعودت آنذاك أن أراقب هذه الكلاب، فعندما كنت أرى كلباً يقترب منى كثيراً أو حتى لا يبتعد كثيراً عن طريقى، كنت أنتقى حجراً حاداً جداً، ثم أرفع يدى فوق رأسى، وعامة ما كان ذلك كافياً لإبعاد الكلب عنى؛ وكنت أفعل ذلك دون تفكير، واعتدت ذلك الأمر، حتى أننى فى المرة الأولى التى ذهبت فيها إلى حديقة النباتات[8]، اقترب منى كلب طويل ونحيف مربوط بسلسلة طويلة مذودة بزُنبرُك، وأراد اشتمام كعب

---

(7) الروال هو لعاب الحيوان. (المترجم)

(8) حديقة النباتات jardin des plantes هى من المعالم السياحية فى مدينة باريس بفرنسا وتضم مجموعة نادرة من الزهور والنباتات وبها حديقة حيوان شهيرة. وتقع حديقة النباتات بالقرب من نهر السين ومعهد العالم العربى. (المترجم)

حذائي ففعلت الحركة إياها، ولم يكن معي حجر، لأنه في باريس لا يمكن للمرء الحصول على حصى بسهولة في الشوارع، فنظر إلىّ الكلب بدهشة كما لو كنت ألقي بكُرة، ولكن صاحبته أدركت الأمر فسبتني كما لو كنت قد هممت أن أرميها هي بذلك الحجر.

وبعد ذلك الموقف، لم أعد أفعل ذلك، فقل اهتمامي بالكلاب، إذ كانوا جميعا مِلكاً لأناس يجرونهم في سلاسل وبالتالى لم يكونوا مؤذيين، عدا البراز الذى كان من الممكن أن يجعل الإنسان ينزلق على الأرض أو تُهشم عظامه.

كانت شوارع باريس تبدو لى دون نهاية، وبعضها كان بحق دون نهاية، فهي شوارع عريضة، وطرقات مشجرة تضيع وسط مد السيارات التى تتوارى بين المباني. وبالنسبة لى أنا التى لم تعرف سوى عالم الملاح وضاحية تبركية الصفائحية أو الشوارع الصغيرة فى حى المحيط المزدحمة بالياسمين، كانت هذه المدينة شاسعة غير مستنفذة. فكرت أننى حتى لو أردت أن أجوب كل الشوارع، الواحد تلو الآخر، فإن حياتى لن تكفى للقيام بهذا الأمر، ولن أستطيع أن أرى سوى قطاع صغير وعدد محصور من الوجوه.

كنت أنظر إلى أوجه الناس بصفة خاصة؛ وكالكلاب، كانت هناك طوالع من كل الأنواع، كان هناك البُدناء، والشيوخ، والشباب ذوى البشرة التى تشبه لون سلاح المدية، وكانت هناك أوجه شاحبة للغاية فى لون الأرض البيضاء، وأوجه داكنة جداً، أكثر اسودادا منى، بها أعين تبدو مضاءة من الداخل.

في الأوقات الأولى، لم أتوقف عن تفحص الوجوه، وكان لدى إحساس أحياناً أن نظرتي مأسُورة، تمتصها نظرة الآخر، وأنه ليس بوسعي أن أتخلص منها؛ وحينئذ جربت النظارات السوداء كقناع أضعه على وجهي، ولكن لم تكن هناك من شمس كافية، وكنت لا أحب أن يفوتني تفصيل وجه ما، تعبير ما، أو لمعان نظرة ما.

وبسرعة، واجهتني مشكلات عديدة، فلقد كان هناك رجال كنت أتفحصهم فكانوا يتعقبونني، وكانوا يظنون أنني عاهرة، مهاجرة صغيرة من الضواحي تسعى إلى الذهب في وسط المدينة، فكانوا يقتربون مني، ولكنهم لم يكونوا يجسرون على مس جسدي، فلقد كانوا يخشون الخدعة. ذات يوم، مسكني رجل عجوز قليلاً من ذراعي وقال لي: "هل تأتي معي إلى سيارتي؟ سنشتري حلوى طيبة"

جذب ذراعي بشدة، وكانت عيناه مثل عيني الرجل الذي ضايقني في المطعم سابقاً مع حورية، وكنت أعرف ماذا يريد مني، كما تعلمون، فنهرته بداية باللغة العربية (كلب – قواد – ملعون دين أمك)، ثم باللغة الأسبانية "غبي، جبان، لواطي"، فأدهشه ذلك حتى أنه ترك ذراعي وتمكنت من الفرار منه.

وبعد ذلك الموقف، كنت أدرك الأمر على الفور حينما كان يهم رجل يتعقبني، وكنت ماهرة في اقتياد الرجال إلى ذلك؛ ولكن كانت في حياتي نساء أيضاً، ولكنهن كن أكثر مكراً من الرجال، فكانت الواحدة منهن ترتب

حتى تلقانى فى مكان لا يمكننى أن أفر منه، فى ممر مسور أو فى سلم كهربائى بمتجر أو فى عربة مترو مثلا، كان هؤلاء النسوة يخيفننى، فلقد كن فارعات الطول، بيضاوات، يضعن قلنسوات من الشعر الأسود والبذل الجلدية وأحذية صغيرة، وكان صوتهن خفيض مستنفذ قليلاً، ولم أكن أقدر على سبهن، فلقد كنت أبتعد عنهن وقلبى يدق ثم أعبر الشارع بين السيارات وأهرول بجنون.

ذات يوم، انتابنى هلع فى مرحاض مقهى؛ فلقد كان هناك بهو كبير تحت الأرض أنيق به مرآة ومصابيح صغيرة حولها، وكنت أغسل يدى وأمرر قليلاً من الماء على جبينى كعادتى حتى أملس شعرى المتهدل، وجاءت امرأة عن يسارى، على الأرجح أنها كانت شابة بدينة بشكل ملحوظ، أنفها عريض ووجنتاها تخطهما تشققات خفيفة، وشعرها أشقر مصفف على طريقة الشينيون[9]؛ وحينما شرَعَت فى تزيين نفسها، نظرتُ إليها مرة أو مرتين بسرعة فى المرآة فحسب، الوقت الذى رأيت فيه أن عينيها لونها أزرق يميل إلى اللون الأخضر، ولاحظت أنها وضعت لوناً أسوداً على أهدابها عن طريق مرقاش صغير.

وفجأة ثارت، وسمعتها وهى تقول لى فى نغمة غريبة وخبيثة وصلبة، تشبه نغمة صوت زُهرة فى غضبها: "لماذا تنظرين إلىَّ؟ ماذا ترانى أفعل؟"، فالتفتُ إليها، ولم أفهم ما كانت تقوله لى، واستطردت قائلة:

(9) تسريحة شعر يطلق عليها فى بعض اللهجات العربية ذيل الحصان. (المترجم)

"أجيبى أيتها العاهرة، لماذا تنظرين لى هكذا؟".

كانت عيناها جاحظتين قليلاً وشاحبتين، وكان يبـدو لى أن عينيـها تفتح وتغلق كأنها قط. تمتمت قائلة: " لم أنظر إليك"، ولكنها تقدمت نحوى مفعمة بحنق بارد أرعبنى، وقالت لى: "كلا، لقد نظـرت إلىّ أيتـها الكاذبـة، وكـانت عينـاك مصوبـة إلىّ، وحينمـا كنـت لا أنظـر إليـك شـعرت بعينيـك تلتهمنى"، فتقهقرت إلى الطـرف الآخـر من المرحـاض، بينمـا كـانت تسير نحوى؛ مسكت شعرى بكلتى يديها وأمالت رأسى إلى الأمـام نحـو الحـوض، فظننـت أنـها ستقرعنى وتصدم رأسى فـى القـاعدة الرخاميـة فصرخـت، فتركتنى: "هذه قـذارة، هيـا أيتـها القـذرة الصغيرة"، ثـم تنـاولت أشيائها وقالت لى: "لا تنظـرى إلىّ، اخفضـى عينيـك، قلـت لـك اخفضـى عينيـك، إذا نظرت إلىّ سوف أقتلـك "، ثـم خرجـت. كنـت خائفـة حتـى أننـى لم أتمـالك سـاقى، وكـان قلبـى يصطـدم بصـدرى، وتقيـأت، ولم أعـد بعدهـا مطلقـاً إلى مراحيض تحت الأرض.

وهكذا تعلمت شيئا فشيئاً حياتى الجديدة، فلم تكن حورية تتمكـن من متابعتى، فبما أنها مثقلة بحملها، كـانت لا تتحـرك تقريبـاً، ولا تـبرح الغرفة إلا لكى تذهب إلى المطبخ عندما لم تكن هناك مارى هيلـين، فلقـد كـان الأنتيون يخيفونها، وكانت تقول إنهم سَحَرةٌ، ولكننى أظن أنها كانت تقـول ذلك لأنهم سود مثلى. كانت حورية تحصى كل مساء ادخاراتها، فإذا كنـا لم

نغادر ميللا إلا منذ ثلاثة أشهر، فقد نقصت المدخرات إلى النصف تقريباً، وبهذه الطريقة لن يكون معنا أى شئ قبل قدوم فصل الربيع.

كان يبدو على حورية الحزن الشديد إلى حد أننى كنت أواسيها على قدر استطاعتى، وكنت أعانقها قائلة لها: "كل شئ سيكون على ما يرام وسترين"، ووعدتها بألف شئ، وعدتها أننا سنجد عملاً وشقة جميلة على شاطئ بحيرة أورك[10] وسنستطيع أن نحيا حياة طبيعية، بعيداً عن كوخ الآنسة ماير القذر.

انتشلتنا مارى هيلين، فى حين كنا لا نجد شئ نسدد به الإيجار فى نهاية الصيف، فبينما كنت أخطط لأعيد مزاولة مهنتى كلصةٍ، سألتنى ذات يوم فى المطبخ: "هل يناسبك عمل فى المستشفى؟ "، سألتنى ذلك لا مبالية، ولكننى فى عينيها وجدت أنها قد استنبطت كل شئ فى حياتنا، وأدركتُ أنها كانت تشفق علينا.

كان عملاً طيباً لى فلقد كنت أعمل فى صالة مطعم، وعُينت على الفور، ولأنى سوداء البشرة فقد قدمتنى مارى هيلين على أننى ابنة أختها وقالت إن لدى مستندات دالة على شخصيتى وإننى من جزر الجوادلوب، فأندهش الآخرون من أننى لا أتمكن من التحدث بلغة المستعمرات الفرنسية، ففسرت مارى هيلين لهم كل شئ وقالت: "ولدتْ هناك، ثم جاءت أمها بعد

---

(10) منطقة فى شمال باريس. (المترجم)

ذلك إلى فرنسا، ولذا نسيتْ كل شئ"، وبذلك لم يتم تغيير حتى اسمى "ليلى"، فهو اسم من الأسماء المعروفة بهذه الجزر، وقامت مارى هيلين بتسجيل اسمى العائلى مطابقاً لاسمها العائلى "مانجان".

كنت أعمل من السابعة وحتى الواحدة ظهراً فى مستشفى بوسيكو، وكنت أتقاضى نصف راتب، ولكن كان ذلك يسمح بتسديد الإيجار والقيام ببعض النفقات، فكان من الممكن أن تبقى إذاً مدخرات حورية لوقت ما، إضافة إلى ذلك، كان بوسعى أن أتناول طعامى فى مطعم المستشفى، فلقد كانت مارى هيلين تحجز لى مقعداً بجوارها، وكانت تعبأ طبق طعامها لى، فلقد كانت وديعة للغاية، وكنت أحب نظرتها الحنونة قليلاً. فى يوم من الأيام، عاتبت الآنسة ماير حورية فى أمر لا أعرفه، وهددت بأن تطردها، فتناولت مارى هيلين مدية جزار من المطبخ وسارت إلى المالكة وقالت لها: "أنصحكِ ألا تحاولى أن تطردى أى شخص مهما حدث، وبرغم كل النقود التى ندفعها لك، فإنك عجوز فاسقة".

كنت أحب بصفة خاصة الأعياد، فمن آن إلى آخر، فى عيد ميلاد أو فى أى مناسبة أخرى، كان السود يغلقون الستائر، وكانت الشقة تغوص فى الغبش، وكان الأفريقيون يضربون الدف، وهو طبل كبير من الخشب مغطى بالجلد، وكانوا يدقونه بلطف شديد بأطراف أصابعهم؛ وعلى ضوء الشمع، كان الصبية يرقصون، وكان نونو، الملاكم الكاميرونى الأصل، يرقص شبه عارياً أو عارياً فى بعض الأحيان، وفى وسط ممر الشقة، كنا نسمع الضحكات

تنبعث من الغرف، وكانت ماري هيلين تنطلق بصوتها في لغتها الكمنجية، وكان جوزيه رفيقها يخرج من الغرفة بآلته الموسيقية ويعزف موسيقى الجاز وموسيقى هادئة مع هتاف ناشز من وقت إلى آخر. أما الآنسة ماير فكانت تحبس نفسها في هذه الأيام، ولم تكن تجسر على الخروج طالما أن الحفل مستمر. وكانت حورية أيضا لا تخرج خارج الغرفة، ولكنها كانت تنصت للموسيقى، وكنت أمضي وقتي بين الخروج والدخول إلى غرفتنا، وكنت أشْتَمُّ رائحة الدخان، ومن المطبخ كنت أتسلل إلى وسط من كانوا يرقصون، وكنت أساعد ماري هيلين في جمع الأطباق، وكنت أحمل إلى حورية أطباق الطعام، وأرز مخلوط بجوز الهند، ويخن من السمك، ولسان الحمل المقلي. وكنت أرقص أيضاً مع الأفارقة، أو مع شاب فارع عينيه خضرواتين، اسمه دينيس؛ وعندما كان يجذبني إليه بشدة، كانت ماري هيلين تدفعه بلطمة مفاجئة قائلة له: "انتبه، هذه الفتاة شريفة، إنها ابنة أختي". وعندما كان الاحتفال ينتهي، كنت أعاون ماري هيلين في عملية التنظيف، فلقد كانت تجد مشقة في الانحناء لجمع الأطباق الورقية. ذات مرة، ضحكت هازئة وقالت: "إذاً لن أكون الوحيدة"، وبما أنني نظرت إليها دون أن يبدو عليَّ أنني أدرك ما قالت، استطردت: "نعم الوحيدة التي لديها رضيع، ماذا، ألا تشكين في هذا الأمر ؟"، ونظرت إليَّ باحتفاء وقالت: "حقيقة إنك ساذجة، أنك لا تعلمين شيئاً عن الحياة، ماذا علمتك أمك؟ "، فأدركت أنها تتحدث عن حورية،

فقلت لها: " كلا، ليست هى بأمى، تعلمين ذلك"، فانطلقت مارى هيلين فى الضحك، وقالت: "نعم، أيا كان الأمر، فسوف يأتيها طفلاً من قَبلى".

كانت هذه هى المرة الأولى التى نتحدث فيها عن هذا الأمر، وأحسست كثيراً أنه كان لزاما علىَّ أن أحدثها بكل شئ وأعترف لها، ولكننى لم أكن قادرة على ذلك، ولم أكن أعرف سوى تأليف الحكايات، لأننى منذ أن فقدت سيدتى، كان ذلك كل ما كنت أستطيع أن أفعله. وذات مرة قلت لها: " ألم أقل لك أنه ليس لى آباء؟ "، غير أن مارى هيلين قطعت حديثى إليها فجأة ثم قالت: "اسمعى يا ليلى، لا تقولى لى ذلك الآن، فيوم ما، سوف نتحدث عن ذلك الأمر، ولكن ليس الآن وقته، ليست لدى رغبة فى أن أستمع إلى ذلك، كما أنه ليس لديك الرغبة فى الحديث عن ذلك"، وكانت على صواب، وربما أدركتْ أننى لا أقولُ الحقيقةَ.

مضيت أكتشف باريس طوال الصيف، وكان الطقس رائعاً، وكانت السماءُ زرقاءُ دون غيمة واحدة، وكانت الأشجار شديدة الخضرة لامعة، وضخمت عواصف أغسطس من نهر السين؛ وفى فترة بعد الظهيرة وأنا أخرج من المستشفى، كنت أسير على طول النهر، وأذهب حتى المعبر الذى يربط الشاطئين أمام الكنيسة الكبيرة. لم أكن مطمئنة بعد للسير فى الشوارع الكبيرة، والآن أمضى بعيداً، فكنت أرتاد فى بعض الأحيان المترو، وفى غالبية الأحيان كنت أستقل الأتوبيس، ولم أتمكن من التعود على استقلال المترو. كانت مارى هيلين تسخر منى وتقول لى: "إنك غبية، هذا أمر جلى،

فالطقس منعش في فصل الصيف، وفي فصل الشتاء الطقس حار، ليس علي
إلا أن تجلسي في ركن من العربة ومعك كتاب، ولن يعيرك أحد انتباها
ولكن لم يكن خوفي من المترو مبعثه الناس، فكوني تحت الأرض، ك
يشعرني بالدوار، وكنت أرقب خروج المترو من تحت الأرض لأرى ضو
الجو، وكان صدري يطبق عليَّ، ولم أكن أحتمل سوى الخط الجوى بجوا
محطة اوستيرليتز(11) أو من جانب محطة كامبرون(12). كنت أستقل
الأتوبيس وأذهب حتى نهاية محطاته، وكنت لا أطالع أسماء الشوارع، فلق
كنت أسعى كي أرى بقدر الإمكان الناس والمباني والمتاجر والميادين.

ثم أنني سرت في كل الأحياء التالية: الباستيل، فدرب شاليينى
لاشوسيه دانتن، الأوبرا، مدلاين، سباستبول، لاكونترسكرب، دنفير
روشرو، سان جاك، سانت انتوان وسان بول؛ وكانت هناك أحياءُ بورجوازي
أنيقة تنام في الثالثة من بعد الظهر، وكانت هناك أحياء شعبية ضوضائيـ
لها حوائط طويلة قرمدية حمراء تشبه سور السجن، وسلالم ومطالع وساحات
خالية، وحدائق ترابية تكتظ بأناس شواذ، وميادين في ساعة تناول أطفا
المدارس لطعامهم، ومعابر طرق حديدية، وفنادق مريبة تكتظ بفتيات ترتدي
الجلد الأسود، ومتاجر فخمة تعرض ساعات ومجوهرات وحقائب يد وعطور
وعندما وصلت إلى باريس، كنت أنتعل صندلا من الجلد، وفي فصل الخريف

---

(11) محطة مترو وقطار شهيرة بباريس. (المترجم)

(12) محطة مترو بالدائرة الثالثة عشرة بباريس. (المترجم)

تمزق إربا، فابتعت حذاءً رياضيـاً أبيضـا بلاستيكيا حقـيرا جـداً مـن متجـر بجوار بورت ديتالى[13]، ورغم ذلك فقد اسـتطعت عـن طريقـه أن أسـير لعـدة كيلومترات.

كنت أسير دون أن أتحـدث إلى أى شـخص؛ ومـن آن إلى آخـر، كـان هناك أناس ينظرون إلىّ ويتظاهرون أنهم يقتربون منى، ومنـذ مـا حـدث فـى مرحاض منطقة ريجانس، لم أعد أنظر إلى الناس فـى أعينـهم، وكنـت أسير غائبـة، وكـأنى لا أعـرف إلى أيـن أمضـى، وعندمـا كنـت ألحـظ أن أحـدا مـا يتعقبنى، كنت أدخل المبانى وأنتظر فى الظلام، وفى عمـق ممـر، أعـد حتـى مائة ثم أرحل.

كانت هناك مناطق غريبة، لاسيما بجوار محطات المترو: ففى شارع جان بوتـون وعلى رصيف المحطة، كان هناك شباب يرتـدون أقمصـة عريضـة للغايـة، وفتيـات نحيفـات ترتديـن الجيـنز والسـترات القصـيرة، شـعورهن مغسولة بالكلور، وطالعهن مُدبب، ونظرتـهن غائبـة فارغـة. ذات يـوم، وأنـا فى طريـق عودتـى إلى المـنزل، فوجئـت بمشـاجرة، كـان الأمـر غامضـا وغـير مفهوم؛ أولاً، كان هناك رجال ونساء يهرولون متدافعـين ويطلقـون صيحـات أجشة، أظنـهم أتراك أو روس، لا أعرف، ثم كانت هناك مجموعة صغيرة من الشباب الذين يرتدون أقمصة جلديـة، وكـانوا يمسـكون فـى أيديـهم بمطـارق

(13) حـى ومحطة مترو بباريس. (المترجم)

ومضارب لعبة البسبول(14)، فمروا جميعهم من أمامي، وعندما مكثت خائفة على طرف الرصيف، دفعني أحد الصبية بكلية يديه، ورأيت وجهه مقضباً، وفمه وعينيه التي تفحصتني لبرهة قاسية كانت جافة كأعين السَّحْلِيَّة، ثم رحلوا، وهويت على الأرض على ركبتي أمام مجرى الماء، ولم أتمكن من التحرك، وعندما سمعت سرينة الشرطة كان لدى فحسب الوقت الذى أهرول فيه إلى باب المبنى الذى تقع فيه شقة الآنسة ماير.

كانت حورية ترتعش في الشقة، عندما دخلت إلى الغرفة المظلمة، أشعلتُ الضوءَ ولم أعرف نظرتها، نظرة حيوان مُطارد، فأحدث ذلك الأمر فيَّ شيئاً ما، ذلك أنني عرفتها غير مبالية مرحة.

قلت لها: "ما بك؟"، فلم تجب، كانت تنظر إلى ساقي، ولاحظت أن ما تدقق النظر فيه هو بنطالي الممزق من على الركبة، وكانت هناك بقعة دم تتمدد على النسيج، فقلت لها: "وقعت على الأرض، زلتْ ساقي على درجة السلم"، ولكنني كنت أعلم أنها لاتنخدع بقولي، وقالت بصوت مختنق: "أريد أن أرحل عن هذا المكان، لم أعُدْ أقوى على ذلك"، فقلت لها قاطعة حديثها قبل أن تتحدث عن الرحيل: "إنه أمر مستحيل، لن يمكنك أن تعودى إلى بلادك، فأنت وأنا سنتعرض للسجن، وربما لاترين طفلك أبداً، فسوف يسلبونك إياه"؛ كنت أقول لها ذلك من أجل نفسي أيضاً، وحتى

(14) لعبة يتنافس فيها فريقان، يتشكل كلاهما من تسع لاعبين، ويشترط فيها إحراز أربعة أهداف لتكوين نقطة فى صالح الفريق. (المترجم)

لا أنسى ما فعلوه بى حينما كنت طفلة وحينما أختطفت وعُلبت فى حقيبة ثم تم بيعى، حتى لا انسى هذه الأيادى التى كانت تمر بى والحريق فى بطنى، فعادت لى الذكريات فجأة كحامض فى حلقومى، واستطردت قائلة لها: " الأفضل أن نموت" قلت ذلك كما قالته هى عندما كنا فى تبريكة، وهى تضعُ المديةَ على حلقها.

فى نهاية فصل الصيف، تعرفت على الطبيبة فرومجا؛ أظن أنها على الأرجح قد رأتنى عندما كنت أدفع أمامى عربة الغسيل فى ممر المستشفى. كانت الطبيبة فرومجا تعمل كطبيبة أعصاب، كانت تفحص مرضاها فى الطابق الثالث، ولكنها كانت تغدو وتعود من قسم إلى آخر بلا توقف. سألت عن اسمى من مارى هيلين وعن معلومات أخرى، وذات يوم، أخذتنى مارى هيلين على انفراد فى ساعة تناول الطعام، وكانت تتحدث إلىّ بنفس صوتها البطئ الغنائى، ولكن فى عمق عينيها الذهبيتين، تمكنتُ من أن أطالع احساساتِها: القلق، شئ من السخرية أو الحذر، وقالت: "تعلمين يا ليلى، كما يطيب لك، ولكن أردت أن أبلغك أن شخصاً ما فى وضع مرموق يهتم بك"، فلما نظرت إليها دون أن يبدو على الفهم، قالت: " الطبيبة فرومجا التى تدير قطاع طب الأعصاب تريد أن تساعدك، إنها على استعداد أن تجد لك عملاً، إذا شئتِ، يمكنك أن تقابليها "، كنت متحفظة، ذلك أننى لم أكن أرغب فى معرفة أحداً أيا كان، أو التقى بأحد من جديد مهما كان الأمر، وكنت أود أن أمضى بين الناس وبين الأشياء كسمكة تصعد سيلاً.

ثارت مارى هيلين وقالت لى: " ينبغى عليك أن تفكرى فى مستقبلك أيضاً. لا يمكننى أن أستمر فى المجئ بك إلى هنا دون أن يكون لـك مستندات شخصية، إنه أمر مخاطرٌ فيه، فأنا أخاطر بفقد موقعى فى العمل ". كانت هذه هى المرة الأولى التى أفهمتنى فيها أنها أدت إلىّ خدمة، ولو كان الأمر بيدى لتركت ببساطة المستشفى، ولكن حورية كانت مُعدمة ووحيدة وكنا فى حاجة ملحة للنقود، فقلت: "ماذا يجب علىَّ أن أفعله؟"، فلطمتنى مارى هيلين، وقالت: "نهايةً، ماذا تتصورين؟ هذه المرأة تعرض عليك أن تعملى لديها فى التنظيف وفى القيام بالمشتريات فقط، هذا كل ما فى الأمر، وستعملين كل يوم، وسيكون بوسعك أن تتناولى الطعام فى الظهيرة لديها، سوف تنتظرك فى منزلها غداً بعد الظهيرة ويمكنك أن تزاولى عملك لديها مباشرة، أليس ذلك ما تبحثين عنه؟ "، خفضت رأسى، ولم أرد أن أعارض مارى هيلين، فلقد فعلت الكثيرَ حقا من أجلى، لأنها كانت حنونة، ولأنها كانت تحب شعرى وبشرتى السوداء وعينى اللتين كن كعينيها، فعينى كعيون غزالة كما كانت تقول سيدتى. عانقتنى وقالت لى: " اسمعى، إذا أردتى، يمكننى أن أذهب معك حتى أُقَدمَكِ لها، وأطلبُ من سيسيل أن تعمل بدلاً منى غداً فى فترة ما بعد الظهيرة ".

فعلتُ مثلما قالت لى، ولا أظنُ أنها كانت سيئة النية، فكانت تعتقد أنها تمد لى يد العون، وربما كانت فى الحقيقة حاسدة، وربما أرادت هى أيضاً أن تلفت نظر شخصاً ما فى وضع مرموق. كانت مارى هيلين متواضعة

للغاية، مخدوعة كثيراً في الحياة بصحبة أبنتها والسنوات التي كان زوجـها السابق يضربها خلالها كل مساء، فلقد افقدها أحد قواطـع أسنانها ذات يوم حينما دفعها إلى الأمام في واجهة دولاب به مرآة، فـأرادت أن تخلصنـي مـن حياة كهذه، وقـالت لي: "انظـري إليَّ، حيـاتي لا تسـاوي شيئاً"، وأرادت أن أتركَ حورية، وأن أصبحَ آنذاك إنساناً ما.

كان منزل السيدة فرومجا يقع في ضاحيـة باسي فـي شارع صغـير هادئ، وكان له بوابة كبيرة من الحديـد وعموديـن، وكـان رقمـه "8" مـدون بالحديد، وكانت واجهته بيضاء وسقفه مدبب، ونافذته صغيرة علـى السـطح الذي أحببته على الفور.

قدمتني ماري هيلين للطبيبة فرومجا، ولقد سمعت الحديث عنـها بكثرة، وكنت أخشى لقائها، وظننت أنني التقي واحدة من سيدات المجتمـع كالسيدة دلاهاي في الرباط بحليها الذهبية وثوبها الرمادي الرائع، وطالعـها الشاحب وعينيها الباردتين. كنت قد هَيَئْتُ نفسي لفكرة أن أفر مع أول كلمـة غير مناسبة توجهها إليَّ، ولكن السيدة فرومجا كانت على النقيض مـن ذلـك، فلقد كانت قصيرة ونشـيطة، بشـرتها سمـراء للغايـة، وعيناهـا براقتـان مـن الدهاء، ومع ذلك، كانت ترتدي بشكل غريـب بنطـالا أصفـر اللـون يميـل إلى السمرة، واسع للغاية، وقميص طويل لونـه أزرق زرقـة السماء وكأنـه وشـاح ريفي. عندما رأتني عانقتني، وقالت في تعجب: "ولكنها جذابة"، ثم أعَدَتْ لنا شايا وقدمت لنا الحلوى، ولم تبق في مكان ثـابت، فقلـد كـانت تقفـز فـي

الشقة كعصفور دورى، وقالت لى: " يا ليلى، عليك أن تهتمى بى، هل تريدين ذلك؟ ليس لدى أطفال فستكونين كابنتى، أنت التى ستنظمين كل شئ فى هذا المنزل، ولقد قالت لى مارى هيلين أنكِ كنت تهتمين فى السابق بسيدة عجوز قَعيدة، حسناً، إننى فى حاجة إلى أن تعاملينني كما لو كنت كذلك، أتدركين ما أقوله لك ؟ ". احْتَسَيتُ الشاى، وقلت نعم، ووجدت صعوبة فى الظن أنها تحدثت هكذا عن سيدتى كما لو كان ذلك بحق عملى أن أنشغل بسيدة عجوز قعيدة. وفى الواقع، أدركت أن ذلك الأمر كان أمراً حقيقياً، لقد كان ذلك بحق عملى منذ أن كنت صغيرة.

أحببتُ العملَ لدى السيدة فرومجا، فكنتُ أبقى لديها طيلة النهار، وكنتُ أقومُ بتنظيفِ المنزلِ، عدت للممارسات التى كنت أرتادها فى السابق فى منزل الملاح لدى لالا أسماء، فكنت أبدأ بمسح الفناء ثم الرواق، وكنت ألتقط أوراق أشجار الكستناء التى كانت تتساقط والزغف وحُثالاتِ المبانى المجاورة، ثم كنت أغسلُ البلاط وأنفض السجاد، وكنت أنظف الموكيت بمكنسة ذات يد وجدتها فى القبو. وذات يوم جاءت السيدة ورأتنى فانطلقت فى الضحك قائلة: "ولكن، كلا يا ليلى، عليك أن تستخدمى آلة التنظيف". كنت خائفة من هذه الآلة التى كانت تدوى وتصفر، والتى كانت تبتلعُ كل شئ حتى الأشياء التى كانت أسفل ستائر التول[15]، وانتهيت بالتعود عليها.

(15) التول هو قماش قطنى أو صوفى شفاف يستخدم عادة فى نسج الستائر والكلمة مأخوذة من أسم ريف فرنسى. (المترجم)

كنت أقوم ببعض المشتريات في الحي، وبما أن متاجر المنطقة كانت أسعارها مرتفعة، كنت أستقل الأتوبيس وأذهب إلى سوق "اليجر" حيث كنت أشترى البرتقال فى حزمة بها اثنين من الكيلوهات، وكنت أشترى الطماطم والقرع والشمام. كان المطبخ يمتلئ بالفاكهة، وكانت السيدة منبهرة بى. كانت تترك ورقة مالية فئة المائة فرنك على المنضدة الصغيرة فى حجرة الاستقبال، وكنت أضع النقود المعدنية القليلة فى صحن صغير، فلقد كنتُ أجاهد نفسى على إنفاق أقل شئ بقدر الإمكان. كنت أعد طبق السلطة بشكل مختلف كل يوم عن اليوم الآخر، بالزيتون التونسى، بالكرم الجاف والتين واليقطين الأقرع والكيوى وثمرة المحامى والاوكرا والكرامبول، وأوراق الخلس البلدى وفريذيه وباتيفيا وخس النعجة وطرخشقون وقرع وشيوت وكرنب أحمر اللون. كنت أملئ طبقا كبير الحجم أبيض اللون ثم أضعه على المنضدة فى منتصف مفرش السفرة الكبير الأبيض الفضى اللامع بجوار إبريق معبأ بالماء الطازج، ثم أنصرف. وعندما كنت أعود إلى شقة الآنسة ماير، كان كل شئ يبدو لى قاتماً، حزيناً، تعساً. كانت حورية تتمرغ على الأريكة، وتقرض الخبز، كانت حزينة فتقول لى: "أتتركيني، تتركيني وحيدة، فأمضى حياتى فى البكاء، هل لهذا السبب أتيت بك إلى هنا؟"؛ كانت حورية غيورة حاسدة، وكانت تقول: "والآن ولم تعد لك حاجة إلىّ، والآن وقد وجدت من هو أفضل منى، فتذهبين، وتتناسيننى وأنا أموت فى هذا الثقب الأسود دون أن أجد من ينقذنى". فكنت أحاول أن أهدأ من روعها،

وعدتها أنني بمجرد أن أقتصد النقود الكافية سنذهب نحو الجنوب، إلى مارسيليا، إلى نيس؛ كنت أحدثها وكأني أتحدثُ إلى طفلة.

ربما كانت حورية على صواب، فقد كنت أرغب في الرحيل، وأريد أن أبتعد على قدر الإمكان عن شارع جان بوتن وعن الفنادق البائسة وعن متاجر الكوكاويين على الرصيف وعن عصابات الشباب التي كانت تهرول بعصيانها كي تضرب العرب والأفارقة لحظة مرورهم.

كنت أشعر بالسعادة حينما أدفع البوابة الحديدية للمنزل رقم "8" وأدخل إلى المنزل القديم الهادئ حيث رَتَّبْتُ كل شئ وزينت كل شئ، وكأن لالا أسماء كانت لا تزال حية وكأنها السيدة الحقيقية للمنزل.

أظن أنني منذ أن كنت طفلة لم يتوقف الناس عن وضعي في شباكهم، فكانوا يوقعونني في شباكهم، ويمدون إلىَّ شراكهم عن طريق عواطفهم وضعفهم، فلقد كانت هناك لالا أسماء، ثم كنتها زُهرة، والسيدة جميلة، وتغادير، والآن حورية؛ كان لدى شعور بأنني أختنق. ولم يكن بوسعي أن أفلت من حورية، كان علىَّ أن أعود وأعيش من جديد في دوار تبريكة، سجينة في دار تغادير، كي أعيش في أفق وحدوي يشكله كل من طرف الزقاق المثقوب ومعبر الطريق الحديث السريع، والفئران التي تحدث أزيزا على السقف.

أتفق معكم على أن هذه الفكرة لم تكن طيبة من جانبي، ولكنني لم أعُد أقدر على العيش هنا، ولذا ففي الساعة التي كان ينبغي علىَّ فيها أن أعود

إلى منزلنا في شارع جان بوتن، كنت أمكثُ لدى السيدة، وكنت أستمر في تنسيق المطبخ،فأُجلى الأوانى، البلاط الصينى والصنابير، وكنت أفعلُ ذلك حتى لا أتأملَ في حياتى، وكى لا أفكرَ في أمرى.

ذات يوم، عادت السيدة فرومجا مبكرة عن موعد قدومها قليلاً؛ وعندما رأتنى، فطنت كل شئ، فراحت تعانقنى قبل أن تنزع واقى المطر من على ملابسها، وقبل أن تنزع مفاتيحها من باب المنزل، قالت: "إن ذلك يسعدنى يا عزيزتى، كنت أنتظر هذا اليوم، وكنت على يقين من أنه سيأتى"، ولم أدرك كثيراً ما كانت تريد أن تقوله لى، ثم أشارت إلى الغرفة التى تقع فى نهاية المنزل، إلى جانب المطبخ، تلك الغرفة التى كان لها مخرج إلى سلم الخدم؛ وفى هذا المكان، كنت قد وضعت حقيبتى ومذياعى القديم وكل ما أملك، ولم تطرح علىَّ السيدة أسئلةً، فعلتُ كلَّ ذلك على الفور كما لو كان ذلك أمراً متفقاً عليه بيننا، كما لو كنت أقيم لديها منذ أشهر وأعوام. كان ذلك الأمر مريحاً لى من حورية؛ وحتى مارى هيلين كانت مُضْنية، كانت تريدُ أن تعرف كل شئ فى حياتى وتتدخل فيها؛ ولم أفكر حتى فى نونو آنذاك، فحتى هو كان يسجننى فى شبكة صيده، كان يود أن نخرج معاً، ويريد أن اقْبَلَهُ خطيباً لى، وكان عطوفا علىَّ وله بسمة طيبة، وكنت أمزح معه كثيراً، ولكننى كنت أخشى أن تلتقطه الشرطة لأنه كان كاميرونياً لا يحمل مستندات شخصية، وكان لدى إحساس أنه، إن آجلاً أو عاجلاً، سوف يُقْبَض عليه فلم أرد أن يقبض علىَّ معه.

وفي منزل هذه السيدة كانت السكينةُ، وهناك، كنت على يقين أنه لن يحدث شئ، فلقد كان منزلها يقع في حي هادئ، في شارع صغير منحني، به منازل صغيرة لها حدائق، وكانت المباني مباني أثرياء، وكان هناك أطفال شقرٌ يرتدون ملابس موحدة، فلم يكن للشرطة أن تأتي وتعسكر هنا. في البداية وبعد إقامتي في باسي، كنت أنام طول الوقت، وكان يبدو لي أنني لم أنم منذ سنوات، ذلك أنني كنت أعيش تحت وطأة الهروب، أو كنت أخشى أن تقبض على شرطة زُهرة؛ وفي شارع جان بوتن، كانت مشاجرات السود، والآنسة ماير، والعصابات الملقبة "بالبانك"[16] والتي كانت تهرول في الأزقة مسلحة بالعصي كي تضرب العرب، وكانت هناك أيضاً صفارة البوليس التي كانت تنطلق غالباً، وصوت عربات الإسعاف المُحزن.

أما الآن فأنام حتى التاسعة أو العاشرة صباحاً، وفي بعض الأحيان، كانت السيدة تيقظني، كانت تجذبُ الستارةَ، لينزلق ضوء الشمس بين جفوني، وكنت أرى من خلال النافذةِ الكرمَ الأحمرَ، وأسمعُ العصافيَر تُزَقزقُ، فأجلس كالكُرة على الفراش حتى أؤاجل لحظة نهوضي، في حين أن السيدة كانت تجلس على طرف الفراش تمرر برفق راحة يدها على وجنتي كما لو كنت قطاً صغيراً. حتى صوتها أيضاً كان يداعبني، فكانت تلفظُ بكلماتٍ عذبةَ جداً تتدحرج كالحلم، وتقول: " لا تتحركين يا عزيزتي، وظلي هكذا،

(16) هي مجموعة من الناس الذين يعرفون بمعارضتهم للنظام الاجتماعي بشكل ثوري استفزازي (المترجم)

هنا منزلك، دعيني آهدهدكِ، إنكِ ابنتي الصغيرة، أنتِ الابنة التي كنت أنتظرها، فدعيني أذودَ عنكِ، ومعي لن تخشي شيئاً، سوف أعتني بك، فأنتِ ابنتي، يا طفلتي الصغيرة...". كانت تقول كلمات كهذه بالقرب من جسدي، في أذني وأشياء أخرى بصوتها الأجش الحنون، وكانت يديها الدافئة الجافة تنزلق على وجهي وتداعب شعري في رقبتي، وكانت تخلل أناملها في قرطي؛ ولا أعرف إن كنت أحب ذلك، فلقد كان أمراً غريباً، كان بمثابة حلماً ينبسط، فيبدو لي أنني أتموجُ فوق غيوم، وكنت أرتعش وأشعر بموج يتجول في ظهري، ويصعد بطني، وأشعر بكل عصب في جلدي، من أقدامي حتى يدي، ولم يكن بوسعي أتحرك، فكنت أنام في هذه الحالة، وعندما كنت أفتح عيني ثانية، كنت أرى النهار ساطعاً تكون السيدة قد مضت إلى عملها؛ حينئذ كنت أنهض وأذهب إلى صالة الاستحمام وأخذ حماماً منعشاً لكي أستيقظ.

لم أعد أذهب بعيداً من أجل قضاء المشتريات، فالآن أخشى أن أفقد هذا الحي، وأخشى أن أبعد عن هذا الشارع الهادئ، فلا أرى علامة الرقم "8"، فكنت أذهب إلى متجر الخبز في طرف الشارع، وبالقرب من محطة المترو، كنت أشترى الفاكهة والخضر والجبن، ولهذا كانت النقود لا تكفي، وحتى لا أطلب من السيدة، كنت أنفق من مدخراتي الخاصة، فلقد كنت أظن أن السيدة فروماجا جعلتني أعمل لديها لأنني حاذقة وأنني أعرف الشراء، ولم أرد أن تعلم عني أنني أصبحت كسولة، وأنني لم أعُد أدخرُ لها؛

إلى حد أننى - ولمرات عديدة - لم يعد لدى النقود الكافيــة للشـراء، فسـرقتُ أشياء، علب سمك السيمون المحفوظ، وبسـكويت ومسـاحيق غسـيل للمـنزل، فلم أفقد خفة يدى، وكنت ماهرة دوما، وكان ُتجارُ الحى سُذَجْ، فلـم يكونـوا على حذر منى. مرة واحدة فحسب، تعرضتُ لمشكلة، لم أدرك على التـو مـاذا حدث، ولكن تَرَكَ هذا الأمر لدىَّ انطباعا غريباً كما لو كان هناك سراً أو مَعْنـاً سرياً لم أتوصل إلى فهمه: كانت هناك بائعة من بائعات المتجر الصغير، شابة عظمية الهيكل، شعرها مُصفرٌ، عندما مررت من أمامــها نظـرت إلى بإمعـان، وظننتُ أنها رأتنى وباغتتنى وأنـا أهـم بسـرقة طفـاءة تبـغ، فأخرجتـها مـن جيبى حتى أدفع ثمنها، ولكنها قالت وببطئ شديد مركـزة علـى كـل كلمـة: "إذا، أانت الجديدة ؟ "، فتمتمت: " الجديـدة مـاذا؟ "، فـأمعنتْ النظـر فـىَّ بعينيها الشاحبتين الباردتين، وقـالت: "نعـم، نعـم أيـها القلـب الجميـل"، ووضَعَتْ كل شئ فى الحقيبــة ومدتـها إلى دون أن تـأخذ منـى نقـود، ففـررت مهرولة لئلا تناديني.

وفى بعض الأحيان، كنـت أهتـف إلى حوريـة بعـد الظـهر، وحتـى تمرر لها الآنسة ماير المكالمة التليفونية، كنت أقول لها أننى أهتف من مكان بعيد، مـن إنجلـترا أو أمريكـا، فكـانت تقـول " أحقـا؟ " بصوتـها المزمـارى المنخفض؛ وبعد لحظة كنت أسمع صـوت حوريـة الخفيـض الأجـش، وكـانت تحدثنى بالعربية وأجيبها بالفرنسية.

– أين أنت؟

– فى باريس وليس فى أمريكا.

– متى ستعودين؟

– لا أعرف، أسمعى: أننى منهمكة فى عملى.

– أواه.

– بلى، أوُكد لكِ ليس لدى مطلقاً الوقت، ثم أننى بعيدة فى الطرف الآخر من المدينة.

– أواه، أواه.

– لماذا تقولين أواه، أواه، ألا تصدقيننى، اسمعى سوف آتى كى أراك متى استطعت أن أفَرّغ نفسى، أليس لديك حاجة إلى شئ؟ هل مازال لديك نقود؟

– حسنا، مازال هناك القليل.

– يجب أن أتركك الآن، سوف أحدثك ثانية.

– لماذا تكذبين على ؟ لن تأتى حتى موتى.

– اسمعى أنا لا أكذب عليك، لن أستطيع أن آتى الآن. سوف أحدثك ثانية.

– حسناً.

– إلى اللقاء.

كُنتُ فى خزى من نفسى، فلقد كانت نصف ساعة فى المترو تكفى كى أكون هناك مع حورية، ولكن لم يكن هناك من سبب سوى أن فكرة

الدخول إلى شارع جان بوتن كانت تجعلنى أتقياً، فلقد كان ذلك بمثابة حائطاً يفصلنى عن هذا المكان.

جاء نونو إلىَّ ذات صباح، لا أعرف كيف عرف المكان، أظنه قد انتزع الإجابه من أنف مارى هيلين، رغم أنها كانت قد حذرتنى منه، أو يكون على الأرجح قد استفهم عن المكان من المستشفى، فعندما كنت ماضية لقضاء المشتريات، وجدته. على الأرجح أنه أنتظر لوقت طويل بزاوية باب مرتدياً قميصه الجلدى فحسب فى برد الخريف، فكان ينخر، وكان مزكوماً، وبدت عليه السعادة حين رآنى، ولم يكن بوسعى أن أصرفه، فلقد كان خائفاً. قال: " لقد تغيرتِ"

– أحقا ؟ إلى الأفضل؟

فضحك وقال: "يبدو عليك الآن أنك امرأة ".

كان ذلك بسبب الملابس التى كانت السيدة فروماجا قد ابتاعتها لى: بنطالاً لونه أسود، وقميصاً من الصوف على هيئة حرف فيه[17]، ووشاح أحمر طوقت به رقبتى.

أظن أننى كنت فى هلع من مقابلة أحد من حياتى الأُخرى، ولكننى كنتُ مندهشة لأننى فى الواقع كنت فرحة بلقاء نونو.

---

(17) وهو ما نقول عنه فى اللهجة المصرية وبعض اللهجات العربية على هيئة رقم 7.

(المترجم)

اصطحبنى أثناءَ إجرائــى للمشـتريات، وكـان يحمـلُ العلـبَ، فلقـد كانت مناكبــه عريضـة ورقبتــه سميكـة، وكـان وجهــه وجـه طفـولى، وكنـت مندهشة من حجمى أمامه، فكان يبدو لى أكثر قصراً منى. رآه التجـار لطيفـاً، فكانوا يمزحون معه، وكان هناك من قال لى: "أهو أخ لك؟". وللمرة الأولى منذ عدة أسابيع، كنت أمزح، وكأننى أخرج من حلم.

قال لى نونو بعض الأخبار عن شارع جـان بوتـن: الآنسـة مـاير فـى متاعب، فلقد دخلت الشرطة إلى منزلها، فلأنها لم تصرح بكل سكان الكـوخ، هددتها الشرطة بدفع غرامة، وقـال نونـو: "كـانت العجـوز الشـمطاء تبكـى وتقول: إن ذلك ليس خطئى، هؤلاء السود يشبه بعضهم البعض الآخـر، فأنـا لا أعرفهم" وقلت له: "وخالتى".

كنت ألقب حوريــة كذلـك، وكـانت لا تقـول شيئاً، كـانت تـوارب غرفتها وتغلقها على الفور، فلقـد كـانت تخشـى الشـرطة، وتظـن أنـه سيتم القبض عليها وإرسالها إلى زوجها، بيد أن العسكر كان همــهم الأفارقـة، أمـا نونو فقد هرب من السقف، ولهذا السبب جاءَ إلى هنا. قلت لنونو:

"وأين تقيم الآن؟ "

فالتفت نحو المدينة الأخرى، كمـا لـو كـان مـن المكـن رؤيتـها مـن المكان الذى كنا فيــه، وقـال: "أعـارنى صديـق مبيـت سـيارات، وهنـاك أنـام فيه..."

– "وأين يكون ذلك؟"

فتأمل، وقال: "إنه أسم غريب، يسمى شارع جافلو"، ثم اظهر لى طرف ورقة حيث كان مدوناً على عجل: "28 شارع جافلو"، فاعتقدت أن ذلك اسم محارب كاميرونى. وقال نونو: "في الليل، تمضى الأمور على ما يرام، أما في النهار فالأمر محزن جداً، فأذهب لأتدرب فى المعهد الرياضى، لأنى سوف أشارك فى بطولة الشهر المقبل، ويقول مدربى أنه سيكون بوسعى أن أمتهن لعبة الملاكمة، وسيعطينى كل الأوراق اللازمة للإقامة".

عندما عدنا إلى المنزل رقم "8"، أدخلت نونو حتى يحتسى القهوة، فكان معجباً بهيئة المنزل، وكان يسير برفق كما لو كان يخشى أن يقرقع أرضية البيت؛ عبرنا الصالون حتى المطبخ الضخم الأبيض، وكانت دهشته تسرنى، فلقد عرفت منذ وقت طويل بيوت الأثرياء، فبعد فيلا السيدة دلاهاى، لم يبدو أى شئ خارقاً، أما نونو فقد كان كالطفل أمام اللعب الجديدة، فكان يتفحص ماكينة القهوة الكهربائية، وحماصة الخبز، ويشدُ الأدراج التى تسير على كرات، وكان يدور السلال الغير قابلة للصدأ، ويقول: "حقا هنا الثراءُ ".

- "أبحق يعجبك ذلك؟"

فضحك ضحكته البراقة، وقال: "هذا أفضل من مبيت السيارات الذى أقيم فيه"

وضعت زراعى حول رقبته، وقلت له: "إذا ما غدوت ملاكماً شهيراً سيمكنك أن تشترى منزلاً مثله فتأمل وقال: "إذا ما حدث ذلك، سوف أتزوجك أنت".

كان يبدو عليه الجد إلى حد أننى انطلقت فـى الضحـك، وقلـت لـه: "توقف عن خداعك، عندما تصير ملاكماً شـهيراً، سـتفكر فـى أن تـتزوج مـن عروسٍ جميلة شقراءٍ"، فنظر إلىَّ فى عتاب، وقال: "لماذا تقولين ذلـك، سـوف أتزوج منك أنت".

اعتاد نونو أن يأتى كل صباح تقريباً عدا أيام عطلة نهاية الأسـبوع، ذلك أن السيدة فروماجا كـانت تبقـى فـى المنزل، وكـان يسـاعدنى فـى حمـل المشتريات وكنت أُعد له وجبة إفطار بالبيض ومزُبدات محمصة وأكواب كبيرة من الحليب الساخن.

لم تكن السيدة فروماجا تقول شئ، ولكن على الأرجح أن شـخصاً مـا قال لها ذات يوم عن شئ ما، ذلك أن وجـهـها تبدلَ وأصبحت عنيفـة وشـريرة معى، فكانت تزجرنى إذا ما قلت لها نعم أو لا، وكـانت تعـود فجـأةً فيبـدو عليها الغضب كما لو كانت قد نسيت شئ، حزمة مفاتيح أو ملف أو أى شـئ؛ ولكنها كانت تفعل ذلك حتى تعرف إن كنت مع نونـو فـى المنزل، فـأدركتُ ذلك الأمـر علـى الفـور، وقلـت لنونـو ألا يـأتى إلى المنزل وأن ينتظرنـى فـى الشارع، فسخر منى قائلاً: "إن سيدتك غيورة".

ضايقنى ذلك الأمر، بالرغم من أنه أصبح كذلك، وكان لدى إحساس أن شيئاً ما يتمُ تدبيَره، ولم أكن أعرف ما هو. وفى غضون هذه الفترة، سلمتنى السيدة فروماجا خطاباً غامضاً. كان مدوناً فى أعلاه: "الشرطة القومية. مكتب شرطة الدائرة السادسة عشرة"، وكان ذلك استدعاء لى بغرض

تسوية حالتى، وكانت السيدة فرومجا تعرف ذلك الأمر، فدبرت كل شئ، إذ كانت صديقة لمدير مكتب الشرطة، فقدمت شهادات الإقامة وإقرارات على الشرف، وكان كل شئ مُعد. تظاهرت بأنها تحاولُ أن تُدركَ الأمر، فقالت: "أظن أنهم سيقبلون طلب تسوية حالتك، ثم سيكون بإمكانك الحصول على الجنسية"، فكنت كالمصعوقة، ولم أقدر على قول: "ولكننى لم أطلب شئ"، ثم تذكرتُ زُهرة وزوجها وشقتهم، حيث كانوا يسجنوننى على مدار أشهر، ودوار تبريكة، والفئران التى كانت تعدو على السقف وتحدثُ صوتاً بمخالبها على الصفيح، فقلت شكرا" لسيدتى، فعانقتنى.

عندما عدت من مكتب الشرطة، بشرتى محمرة، بداية بسبب الطقس الذى كان حاراً، ولأن المُستخدم فى مكتب الشرطة كان ملاطفا كثيراً تجاهى، فاستوجب الأمر أن أقص عليها كل شئ، الأوراق التى وقعتها والبصمات الإصبعية، والإملاء[18] وقصة اسمى الذى كان قد أختارهُ لى المستخدم: ليز هنريت، فلقد رأى أن ذلك الاسم يناسبنى. ضحكت السيدة فروماجا وضربت يديها، وكانت متحمسة وكأن كل ذلك كان لها هى. وبالطبع، لم أقص عليها حكاية المُستخدم الذى مال إلىَّ، واضعاً يده فوق عنقى، ثم سألنى برفق: "كيف نقول كلمة أحبُكِ بالعربية؟"، فأجبته "كفى..[19]"، وهى أغلظ كلمة كنت

(18) من بين شروط الحصول على الجنسية الفرنسية إجادة الإملاء. (المترجم)

(19) الكلمة التى وردت فى النص الفرنسى هى saafi وهى كلمة دارجة تُستخدم فى العربية المغربية (صافى) لحث المحاور على التوقف عن حديثه. (المترجم)

أعرفها، لأنها كانت الكلمة التى تصيح بها حورية فى وجه الرجال الذين كانوا يضايقونها فى تبريكة. ولم أقص عليها ذلك لأنه لم يكن بوسعها أن تدرك ما أقول، وكانت لن تدرك كم كان الأمر سيان بالنسبة لى، فلقد حدث فى وقت متأخر للغاية، وأنه ما كان لى أن أمنح هذه الأوراق، بل كانت هذه الأوراق ينبغى أن تُعطى لحورية.

رقت السيدة قليلاً وقالت لى: "لا ترحلى ؟ قولى لى أنك لن تتركينى أقع على الأرض"، كانت تتحدث كحورية وتغادير، الناس كلهم متشابهون.

كان من الممكن أن أمكثُ معها كثيراً، وكان من الممكن أن أبقى معها حتى هذه اللحظة، لو لم يحدث ما حدث تلك الليلة، وأعتقد أنه حتى لو أننى لم أصير فى هذا الوضع الجديد، وحتى لو لم يحدث هذا الشئ، كنت سأمضى أيضا الليل معها. وجدت صعوبة فى فهم كيف تم ذلك الأمر؛ وبعد العشاء تحدثنا سوياً. منذ وقت قليل وأنا أشعل معها السجائر الأمريكية ونحن نتحدث؛ كنا نشاهد قليلاً التلفاز بطرف أعيننا دون أن نوليه اهتماماً حقيقياً، وكان الطقس لايزال حاراً، كان ذلك فى نهاية سبتمبر، وكانت نوافذُ المنزل منفرجة على أشدها، وكان هناك قليلُ من المطر يتساقط على أوراق الأشجار، وكان كل شئ هادئا فى شارع مريونيه، ولم يكن يتصور إنسان أن أشياء مخيفة تحدث فى مدينة كبيرة جداً مثل هذه.

أعدت السيدة فروماجا كوب شايها المسائى، واضعة فيه أوراق وزهور بمذاق القلفل والقانليا المُنفرة قليلاً، واستلقيت على الأريكة، وكان

لدى إحساس بأننى أتموج، كلا لم أكن نائمة، ولكننى شعرت بجسدى خفيف جداً، ولم يكن بوسعى أن أحرك ذراعى ولا ساقى، وكان يبدو لى أن وجه السيدة دانٍ منى، براقاً كالنجم، وضحكتها غريبة، وكانت عينيها السوداويين المتدتين تشبهان عين قطة؛ كانت تتحدث وتكرر بعذوبة: "يا طفلتى الصغيرة !، يا طفلتى الصغيرة!" كما لو كانت تمؤ. أحسست بيدها الجافة والحارة تتدحرج على جلدى من خلال قميصى المفتوح، وأخذت تعبث فى أزرة ثديى، فكان قلبى يدق ويتحطم، وكنت أنصتُ إلى صوتها الذى كان يخرخر قائلا: "يا طفلتى الصغيرة!"، وأردت أن تتوقف وأن تصمت وأن تختفى، أردت أن أعود إلى مكان لا يكون فيه أحد، كنت أبغى دار المقابر التى كنت أذهب إليها أمام البحر، عندما كانت الشمس تبرق فى النصب التذكارى، فى العشب، النصب التذكارية التى لاتحمل اسماً، والعصافير المعلقة فى الريح بأجنحتها الحادة المشابهة للمناجل الكبيرة.

عندما استيقظت فى الصباح، كان فمى جافاً وكنت أشعر بألم فى وجهى، ولم أتذكر جيداً ما حدث، فلقد نمت على أريكة الصالون وتدثرتُ بقميص حمام السيدة المصنوع من الحرير اليابانى وما أزعجنى بداية، هو رائحة الجلد الروسى التى كانت تصدعُ رأسى، فجلت هنا وهناك عبر المنزل الخالى مصطدمةً بالأثاث، ولم أكن أعرف عما أبحث، فلم يكن بوسعى أن أفكر فى شئ. أعددت الماء الساخن لقهوتى، ثم دخلت الشمس إلى المطبخ، وفى

الخارج كان الجو رائعاً، فالكرمة الخالية من الثمر أخذت تصهب من خلال إطار النافذة، وكانت هناك مجموعة مؤلفة من عصافير الدورى تعقعق.

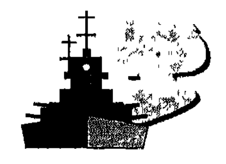
وفجأة، وبينما كنت أحتسى قهوتى، أصبح كل شئ واضحاً أمامى: ينبغى علىَّ أن أرحل عن هذا المكان، وكنت أشعر بقلبى يدق بشدة، وكان ألم جبهتى يشتد، وعدت للخلف فقلبت مقاعد، وكنت أردد: "العجوز الشمطاء ! العجوز الشمطاء ! " مثلما كانت تقول مارى هيلين عندما كانت تتحدث عن الآنسة ماير.

الآن أتذكر ما كانت تقصه علىَّ لالا أسماء، فلقد كانت تقول: لاتشربى من شاى شخص لا تعرفيه لأنك بهذا تشربين شيئا لاتريديه"، وكانت تحدثنى عن رجل كان يدعو الفتيات لاحتساء القهوة ويجعلهن تشربن دواء حيوانات، وعندما كن ينمن، كان يحملهن لديه ويغتصبهن ويقطع رقابهن.

وتذكرت الشاى الذى كانت السيدة تعده لى وعينيها السوداوين اللتين كانتا تبرقان بينما كنت أترنح برأسى. بالأمس، على الأرجح، أنها أكثرت من دواء الروهيبنول ففقدتُ الذاكرة، كنت أمقتها، فلقد خدعتنى، ولم تكن صديقتى، بل كانت شخصاً ما كالآخرين، مثل زُهرة والسيد دلاهاى ومثل المُستخدم فى مكتب الشرطة، فكنتُ أبغضها، وكان من المفترض أن أقتلها، " الغبية، الغبية العجوز".

ارتديت ملابسى، الجينز والقميص الصوفى الذى جئت به، ثم ألقيت بلا تريث كل ما ابتاعته لى السيدة فروماجا: السلسلة الذهبية الصغيرة مع الشارة التى حُفر فيها اسمى، وألقيتها فى المرحاض وجذبت طرادة الماء، ولكن نفير المياه لم يفلح فى ابتلاعها، ثم بحثت عما يجب أن أفعله كى أنتقم لنفسى، ولم أرد أن أسرقَ شئ، لم أرد أن أخذ أى شئ من عندها، وأردت فحسب أن أمحوها من ذاكرتى، هى وزرائعها. ذهبت إلى مكتبها، وشرعت فى إلقاء كل كتبها على الأرض، وكنت أخذ الكتاب من على المكتبة، وأنظر فى العنوان، ثم ألقيه فى وسط الغرفة، ثم أصابنى جنون، فمضيت فى تطيير الكتب تدريجياً بسرعة، فأحدث ذلك ضوضاء شديدة، ضوضاء أوراق تتمزق، وكانت الكتب تصطدم بالحوائط. فعلت نفس الشئ فى صورها وفى خطاباتها وفى أوراقها، وأظن أننى كنت أتلفظ بكلمات فى ذات الوقت، كنت أصرخ وأسبها بالعربية، وبالفرنسية وبكل ما أعرف، فجعلنى ذلك على ما يرام.

عندما فرغت من هذا الأمر، أصبح مكتب وصالون السيدة يشبهان حقلاً بعد إعصار، وحينئذ أخذت حقيبتى ومذياعى القديم ورحلت.



28 شارع جافلو

كان شارع جافلو بمثابة المكان الأكثر غرابة في مدينة باريس؛ ففى البداية لم أصدق أنه موجود؛ وعندما جاء نونو يستقل دراجته النارية ليبحث عنى (أو بالأحرى بالدراجة التى استعارها) ثم دخلنا تحت الأرض، ظننت أنه يأخذ طريقاً مختصراً وأننا نعبر نفق، ولكن الشارع كان مستديراً تحت الأرض فى رواق مبنى بالخرسان، تقع على جانبيه أبواب مبيت السيارات، وكان صوت الدراجة يدق كالجحيم؛ وكانت هناك سيارات تسير فيه مشعلة فوانيسها مستخدمة منبهاتها. وبسبب ما حدث، كنت منهكة، فالتصقت فى قميص نونو، وانتابنى إحساس بأننى مشردة، فلم أعد أعرف إلى أين أذهب وماذا سيحدث لى، و أظن أن دواء الروهيبنول لم ينتهى تأثيره بعد حتى هذه اللحظة.

بعد ذلك، هويت طريحة الفراش؛ وكانت شقة نونو الكائنــة أسفل الأرض صغيرة، ولم يكن بها ضوء على الإطلاق، اللهم إلا شعاع يمر من خلال جُب فيصل حتى المطبخ؛ وفى الواقع لم تكن بشقة، إنما كان مبيتــاً للسيارات أو قبواً تم تهيئة مرحاض فيه لكل الـدور تحـت الأرضـى وكذلـك مطبـخ. أما بقية المساحة، فكانت موزعة إلى خلايا مــن الأسمنـت بـها أبـواب ثقيلـة مـن الحديد المخطـط بـالخدش وأسـقف مـن القُبـب، ولكـن ذلـك كـان شيئاً حسـناً بالنسبة لنا، لأننا لم نكن نستمع إلى الضوضاء، إلا صوت شبكة المجـارى مـن آن إلى آخر، أو صوت مراوح التهوية. لم أكن أدرك ماذا ألم بى، فظللت راقـدة طول الوقت تقريبا على الفراش الذى وضعه نونو فى غرفته من أجلى وحدى؛ أما هو فكان ينام فى الصالة. كـان ذلـك بـالأحرى مبيتـاً للسـيارات، أرضيتـه الأسمنتية مطلية بلون رمادى، وعليه باب كبير بمصراعين. فضلاً على ذلــك، كان يــودع فيــه دراجتــه، وكـان ينـام علـى الأرض علـى فـراش مـن الكرتـون الورقى.كان نونو عطوفاً، فلقد أعطانى غرفته، وكان يأسف لرؤيتى فى حالتى هذه جامدة على الفراش؛ وكنت أشعل الغليون، ثم أسعل. كنت خائرة القوة، ولم أكن أقـدر حتـى علـى تحريـك ذراعـى أو علـى أن أديـر رأسـى؛ و لم أعـد أتناول الطعام، فلم أكن أشعر بالجوع علـى الإطـلاق. فـى بعـض الأحيـان كـان الرضـب يمـلأ فمـى، فكـان علـىَّ أن أميـل إلى جـانبى حتـى أبصـق، ولم تكـن الدورة الشهرية قد أتتنى بعد، ولقد حدث كل ذلك وكأن كل شـئ توقـف فـى داخلى.

كان نونو يقول إن ذلك قدرٌ، كان يبدو عليه أنه يدرك أمرى، قال لى ما يجب فعله: إلقاء الملح فى النار، وضع ريش أو قذاة، رسم علامات على الأرض، النفخ فى الدخان؛ فكنت أستجيب لكلامه، وأصدق أى كلام يقوله وأى ضحكة يطلقها، فلقد كان هو الشخص الوحيد الذى يربطنى بالعالم. عندما كان يعود من التدريب، كان يشتم الشارع، العرق وغاز الدراجات، فكنت أمسك بيده، يده المربعة بأناملها القاسية وجلد كلية يده الناعم كالأُكرة المستنفذة وأقول له: "قص علىَّ كل ما رأيته بالخارج، وكل ما يحدث فى الشوارع"، فكان يقول لى أنه رأى حادثة، أو أن شاحنة اصطدمت بسيارة بالية فاقتلعت جناحها، وكان يقص أنه رأى اسكوتلنديين يعزفون مزمار القربة، وأنه رأى مارى هيلين، وكان يأتينى بأخبار عن شارع جان بوتن، وكنت أساله: "وخالتى حورية؟"، فكان يهز رأسه ويقول: "لم أراها، ولكن يبدو أن السيدة فرو..." و لم يكن يقدر على ذكر الاسم، فلقد كان ذلك يضحكه، ويستطرد: "ربة عملك، يبدو أنها تبحث عنك، إنها تحنق عليك حتى الموت، إنها هى العجوز الشمطاء التى ألقت اللعنة عليك، سوف أقتلها". لم يقل نونو لأى شخص حتى لمارى هيلين أننى أقيم لديه. ولو أن السيدة كانت قد عثرت علىّ لألقتنى من باب فرنسا وكأنى مجرمة، رغم أننى لم أسرق منها أى شئ، بل هى التى سلبتنى شيئاً ما وكذبت علىَّ.

كانت تأتينى كوابيس فى نومى، ولا أعلم إن كانت تأتى فى الليل أو فى النهار، فكنت أرى أننى فى بطن حيوان كبير يهضمنى ببطئ، وذات

يوم، صحت وجاء نونو، فداعب طالعى، وكان يحدثنى برقة كأنه يحدث طفلة، وعندما أراد أن يعود إلى كراتينه، مسكته وضممته إلى بقدر ما استطعت، فشعرت بعضلات ظهره كأنها أحبال، اتجه إلىّ وأطفأ المصباح، وكنت أطوق كل جسده، وكان يرتعش ولم أعرف لماذا، فبدا لى ذلك الأمر غريباً، فهو يرتعش ولست أنا التى ينتابها خوف، ولم نفعل شيئا هذه المرة، رقدت فقط وجهى إلى وجهه؛ و لم يكن نونو يتحرك، فلقد طوقنى بذراعه وراح يتنفس في رقبتي. وذات مساء، ضاجعنى برفق، ثم اعتذر لى وقال: "هل آلمتك؟ "، وكانت هذه هى المرة الأولى بالنسبة لى، ومع ذلك لم يدهشنى ذلك الأمر، فلقد كان لدى إحساس بأننى أعرف ذلك منذ وقت طويل جداً.

ثم مضى كل شئ يتحسن قليلاً فى حياتى، فأخذت فى التحرك من فراشى، وذهبت إلى للمطبخ، ثم سألت نونو ساعة الإفطار: "هل الطقس جيد؟" فرد: "انتظرى سوف أذهب كى أرى "، ثم دفع المنضدة الصغيرة، وفتح كوة الباب، وتمكن ثانياً جسده من إخراج نصفه حتى الجُب الذى كان يجلب شعاع الضوء، ثم عاد والعرق على قميصه وقال: "السماء كلها زرقاء "، وأراد أن أصعد معه فوق دراجته كي نمضي لنقوم بجولة.

عندما عاودت الخروج إلى الشارع للمرة الأولى، صعدت السلم الواقع بجوار باب مبيت السيارات، ثم المصعد الكهربائى وصعدت حتى أعلى المبنى. كان ذلك فى الصباح، فلقد مضى نونو إلى صالة التدريب، وكان كل شئ ساكناً، اللهم إلا الهزة فى كل طابق من المبنى، وصعدت عالياً حتى الطابق الرابع

عشر؛ كان هناك مكاتب و شركات تأمين و محامون وشركات سفن، أو شئ من هذا القبيل؛ دخلت إلى المكاتب، ودون أن أتوقف، سرت حتى الزجاج الكبير، فرأت الكاتبات هذه الفتاة السوداء فى كومة شعرها وفى بنطالها الجينز البالى ونظراتها المصوبة إليهن، فانتابهن خوف شديد، وأظن أنه للمرة الأولى أدركت أنه بوسعى أن أخيف إنساناً .

اتكأت إلى الزجاج ونظرت؛ ولمدة لحظة، ظللت متجمدة من الدوار الذى انتابنى، فلم أكن قد رأيت فى حياتى قط مدينة أعلى من هذه المدينة: فلقد كانت هناك أسقف ومبانى وشوارع عريضة لايدركها البصر، وميادين وحدائق، وأبعد من ذلك التلال، وحتى تعرج النهر الذى يتلألأ فى الشمس؛ كان ذلك مشابه لأعلى الشلال فى دار المقابر أمام البحر مع طيور النورس التى تحلق فى واجهة السماء. كان هناك دخان وهياكل سيارات تتلألأ صغيرة كالجعران. أحدثت فىّ الضوضاء دواراً، دوى صامت ومستمر يصعد كل شئ فى آن واحد تخترقه أجراس تنبيه سيارات وصفارات إنذار الشرطة وعواء الإسعاف. كانت يدى موضوعة على الزجاج السميك، ولم أستطع أن أبعد نظرى عما أراه. كانت السماء تعبرها سحابة كبيرة سوداء، وكانت هناك أشعة الشمس فى جانب وقطرات المطر فى جانب آخر، وأقسم لكم أننى لم أر منظراً أبدع من ذلك.

سمعت صوتاً خلفى، صوت آن قليلاً، فكانت هناك امرأة تقول لى برقة: "آنستى، آنستى، ألا تشعرين أنك على ما يرام ؟"، ولكننى لم أفهمها

على الفور، التفتُ، ونظرتُ إليها ضاحكة، وكانت هناك دموع في عيني لأنني أحسست أنني سعيدة فجأة، وقلت لها: "كلا تمضي الأمور بخير، تمضي الأمور بشكل حسن للغاية، أنا، أنا أردت أن أستمتع بالمنظر"، ولم تسكن من روعها ابتسامتي، على ما أظن، ذلك أنها تباعدت. كانت شابة، شاحبة، شعرها طويل أشقر، وعيناها خضراوين. كان بصحبتها نساء أخريات، إحداهن بدينة قليلاً وأخرى تشبه السيدة فروماجا، ومن المحتمل أنهن قد استدعوا الأمن لأنني عندما خرجت من المكتب نحو المصعد الكهربائي، فتحت الأبواب المعدنية، فخرج رجل يتفحصني بتمعن، كان يرتدي زياً أزرق اللون، ويحمل أصفاداً على زناره، ثم دخلت المصعد وأغلق بابه. كنت متعبة، ثملة قليلاً، وعندما بلغت مبيت السيارات في الطابق تحت الأرضي، تمددت على الفراش، ونمت قسطاً كبيراً من النهار، حتى أن نونو، عندما عاد من صالة الملاكمة، لم يوقظني. نظر إليّ وأنا نائمة، جلس وظهره متكأ إلى الحائط دون أن يحدث ضوضاء كما لو كان أخي الأكبر.

بعد ذلك، عاودت الخروج، ولم أنتبه إلى أنني كنت سجينة طوال هذا الوقت. في الخارج، كانت السماء شاحبة وكانت الشمس تدلف أسفل الغيوم، وكان الطقس بارداً حتى الأشجار على حافة نهر السين تغيرت، فأوراقها الصفراء كانت تسقط مع الريح.

فكرت في حورية، و ما إن تمكنت مـن السير، ذهبـت سيراً علـى الأقدام فى اتجاه جار دى ليون[1]، وكنت أشعر بالبرد، فأعارنى نونو قميصه الجلدى العريض كثيراً من على المنكبين، وكنت أحـب كثـيراً هـذا القميـص، فكنت أشتم فيه رائحة نونو، وكان بالياً من على الأكواع، وكان لدى إحســاس أنـه يحمينى كنوع من الآلات الواقية.

كان شارع جان بوتن على حالته المعهودة عنه دوما، حتـى أنـه كـان يخيل لى أننى رحلت عنه بالأمس فقـط: الفنـادق البائسـة، أكيـاس القمامـة، العصابات، وفى نهاية الشارع، قبل الطريــق المسـدود، يقـع بـاب المبنـى فـى حديده الأسود وزجاجه القذر. طرقت الباب، ثـم جـاء رجـلُ أسـودُ لا أعرفـه ليفتح لى الباب، كـان قصـيراً ونحيفـاً، بـه لحيـة صغـيرة، و نظـر إلىّ دون أن يقول شيئاً، ثم أتجـه نحو المطبخ حيث كان يغسل الأوانى. كانت مارى هيلين تحتفظ برجال فى خدمتها، وكان باب الآنسة مـاير مواربـاً والضـوء مشـعلاً، فعبرت الممر دون أن أحدث صوت وطرقت باب الغرفة.

عندما جاءت حورية نحوى، وجدت صعوبـة فـى التعـرف عليـها، فأصبحت بدينة جداً، وكان هناك ازرقاق دائرى أسفل عينيها، ولكن طالعـها توهج لرؤيتى، وقالت لى: " كنت أنتظرك، رأيـت فـى نومـى أنـك سـتعودين اليوم"، كان ذلك هو ما ترده دوما، فقلت لـها: "أترين، ها أنا أتيت إليـك".

---

(1) من كبرى محطات القطار فى باريس. (المترجم)

لم تسألنى عن شئ، ماذا فعلت، وأين ذهبت، فربما بالنسبة لها، هى المُرَوعة فى أعماق هذه الشقة، الوقت لم يكن يمر بها بسرعة، وقالت: "كنت أتألم كل يوم، وأقول لنفسى كل يوم: هل ستأتى اليوم، هل ستهتف لى؟"

فى خلال بضعة دقائق، جمعت كل الأشياء، وضعت الغسيل فى الأكياس، الأدوية، علب الخرطال، وكل شئ؛ وكانت حورية متوجسة كثيراً من الخروج لأنها منذ شهور لم تُسدد الإيجار؛ أما أنا، فلم أعد أخشى الآنسة ماير، ولا أى إنسان. حينما خرجت، قرعت الباب بشدة حتى أن قطعة جبص من السقف هوت فى السلالم، و كنتُ سعيدةً، وانتابنى إحساس أن حياة جديدة فى طريقها للبدء. وضعت يدى على بطن حورية وقلت لها: "أيتحرك جنينك؟"، فمشت ببطئ متذمرة: "نعم إنه لايتوقف، إنه شيطان صغير".

فى الأيام الأولى بشارع جافلو، كان الأمر بالنسبة لى بمثابة عيد، فلقد كنت سعيدة للغاية للعثور على حورية التى لم أعد أتركها. أحضر نونو آلة صوتية كبيرة وكل مايلزم وتلفاز ملون له شاشة كبيرة، وعندما سألته أين وجد كل ذلك، تحاشى السؤال بضحكته، ثم ملئت الموسيقى حوائط مبيت السيارات. ثم دعا أصدقاء أفارقة، وأخذنا نرقص على صوت الشرائط، على إيقاع الموسيقى الأفريقية، الراى والرجاج والروك، ثم أخرج أصدقائه طبولهم المعروفة باسم دجون – دجون وشرعوا فى دقها، وكانت هناك أيضا آلة موسيقية غريبة، السانزا التى حملها حكيم، رفيق نونو، فى خُرج، وكانت

على هيئة قيثارة منمنمة تحدث صوتاً متدحرجا عذبا يبدو وكأنه يأتي من كل الاتجاهات في ذات الوقت.

شربنا الكوكا مع عرق قصب السكر والفودكا والبيرة، وكانت حورية تشعل سيجارة من سيجارة وهي تجلس على الأريكة في وضع إنسان متعب، ثم حاولت أن ترقص كما تعرف وهي تقرع الأرض بأخمص قدميها، متواركة، لكن بطنها المكتنز وثديها المنتفخ كانا يمنعاها؛ وللمرة الأولى منذ وصولها إلى هذا المكان، كانت تضحك، فلقد نسيت كل شئ، شارع جان بوتن والعجوز الشمطاء. كانت الموسيقى تصعد من الأرض، وتهز كل حوائط المبنى، وتدق في أعلى واحد وثلاثين طابقا، حتى الشوارع المجاورة، شارع شاتو دى رانتيه، تولبياك، جان دارك، حتى مستشفى السالبترييير وجار دى ليون. كانت الموسيقى تضع لوناً رملياً أحمر على الجدار من أرض أفريقيا، وكان حكيم يعزف، جالساً في ثوبه، مائلاً إلى السانزا، والعرق يتصبب على وجنتيه ولحيته الصغيرة، فكان يبدو عليه أنه ساحر. أما نونو، فكان عارياً تقريباً، لامعاً من العرق، وكان يقرع بأطراف أصابعه على الطبول، وحورية كانت تقرقع بأخمص أقدامها العارية على الأسمنت مع دقات أسورتها النحاسية.

كان المصعد الكهربائي معطلا، فأمسكت بحورية على السلالم إلى أعلى المبنى حتى الباب الذى يؤدى إلى الأسقف عن طريق سلم الإطفاء الصغير، وكان نونو قد كسر القفل. كان الليل قد جاء، ولكن، في باريس

لايخيم الليل تماماً، فلقد كان هناك ضوء أحمر يشبه الفقاعة فوق المدينة؛ ثم جاء حكيم ونونو يلحقون بنا، وجلسنا على حصى السقف بالقرب من منافذ التهوية، وأخذ نونو يدق الطبل، بينما كان حكيم يعزف على آلة السنازا. كنا نغنى ونقول: آه، اوه، اهو، اهيه، اهيه، ياوه، يا.. فقط، وبعذوبة شديدة، فلقد كنا فى مقتبل العمر، ولم يكن لدينا نقود، ولم يكن لدينا مستقبل، وكنا نشعل الغليون باستمرار؛ ومع ذلك فكل هذا، السقف، السماء الحمراء، نخير المدينة، الحشيش، وكل ذلك، وهى أشياء لم تكن ملكا لأحد، لكنها كانت فى حوزتنا.

ثم كنا نفعل هكذا كل مساء، فلقد كان ذلك بمثابة دار عرضنا المرئية. وفى النهار، كنا نظل مختبئين تحت الأرض كالصراصير، وفى الليل، نخرج من جحورنا، ونذهب في كل مكان، فى ممرات المترو، فى محطة تولبياك، أو أبعد من ذلك، حتى محطة اوستيرليتز. كان حكيم، رفيق نونو، يبيع بضائع من أفريقيا السوداء: حلى، وعقود وأدوات زينة، وكان يسخر من ذلك الأمر، فكان يقوم به ليسدد مصاريف دراسته فى الكلية فى جامعة باريس السابعة، وكان يقيم فى المدينة الجامعية بانطونى[2]. كان يحدثنى عن جده الحاج مافوبا الذى كان يعمل قناصاً فى الجيش الفرنسى، والذى شارك في الحرب ضد الألمان. وفي ممرات المترو، كل الطنطن يدق كل

(2) إحدى الضواحى الباريسية. (المترجم)

مساء فى محطة بلاس ديتالى، وفى محطة اوسترليتز، والباستى، واوتيل دى فيل، وكان ذلك يُحدث دوراناً فى الممرات، صاخباً حينا كهبوب عاصفة، وحينا آخر رقيقاً ومنتظماً كقلب يدق.

كنت أعرف كل الموسيقيين، فكنت أنتقل من محطة إلى أخرى، وأجلس متكئة إلى جدار ثم أنصت إليهم. وفى محطة اوسترليتز، كانت هناك مجموعة من الولفز[3]، وفى سان بول، كان هناك عازفون من مالى ومن الرأس الأخضر[4]، وفى محطة تولبياك، كان هناك الأنتيين والأفارقة؛ وكان كل هؤلاء يعرفوننى، فعندما كنت آتى إليهم، كانوا يشيرون لى، و يتوقفون عن العزف حتى يصافحونى بأيديهم، وكانوا يعتقدون أننى أفريقية أو أنتيية، وأننى صديقة نونو الصغيرة، وربما هو الذى كان يفخر بأن يقول لهم ذلك.

وفى هذه الفترة أخذت أخرج مع حكيم، فكنت أذهب كى ألقاه فى محطة تولبياك أو فى اوسترليتز، وكنا نسير فى الليل على غير هدى، فى الريح الباردة، فنذهب نحو النهر، وكان حكيم يتحدث عن نهر السنغال الكبير، و لم يكن قد رآه البتة، غير أن وَالده كان قد حكى له عندما كان حكيم طفلاً عن ماء النهر البطئ جداً، وقطارات الرمال التى تنزلق نحو البحر. أما جده الحاج، المكفوف، فكان يحدثه أحيانا عن النهر فى كلمات

(3) قبائل يتميز أفرادها بشدة سواد البشرة ويعيشون أساساً فى الشمال الغربى من السنغال، ويتحدثون لغة تسمى لغة الولوف. (المترجم)

(4) دولة أفريقية صغيرة تقع غرب السنغال، ولغتها هى البرتغالية. (المترجم)

دقيقة جداً وواقعية جداً وكأن الماء الوحل الأصفر يمر من أمام عينيه وبه زوارق محملة بالنساء والأطفال تحلق أمام مقدمتها طيور القُبّر[5]؛ وكنت أتحدث بدورى عن مصب نهر بو رجرج، كما لو كان ذلك مشابهاً للنهر الذى يحكى لى عنه، لأنه كان النهر الوحيد الذى أعرفه، وهو الذى رأيته لأول مرة عندما غادرت منزل لالا أسماء، وكنت أعبره كل يوم كى أعود لدوار تبريكة.

كنا نجلس فى المقاهى ونتحدث؛ كان حكيم طويلا ونحيفاً، أنيقاً دوما فى حلته السوداء؛ كان يقص علىّ أشياء غريبة. وذات يوم، حمل إلىّ كتاباً يبدو بالياً وطَالعَتهُ أعدادٌ من الأيادى المتسخة بالدهون، وكان عنوانه المعذبون فى الأرض، وكان مؤلفه يدعى فرانتز فانون[6]؛ وقدمه حكيم إلىّ وقال فى غموض: "طالعيه، ستدركين كثيراً من الأشياء"، و لم يرد أن يقول لى ما هى هذه الأشياء، ووضع الكتاب على منضدة المقهى أمامى، ثم قال: "عندما تتمين مطالعته، يمكنك إعطائه إلى شخص آخر"، فوضعت الكتاب فى حقيبتى دون أن أسعى لمعرفة المزيد منه.

---

(5) جمع قبرة، والتى تعرف أيضا بالقنبرة. (المترجم)

(6) فرانتز فانون Frantz Fanon كاتب مارتينيكى الأصل ولد عام 1925 وتوفى عام 1961، عُرفت كتاباته بنزعتها الثورية المناهضة لفكرة الاستعمار، ومن أهم مؤلفاته: "المعذبون فى الأرض" 1961 و "البشرة السوداء" 1952 و "أقنعة بيضاء" 1952 وكتابه "من أجل الثورة الإفريقية" الذى نُشر بعد مماته 1964 . (المترجم)

لم يكن حكيم يحب نونو، وكان يقول أنه كالعصفور، يحجل ويلهو ويتعطر، وهذا كل ما يمكنه عمله، ولم يكن يحترم حتى مهنة الملاكمة، وكان حكيم يقول أن نونو مختل عقلياً، حجر في يد الفرنجة أو لُعبة، وعندما يُكسر سوف يلقى به الفرنجة في سلة القمامة. كان حكيم يلقبه بالطُفيلي لأنه سمح لنفسه أن يقيم عن طريق صديق له، بغَضت حكيم، ذلك لأن نونو لايستحق أن يقال عنه السوء، وكان هناك شئ لم يرد حكيم أن يقوله لى، شئ ما في حياة نونو؛ ولمرات عديدة حاول أن يحذرني منه، فبداية قال لى: " أتعلمين ماذا يعني أن يكون المرء معتوهاً؟ "، فقلت له: "عندما يكون مجنوناً، أليس كذلك؟ "، فأطلق حكيم بسمته الساخرة الشهيرة قائلا: "إنه جواب ردئ ولكن ربما جوهره ينطبق عليه"، و لم يُرد أن يستمر في الحديث عن هذا الأمر.

ذات يوم من أيام الأحد، بينما كانت السماء تمطر، اصطحبني حكيم إلى بورت دوريه[7] حتى نشاهد متحف الفنون الأفريقية، وأظن أنني لم أذهب من ذى قبل إلى متحف.

وفي المتحف، كان حكيم منفعلاً، إلى درجة الهوس، ولم أكن قد شاهدته كذلك مطلقاً. مسك يدى وقال: "أنظرى إلى الأقنعة المزيفة"، وكان يتحدث بصوت خفيض قليلاً، ومختنق، ثم استطرد: " أنظرى يا ليلى، إنهم

---

(7) على أطراف مدينة باريس. (المترجم)

نسخوا وسرقوا كل شئ: سرقوا التماثيل والأقنعة، وسرقوا الأرواح وسجنوها هنا فى هذه الحوائط، كما لو أن كل ذلك لم يكن سوى أدوات زينة، ومجموعة أسلحة، كما لو كانت أشياء تُباع فى مترو تولبياك، ورسوم ساخرة، ومواد بديلة"، فلم أدرك جيداً ما كان يقول، وأحسست بيده التى كانت تطبق على يدى كما لو كان يخشى أن أفر منه، وقال: "انظرى إلى الأقنعة، يا ليلى، إنها تشبهنا، إنها سجينة وليس بوسعها أن تعبر عن نفسها، إنها منزوعة الإرادة، مع أنها فى ذات الوقت هى أصل كل ما يوجد فى العالم، إنها محفورة فى التاريخ عبر الزمن، كان لها وجود بينما كان سكان هذه البلاد يعيشون فى الجحور تحت الأرض، وجوههم مسودة من السناج[8]، وأسنانهم مهشمة نظراً لنقص الغذاء"، ثم اقترب من الواجهات الزجاجية وأسند قبضة يده عليها، ومضى يقول: "آه يا ليلى، ينبغى إطلاق سراحهم، يجب حملهم بعيداً عن هنا، ينبغى حملهم إلى المكان الذى سُلبوا منه، فى ارو شيكو، فى ابوميه، فى بورجوز، فى كونج، فى الغابات، فى الصحارى، فى الأنهار".

فجأة، اقترب الحارس منا، مرتاباً من رنين صوت حكيم، ولقبضة يده التى كانت تدق على الواجهة الزجاجية، فاصطحبنى حكيم بعيداً عنه، ثم توقف أمام دولاب خشبى معروض فيه أطراف فخار مكسور، أعواد حفر، شئ من مجرفة مصنوعة من الخشب، وقال: "انظرى يا ليلى: أقلُ شئ من بلادنا يساوى كنز أو جوهرة رائعة"، ورأيت قناعاً له فم ثائر، قناعاً سونجيا يشبه

(8) السناج هو سود الدخان. (المترجم)

الموت مثقوب ببثر، ورأيت الدمى الأشنتي منتصبة كجيش من الأشباح، ورأيت وجه الإله فانج العريض بعينيه المغلقتين وكأنه يحلم. كنتُ أشاهدُ الشقف وأطرافَ الخشبِ المسودة و المستنفذة من جراء الأيدى التى سلخها الزمان. لم أعرف ماذا كانت تقول اللافتة الموضوعة بجوار هذه الأشياء، شئ يتعلق بالأشنتي على ما أعتقد. انطلق حكيم يقول: "ها هى عظامنا وأسناننا، أترين، ها هى قطع من أجسادنا، إنها تحمل نفس لون جلدنا، إنها تلمع ليلاً كأكواب براقة"، و ربما كان حكيم أيضاً مجنون. ولكن ما كان يتفوه به كان يجعلنى أرتعش، فلقد كان قوله عميقاً كالحقيقة. دلفنا أيضاً فى المتحف، أمام التروس والطبول و الأصنام، وكان هناك أيضاً زورق مصنوع من الخشب أكلته ديدان الخشب، وكأنه وضع هنا بعد حادث غرق، عندما تم نزح مياه النهر المجهول.

لكن صوت خطوات الحارس الخفيض كان يضايق حكيم، فخرجنا على عجل من المتحف؛ كان حكيم يختنق من الحنق، و قال لى: "هل رأيتى؟ إن الحارس يراقبنى كى لا أسرقَ شئ، ولكى لا أخطف مهرولاً عظام أجدادى". كان يبدو عليه التعب، ويبدو شيخاً كبيراً ؛ وقال ثانية: "هل رأيتى ؟ هذا الحديد المطروق وأعمدة الدرابزين فى شكل..، لا أعرف ماذا، الرماح أو السهام أو ملابس بانٌنيا".

بعد ذلك، استقلينا القطار حتى إيفرى – كوركورن لكى نعُودَ جَدَةُ.

كان الحاج مافوبا يعيش بمفرده في مبني كبير أبيض في اتجاه منطقة فيلابيه[9] بالقرب من الطريق السريع، وكان المصعد الكهربائي معطلاً، وكان باب المدخل مهشماً، وبلاط السلم كان مذوداً بصفائح معدنية، وكان هناك أطفال في كل مكان من المبنى؛ وبينما كنا نصعد السلم، رأينا طفلاً شديد البدانة أبيض البشرة يهبط أربع درجات من السلم بعد أربع، وسمعت صوتاً أجشاً للغاية قادم من امرأة كانت تنادى: "سلفادور ادوند فاس؟"، كما كان هناك شباب عرب يشعلون الغليون جالسين على درجات السلم، وإلى أعلى قليلاً، كان هناك فتاتان تهبطان السلم، وطفل أشقر يضع نظارة وكان يصيح: "تبا لكم ! انتظروني، أنا الذى أخرجتكم"، بينما كانت الفتيات يرددن عليه قائلين: "بسببك أنت، أيها الغبي الصغير، لم نخرج إلا الساعة السادسة".

كان العجوز يجلس في غرفته وحيداً، يجلس على مقعد من الحديد أمام النافذة وكأنه يمكنه أن يرى الخارج. قال حكيم: "صباح الخير ياجدى"، فوضع الحاج يديه على وجه حفيده، وأبتسم ثم مد رأسه وقال: "هل أحضرت شخصاً ما معك ؟"

ضحك حكيم. "إنَ أذنك دقيقة ياجدى، لا يمكن للمرءِ أن يخدعك، ياجدى"، فقال الحاج: "من هذا؟"

---

(9) ضاحية من ضواحي باريس الجنوبية. (المترجم)

اقتادنى حكيم إليه، ووضع الحاج يديه على طالعي مزحلجاً إياها برفق على طول وجنتي ولَمَسَتْ أصابعهُ المنفرجة جفوني وأنفي وشفاهي، ثم تمتم: "إنها تشبه ماريما، فمن هي؟"

تمتمت باسمي، وكان حلقي مشدوداً، فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التى التقى فيها برجل مثير مثله، كان جميلاً للغاية بوجهه ذى لون الحجر الأسود والشبيه بوجه الرقيق، وبشعره الأبيض المجعد والذى يخط تاجاً فوق رأسه. لم يكن هناك مقعداً آخر في الغرفة، ولذا جلست على الأرض أمام الجدار بينما كان حكيم يغلى الماء لإعداد الشاى.

كان الحاج يتحدث برقة وهدوء، فى صوت أجش قليلاً، متكئاً على الكلمات التى كان ينتقيها بعناية، و لم يكن يتوجه بكلماته إليَّ بصفة خاصة ولا إلى حفيده، بل كان يتأمل ملياً كما لو كان ينتزع الذكريات من ذهنه، أو كما لو أنه كان يخترع حكاية؛ ثم تحدث ببساطة وهو يرتشف الشاى عما كنت أنتظر منه: نهر السنغال الكبير، الذى يجرى فيه الماء الأحمر بصحبة الأشجار المبتورة والتماسيح. كنت أنصت إلى صوته الحنجرى تارة والغنائى تارة أخرى، وكان يتحدث عن قريته مسقط رأسه، التى تسمى يامبيا، وهى قرية حوائطها من الطين حيث تَخُطُ النساء عليه وأناملهن مبللة شكل نبات القطيفة[10]. حدثني عن أبيه وعن أمه وعن عشرة أطفال أنجبهم، وعن ضوضاء الأصوات فى الصباح، وعنه حينما كان أكثر شباباً، عندما كان يسير لمدة

---

(10) نباتات ذات فلقتين. (المترجم)

ساعتين حتى يصل إلى مدرسة النهر ويرتل القرآن حتى المساء. وحينما كان يتحدث إليّ، كان ينغم كلماته ويهز أعلى جسده كما كان يفعل وهو في الثامنة من عمره، فغدا صوته حاداً وواضحاً كصوت طفل.

قال حكيم: "توقف ياجدى، سترهق ليلى..."، وهو واقف بالقرب من الباب كما لو كان سيرحل، فرد عليه الحاج: " كيف أرهقها، إنك أنت الذى لا يريد أن يستمع "، فكان يتوجه إليّ، ووجهه ملتفت إلى جانب يضيئه الضوء المار عبر النافذة، قائلا: "إنه لايريد أن يقرأ الكتاب المقدس، إنه لايريد سماع الحديث عن الرسول، و لايحب إلا ... ما أسمه؟ كاتبه فانو..."، فقلت: فانو.

- نعم فانو، أعترف أنه يقول أشياء طيبة، لكنه ينسى المهم منها والأكثر أهمية.

ثم صمت كثيرا قبل أن يقول: "وما هو الشئ المهم ياحاج؟"

- أنه حتى الإنسان التافه جداً كنز في عين الله.

وعندما غضب حكيم، صوب العجوز من عبارته بدهاء قائلا: "ولكن دعنا من كل ذلك، إنه لا يعتقد في الله، وأنتِ يا ليلى هل تعتقدى في الله ؟"

- لا أعرف.

- ولكن... كاتبه المفضل فانون يقول أشياء مضبوطة جداً، حقاً يأكل الأثرياء جلد الفقراء، فعندما جاء الفرنسيون إلى بلادنا، أخذوا شبابا

ليسخروهم فى العمل فى الحقول، وأخذوا فتيات لخدمة مآدبهم ولطهى أطعمتهم وليضاجعونهن فى فراشهم لأنهم كانوا قد تركوا نسائهم فى فرنسا؛ ولكى يخيفوا الأطفال السود، جعلوهم يعتقدون أنه بوسعهم أن يأكلوهم. فقال حكيم: "وأرسلوهم إلى المجزرة بفرنسا على ساحات الحرب فى تريبولى"

فغضب الحاج قائلاً: "ولكن ذلك لم يكن نفس الشئ، فلقد كنا نحارب ضد أعداء البشرية".

– وكنتم تعرفون لماذا ستمتون ؟

– كنا نعرف...

كان هناك صمت بينما كان الحاج يشعل الغليون وهو شارد أمام النافذة المنفرجة، وكان المطر يتساقط فى سكينة، وكان الحاج يرتدى قميصاً أفريقياً فضفاضاً أزرقاً شاحباً أطرافه من اللون الأبيض، ولم يكن به رقبة، وبنطالاً أسود اللون، وكان ينتعل حذاءاً ضخماً من الجلد مبرنق باللون الأسود وجوارب من الصوف؛ وكان يجلس صامتاً مستقيماً على مقعده والسيجارة بين أنامله الطويلة.

عندما رحلنا، تحسس الحاج طالعى مرة ثانية، وتحسس عينى وشفتى، ثم قال ببطئ: "عندما تكونين شابة، ياليلى، ستكتشفين العالم، سترين، هناك جوانب كثيرة طيبة فى العالم، وسوف تمضين بعيداً كى تجديها"، وقال لى ذلك كما لو كان يباركنى، فأحسست برعشة وقار وحب.

بينما كنا نخرج من المبنى والليل يسقط، رأيت للمـرة الأول معسـكر البوهيمين على السهل الطينى بين ممرات الطريـق السـريع، كـانوا يشـبهون الغرقى فى جزيرة.

هكذا اعتدت أن أقوم بزيارة الحاج، فكنت أذهب إليه مرة من كـل أسبوع، أكثر من ذلك قليلاً أو أقل منه قليلاً؛ ولحسن الحظ أنـه كـان لايرقـب قدومى أو على الأقل لم يكن يُظهر لى أنه كان فى انتظارى. عندمـا كنـا ندخـل إلى غرفته الصغيرة، لم يكن يتوجه بحديثه إلى حكيم، وكان يـدرك أننـى قـد وصلت، فيدير رأسه ويقول: "ليلى؟"، ولذلك كـان حكيـم يقـول أن المكفوفـين هكذا، لديهم حاسة أخرى، يشتمون الروائح أكثر من الآخرين كالكلاب.

فـى القطـار المتجـه إلى إيفـرى، كـانت هنـاك عصابـة مـن الفتيـان والفتيات، تتراوح أعمارهم بين أثنى عشر أو ثلاث عشر عامـاً بالكـاد، وكـان بينهم أيضاً أطفال، رثو الثياب، سفهاء، مزعجين، ومع ذلـك سـعدت كثـيراً لرؤيتهم، فكانوا يسلُّوننى، وكنت أراهـم يتنـاقلون سـيجارة فيمـا بينـهم، و يتقززون، و يلفظون بصوت عالٍ كلاماً بذيئاً نـاظرين بطـرف أعينـهم إلى وقـع ذلك على سكان الضواحى الذين كانوا يتذمرون؛ وقبل محطـة أيفـرى بقليـل، جاء اثنان من رجال الضبط لإيقافهم، فلاذت عصابة الأطفال بنفسها بالقفز من النافذة على منحدر قبل المحطة بقليل، وتعلقـوا فـى خـارج القطـار ممسـكين بالنافذة من الخارج، ثم فروا وهم يضحكون.

وفى هذه الأثناء التقيت بجيانيكو.

كنت أترك مبكراً "سجن" جافلو وأمضي أعمل لمدة ساعة أو ساعتين في الحي، فلقد كنت أقوم بأعمال النظافة لدى بياتريس التي كانت تعمل محررة في جريدة في الدائرة الخامسة[11] وكنت أعمل أيضاً لدى زوجين محالين للمعاش بشارع جان دارك، وكانت حورية تبقى في المنزل كي تقوم بطهي الطعام، كانت تخرج قليلاً في وقت الظهيرة تقريباً، لتتنزه بمفردها يصاحبها بطنها المنتفخ في حديقة المباني التي تقام فوق المنزل الذي نقيم فيه، وأثناء ذلك تعرفت على السيد في، وهو فيتنامي كان يدير مطعماً في حينها.

ولم أكن أرى نونو كثيراً، فعندما كنت أترك المنزل، كان لا يزال نائماً في صالة مبيت السيارات على أوراق الكرتون؛ ومنذ المرة التي احتضنني فيها بعد قدومي إلى مبيت السيارات، لم أدعوه كي ينام أمامي، فلم أكن أرغب في ذلك، كما أنني خشيت أن يغدو هذا الأمر قصة بيننا، إذا ما تبينتم ماذا أريد أن أقول؛ وأظن أن هذا الأمر جعله حزيناً للغاية، لكنه ظل عطوفاً عليَّ وكأن شيئا لم يكن.

بعد الظهر كنت أمضي للقاء حكيم في مقهى بجوار جامعة السربون؛ كان حكيم يلقبها بمقهى "اليأس"، وكان يقول إنها تشبه مدخل الجحيم؛ كان يحمل الكتب والكراسات وكنت أشرع في القراءة، فلقد رأى أن

(11) الدائرة الخامسة من باريس هي الدائرة التي تنتشر فيها أكبر الجامعات والمدارس الفرنسية وأهمها جامعة السربون وكوليج دى فرانس. (المترجم)

أجد فى خطواتى وأتقدم للثانويــة كطالبـة حـرة أو إلى دراسـة القـانون إذا مـا استطعت؛ وفـى مجـال اللغـة الفرنسـية والتـاريخ والفلسـفة لم يكـن لـدى أى صعوبات، فلقد كانت دروس لالا أسماء لاتُقارن فى هذا الصدد، إذ علمتنى فى العمر الذى كان فيه أقرانـى يلعبـون بـالدمى أو يظلـون لسـاعات طويلـة أمـام الرسوم المتحركة. كان حكيم يجعلنى أقرأ مقتطفات من نيتشه، من هوم، مـن لوك، مـن بوتـى[12]، كمـا كـان يحمـل إلىَّ أوراق مصـورة، وكـان يعنـى بـهذا الموضوع عناية فائقة؛ وأظـن أن الأمـر كـان بالنسـبة لـه أن أجتـاز اختباراتـه الخاصة. اطلع حكيم جده على أمرى، فعندما ذهبت إلى إيفرى - كوركـورن، سـألنى الحـاج: "أيـن أنـتِ فـى الفلسـفة الآن؟"، وتحاورنـا حـول مشـكلات الأخلاق والعنف والتعليم والأفكار الاجتماعية والحرية،... الخ؛ و كان يقول لى دوما أفكاراً رائعة كما لو كانت تنبع من أعماق الزمان وأنه عثر عليها بكراً فى ذاكرته.

قال لى: "الله يخلق الحب والنوى، يخرج الحى من الميت والميت مـن الحى"؛ وكان يقول: "أتدرين ما الفاجعة؟ إنـه اليوم الـذى يكـون فيـه النـاس كالفراش المنثور والجبال كالعهن المنفوش"؛ وكان يقول: "أعوذ برب الفلق من شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسـد إذا حسـد"؛

---

(12) اتين دى لا بوتى Etienne de la Boétie أديـب فرنسـى ولـد عـام 1530، وكـان صديقا للأديب الشهير مونتنى، ومن أشهر مؤلفاته "خطاب حـول العبوديـة التطوعيـة". (المترجم)

وكان يدير وجهه للنافذة ثم يتحدث فكانت الكلمات تأتى من أعماقه عذبةً ورنانةً.

كان يتحدث عن النبى وعن خادمه بلال، الذى كان أول من آذن للصلاة، والذى عاد – بعد الهجرة، عندما لفظ النبى أنفاسه الأخيرة بين ذراعى عائشة – إلى أفريقيا وجاب كل الغابات حتى النهر الكبير الذى قاده إلى شاطئ المحيط. كان الحاج يتحدث عن ذلك الأمر كما لو كان يعرف بلال، كما لو كان هذا الأمر قد دب فى عائلته هو؛ ورأيت حكيم جالساً على الأرض يرتشف كلماته، ولم أنس قط قصة بلال، فبالنسبة لى كانت هذه القصة قصتى أنا الخاصة.

دعانى حكيم كى أذهب إليه فى مدينة أنطونى الجامعية[13]؛ وهناك كان عالماً آخر، فلم يكن كشارع جافلو، ولا كمحطات المترو، وكنا بعيداً عن كوركورن. كان الفضاء رحباً محاطاً بالحدائق الجميلة الخضراء كالريف الذى تحلق فوقه طيور العقعق والشحرور، وكان هناك طلاب من كل بلاد العالم، أمريكيون، إيطاليون، يونانيون، يابانيون، بلجيكيون، وحتى أتراك ومكسيكيون. ودعانى حكيم إلى مطعم المدينة الجامعية، فقام بتسديد ثمن وجبتى بالبطاقات التى كانت معه؛ تناولت رافيولى[14] وشريطية[15] وأطباق

---

(13) مدينة أنطونى الجامعية هى من أشهر وأقدم المدن الجامعية بفرنسا. (المترجم)

(14) نوع من العجين المطهى المحشو باللحوم. (المترجم)

(15) نوع من العجين المطهى على شكل شريط. (المترجم)

لم أكن أعرفها، ومن الحلوى، أكلت مثلثات من القشدة، النافعة[16]، بشراهة، ضحك، فأما هو فقد كان كعادته يأكل قليلاً، فأكل طرف حلوى، ثم ما لبس أن وجد كل شئ مقززاً.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، أراد حكيم أن أصعد معه إلى غرفته، وقال إنه يريد أن يريني كتبه. لم أكن أرغب في خصومته، فلقد كنت أعلم أنه يريد أن يفعل بى، هذا كل ما فى الأمر، ولم تكن لدى رغبة فى أن يصير الأمر معه كذلك، إضافة إلى أننى كنت أريد أن نظل أصدقاء، وأن نستمر فى الذهاب إلى الحاج لننصت إليه وهو يتحدث عن النبى.

وكنت أدرك أن ذلك الأمر يضايقه، وكان غيوراً لاعتقاده أن نونو صديقى، ولكنه لم يكن يجسر على أن يقول شئ من هذا القبيل. مضينا إلى الصالة، ثم جلسنا على الأريكة وأخرجت من حقيبتى كتاب "وراء الخير والشر"، ثم قلت له: "فسر لى لماذا يتحدث نيتشه عن العقد ؟ "، فنظر إلى من خلف زجاج نظارته، وكانت تبدو عليه علامات رجل قاسٍ فى لحيته الصغيرة ونظاراته الفولاذية، وأعتقد أنه أراد أن يشبه فى هيئته هذه ملكولم اكس، ولهذا السبب لم يكن يخرج البتة دون كى قمصانه البيضاء وانتقاء رباط عنقه. لم يكن يرغب فى أن يبدو مشابهاً لأفارقة نانتير أو أنتييه سول فى ملابسم البيجتى والدريدلوكس، وكان يبغض كل ذلك وفى نفس الوقت كان

(16) ضرب من الحلوى كثيرة السكر. (المترجم)

يشفق عليهم، فلقد قال لى ذات يوم: "أتعرفين ما أكثر الأشياء التى تؤلمنى؟ إنه النظر إليهم والظن بأن حتى نصفهم لن يصل إلى سن الرشد، وكأنهم فى طريقهم للموت".

كان يتحدث إلىّ أيضاً عن أفريقيا، عن لوائح الحساب، عن مرتزقة بيافرا(17)، عن الأطفال الذين يموتون من الجوع، عن السيدا(18)، عن الكولرا.

كان يحب نيتشه كثيرا، ويؤثر فانو أيضاً، وكان قد قرأ على مقتطفات من" سادة وعبيد" لربورتو فراير؛ ومع ذلك لم يكن يحب الروايات، ولا الشعر، إلا محمود درويش وتيماجن هوات، فكان يقول: "الروايات مثل الغائط، ليس فيها أى شئ، فليست هى من الحقيقة، ولا من الكذب، إنما هى زوبعة فحسب"؛ وكان يقبل على مضض الشاعر رامبو وجون دون، ويأخذ على رامبو حديثه بالسوء عن السود ونشاطه فى التجارة الغير مشروعة. وذات يوم قلت له: " إنك تعتقد فى الأساس مثل جدك، بأن كل شئ جاء فى القرآن "، وأظن أنه غضب، ولكنه بعد تأمل أجاب: "هذا حق، لا يمكن أن يكون هناك شعر أعظم من القرآن، الإعجاز أن هذا الكلام ذُكر منذ أكثر من ألف عام وأننا نعلم أنه ليس بوسعنا أن نأتى بأفضل منه"، فقلت له حينئذ: "إذا ربما يمكن الإتيان بأسوأ منه؟"، فنظر إلىّ فى دهشة، وأظن أنه لم يدرك ما أردت أن أقوله له.

---

(17) بيافرا Biafra هى جزء من جنوب شرق نيجريا. (المترجم)

(18) تقابل الأيدز فى الإنجليزية وهو مرض فقدان المناعة الجسمية. (المترجم)

كانت لى حياتين: أشطر النهار ببقائى مع حورية والنظافة لدى محررة الجريدة، وأقوم بإجراء المشتريات فى الحى الصينى حيث كان كل الناس فى هذا الحى يرون أننى طيبة، وكنت أمضى أشاهد نونو وهو يتدرب فى صالة الملاكمة فى باربس[19]؛ ثم كانت هناك مواعيد الدراسة فى السربون مع حكيم، أو بالقرب من شارع أساس[20]، وكان حكيم فخوراً بتقديمى إلى زملائه الطلاب، وكان يقول لهم: " هذه ليلى، طالبة حرة تتقدم للثانوية هذا العام بالقسم الأدبى".

فى الليل، كان كل شئ يتبدل فى حياتى: كنت أغدو كالصرصار، وكنت أذهب حتى ألحق بالصراصير الأخرى فى محطة تولبياك أو محطة اوسترليتز أو ريمير سباستوبول؛ وعندما كنت أصل إليهم عبر أنبوبة ممر المترو وأسمع دقات الطبول، كنت أرتعش، فلقد كان شيئاً رائعاً، و لم يكن بوسعى أن أقاومه، كان يحدث لىَّ ذلك وكأنى أعبر البحر والصحراء مشدودة بحبل هذه الموسيقى.

كان الأفارقة يرتادون على الأرجح محطة الباستى أو سان بول، أما الأنتييون فقد كانوا يذهبون إلى محطة ريمور سباستوبول، حيث تكون بصحبتهم سيمون أحياناً؛ والتى عرفتها عن طريق نونو، فى المرة الأولى التى التقيت بها. فى الغالب، كانت ممرات محطة المترو مكتظة بالناس، ولكننى

---

(19) حى يقع فى شمال باريس. (المترجم)

(20) شارع بجوار جامعة السربون بباريس. (المترجم)

كنت أفلح في التغلغل إلى الصف الأول، كانت سيمون فارعة الطول، شديدة السواد، وجهها عريض إلى حد ما، وعيناها محدبتان، كانت تصفف شعرها على طريقة التكوير بربطه بخرق حمراء، وكانت تردى ثوباً طويلاً أحمراً داكناً. ظننت أنها تشبه إحدى المصريات القدماء، فقال لى نونو: "هذه سيمون، من هاييتى"، كان صوتها خشناً متذبذباً ساخناً يدخل إلى أعماقي و إلى أحشائي. كانت تغني بلغة المستعمرات الفرنسية، في كلمات أفريقية، كانت تغني عن سفر العودة عبر البحر وماذا يفعل إناس الجزيرة عندما يموتون. كانت تغني وهى واقفة، دون أن تتحرك تقريباً، ثم تأخذ فجأة فى الدوران حول نفسها هازة أردافها، فينفرج ثوبها الفضفاض حول جسدها، وكانت جميلة إلى حد أنها كانت تدهشني.

تحدثت معى ذات مساء؛ وكان هناك هجوم مباغت للشرطة، فتبعثر كل الناس، و وجدنا أنفسنا وحيدتين فى المحطة فى طرف ممر طويل، وكان ينبغى علينا أن ننصرف، فأعطيتها بطاقة مترو، واستقلينا المترو إلى محطة بلاس دى ايتالى، وكانت تجلس على مقعد من المقاعد التى بجوار الباب وأنا أجلس بجوارها، وفي العربة الرثة، كانت تبدو كأميرة بأهدابها الكثيفة، وشفتها السفلى التى تقيم هدب، ووجنتيها العريضتين الناعمتين؛ و سألتنى عما كنت ومن أين أتيت، لا أعرف لماذا قلت لها ما لم أسرى به إلى أحد، ولا حتى إلى نونو، ولا لمارى هيلين، ولا حكيم، قائلة أننى لم أعرف ماذا كنت أو من أين أتيت، وأنه تم بيعى ذات ليل من الليالى

وأنا أحمل قرطى الذى يمثل الهلال الأول للقمر، فنظـرت إلىّ لحظـة طويلـة، وابتسمت إذ كانت متـأثرة، أعتقـد ذلـك، وطبقـت علـى يـدى، كـانت يداهـا عريضتين ودافئتين ومفعمتين بـالقوة، وقـالت: "أنـت مثلـى، يـاليلى، نحـن لانعلم من نحن، و لم يعد جسدنا معنا"، وكان أمراً غريباً أن أسمعها تتحدث هكذا مع اهتزاز عربة المترو وبريق ضوء المحطات الذى كان يمر على وجهها ويضئ قزحية عينيها فتصبح فى لون بنى شفاف كحجر كريم.

اصطحبتنى إلى منزلها، وكانت تقيـم فـى مـنزل صغير بـه حديقـة صغيرة، فى شارع صغير له أسم عجيب، لابيت أؤكاي، وكانت تعيش فيه مع صديقها، طبيب هاييتى، فـارغ جـداً ونحيـف وأنيـق، وأنـاس آخريـن، مـن هايتى وأيضاً من الدوميكان، وكانوا يتحدثون معا هذه اللغة العذبـة السـريعة التى لم أفهمها، ولو لم تكن سيمون معى، أظن أننى كنت سأرحل على الفـور لأن هؤلاء الناس كانوا يرعبوننى ولاسيما ماريتـال جواييـه، صديـق سـيمون الذى كان ينظر إلىّ بعين ثابتة كما لو كان يريد أن يطالع روحى؛ وكـان هنـاك بينهم أيضاً بعض البيض، رجل متقدم فى العمـر يزعـم أنـه نـاقد فنـى وكـان يشبه السيد دلاهاى إلى حد ما، وكـانت هنـاك نسـاء ترتديـن ملابسـهن علـى الطريقة الأفريقية، وتحملن عقـود ثقيلـة وأدوات زينـة مثـل تلـك التـى كـان يبيعها حكيم. كان دخان السجائر والحشيش يشكل نفثات كثيفة تدور حـول شعاع البقع المضاءة تابعة مدونات الموسيقى الهادئة التى تبدو وكأنها تنبعـث من كل جوانب الأرض حتى من النوافذ.

لم يكن هناك مَن يهتم بـأمرى، كنـت واقفـة أمـام مدخـل الصالـة، وأدخن الغليون محاولة أن أرى سيمون، من تكويرة شعرها القرمزية وقرطـها الذهبى.

قدم الناقد الفنى تجاهى، وقال لى شيئاً ما فى صوت منخفض، وبمـا أننى لم أفهم، مال إلى أذنى كى يكرر : "إنها رائعة"، أعتقد أن هذا ما قاله، ثم استطرد: "إنها كل روح السنكسار[21]"، فلـم أقُـل نعـم أو لا، و ربمـا ظـن أننى لم أدرك ما قاله، ونظرت فى وجهه بامتعان ورددت بقوة طالما أنه يسمع هذه الأبيات لاميه سيذار[22]: إلىَّ رقصاتى

رقصاتى رقصات زنجية رديئة

إلىَّ رقصاتى

رقص آخذة الغل

رقصة الإفلات من السجن

رقصة مفادها أنه من الحسن والطيبة والشرعية أن أكون زنجية.

نظر إلىَّ الناقد الفنى دون أن يتحرك ثم أنطلق فى التصفيق، وصـاح: "أنصتوا، أنصتوا، هذه الفتاة الشابة لديها شئ تقوله لكم"، ثم أخذت سيمون

(21) السنكسار هو كتاب يضم أسماء الشهداء والقديسين. (المترجم)

(22) أديب فرنسى ولد فى جزر المارتينيك عام 1913، وعُرف بنزعته المناهضة للفكر التقليدى الاستعمارى، كما حاول فى مؤلفه أن يبرز دوره المساند للزنوج. (المترجم)

تغنى لا من أجل أحد سواى، وكنت أعرف أنها تغنى لى لأنها كانت تقف فى نهاية البهو ولأنـها كان تمد يدها نحوى، وصوتها كان يدندن بكلمات فرنسية عذبة جداً تتوافق مع موسيقى الدف.

ثم أخذت أشعل سجائر مختلطة بالحشيش، وكنت قد شاهدت فى الماضى أماكن يتم فيها فعل ذلك، ففى الفندق مثلا، كانت الأميرات تتجمعن من آن إلى آخر فى إحدى الغرف، ثم تشعلن الغليون معطية إحداهن السيجارة إلى أخرى، وكانت تخرج آنذاك رائحة ورقة فظة قليلاً، مسكرة قليلاً، فكان ذلك يثملنى ويجعلنى أنام .

وهنا لم يكن الأمر كذلك، كانْ هناك رجل هايتيى يعطينا السيجارة، وكذلك كانت هناك الموسيقى وصوت سيمون يدور فى المكان بعذوبة، فاشتممت الدخان بقوة كما لو أننى أردت أن يعبرنى من جهة إلى أخرى، وشربت أيضاً الكحول و الويسكى و البيرة وعرق قصب السكر؛ وأتذكر أنه لم يكن بمقدرتى أن أتوقف عن ذلك. وبالطبع، غدوت بعد ذلك ثملة تماماً، غير مدركة لما حولى، ثملة بحق، كما نرى أحياناً فى دار العرض المرئية. كنت واقفة أمام سيمون وغنيت أنا أيضاً، كنت أكرر كلماتها، وأنا أرقص في نفس الوقت؛ كنت ثملة ولكننى على العكس من ذلك، لم أفقد صوابى، فكل شئ أصبح صافياً أمامى، كنت أكرر كلمات أغنية بالتدريج على نغمة الدف الصغير تقول: أنصت إلى المدينة التى تنبض

في قلبى، فى دمى

نحن الآخرين

البحر مفقود بعيد

...

كان الناس يتمايلون كما يحدث وقت الزلزال، رأيت الحوائط تتموج وظِلُ الناس يتنسل واللون القرمزى لتكويرة رأس سيمون يتضخم ويملأ كل البهو، فأخذنى الطبيب جوبيه، ثم طرحنى على الأريكة، ومسحت سيمون وجهى بمنشفة مبللة بالماء البارد، وكانت حركاتها رقيقة جداً وأمومية للغاية، فكانت تتحدث ببطئ، وكان لدى إحساس أنها سوف تمضى لتغنى لا من أجل شئ إلا لى بصوتها الخشن الأجش قليلاً، ولكن لم يكن الأمر بالنسبة لى دق الدف العذب، إنما كان صوت فؤادى فى أذنى.

رحل الناس البعض تلو البعض الآخر، ربما خشوا أن أسبب لهم مشكلة ما، فهم إناس مشهورون، من بينهم نقاد فن و رجال سينما و سياسيون، و لذا فهم ينصرفون دوما قبل الآخرين.

فضلا على ذلك، كان صديق سيمون يتشاجر معها، وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لى، وكنت أنصت إليهما من بعيد، كما لو كنت طفوت فوق جسدى، وكما لو كانوا يتحدثون أمام شخص آخر، ثم تركونى على الأريكة ومضيا إلى غرفتهما، فسمعت صوت الطبيب الخشن وصيحات سيمون، وظننت أنه يضربها، أو يعذبها، ثم أخذت تتأوه بشكل منتظم، فأدركت أنهما يتضاجعان.

كنت أرتعش من الحمى على الأريكة؛ وفى لحظة ما، مضيت أتقيأ فى المطبخ، كنت أترنح، فقلبت مقاعداً، وكان هناك اثنان من الهايتيين لا يزالان يشربون، وعندما شاهدانى فى حالتى هذه، مضيا يبحثان عن الطبيب، وسمعتهم يتحدثون عنى بلغة المستعمرات، وقال مارتيال جوبيه: "ربما هى غير راشدة، من الأفضل حملها إلى منزلها"، وأظن أنه قد هتف إلى كل مكان حتى عثر على حكيم، فحصل على عنوان مبيت السيارات بشارع جافلو، فبدأت أدرك أن الدنيا ضيقة، وعندما نحسن البحث، نبلغ كل ما نريد، أى أن هؤلاء الناس الذين يتمتعون بقيمة ما، مرتبطون بعضهم بالبعض الآخر، ويصطحبون معهم الآخرين، الذين لا يساوون شئ مثل نونو ومثلى. فكرت فى كل ذلك بينما كان صديق سيمون يستخدم الهاتف؛ وكان عقلى يغلى، ورأيت فى نفس الوقت وجه سيمون، عينيها الكبيرتين الشبيهتين ببقرة مصرية واللتين كانتا تُعبران عن ضيق عميق، وفجأة أدركت لماذا قالت لى إننا متماثلتان وإن أجسادنا لم تعد ملكاً لنا، لأننا لم نرغب فى أى شئ مطلقاً، وأن الآخرين هم الذين يقررون مصيرنا دوما.

ظلت سيمون فى المنزل، بينما حملنى مارتيال وأحد رفاقه إلى السيارة. كانت السماء تمطر فى خارج المنزل، وكانت مستنقعات المياه الصغيرة الحجم ترتعش على البلاط الأسود فى الشارع، وكانت السيارة تمر فى الشوارع الصامتة والخالية؛ وأظن أنهما كانا يبحثان عن صيدلية ليلية، وهبط الطبيب كى يشترى دواء لى، قطرات من برمبران، أو شيئاً من هذا

القبيل؛ ثم تركانى فى الشارع أمام الباب، بـاب مبيت السيارات، ونظـر إلىَّ مارتيال جوييه فى صمت، ثم لفظ رفيق الطبيـب جملـة بلغـة المستعمرات لم أكترث بها، ربما قالها علـى الأرجـح بلغـة الجـاوة[23]، ثـم رحـلا، وعندما تبدلت الإشارتان الحمراوتان، اختفيا.

بعد ذلك، كان فصل الشتاء، و لم أشعر ببرد مثل هذا البرد مطلقـاً؛ وكانت تغادير قد قصت علىَّ من ذى قبل كل ما يحـدث فـى فرنسـا فـى فصل الشتاء: السماء رمادية سوداء، الأنوار مشعلة فى الشوارع اعتباراً من السـاعة الرابعة مـن بعـد الظـهر، والثلـج، رقـاق الجليـد، والأشجار العاريـة تمامـاً والمفتولة كالأشباح. ولكن فصل الشتاء هذا كان أكثر سوءً مما قالت.

جاءت طفلة حورية إلى الدنيا فى شهر فبراير، ويوم وُلدت الطفلة، ظننت أنها ربما هذه هى المرة الأولى التى يحدث شئ مثل ذلك: أن يولد طفـل تحت الأرض، بعيداً عن ضوء النهار كما لو كان فى أعماق مغارة.

وربما لهذا السبب بدأت أفكر فـى الجنـوب الفرنسـى وأن أعـود إلى الشمس، حتى تسطع الشمس على جلد الرضيعة، وحتى تتخلـص مـن تنفـس الهواء العفن فى هذا الشارع الذى لا تُرى منه السماء.

كنا نخطط لهذا الأمر مع نونو، قلنا أنه سيفوز بمباراتـه بسـهولة، وسيمكنه آنذاك شراء سيارة، ثم نـهبط جميعـاً مـع حوريـة والرضيعـة نحـو

---

(23) الجاوة لغة اصطلاحية لمجموعة من الأندونيسيين. (المترجم)

الجنوب متخذين الطريق الشاسع الذى يمـر بـإيفرى كوركـورن، فـى ممراتـه الثمانية التى تشبه نهر، وخططنا أن نمضى إلى مدينة كَـانْ وإلى مدينـة نِيـسْ وإلى مونت كارلو وحتى إلى روما أيضا فى إيطاليـا، وسننتظر قـدوم أبـريـل أو مايو حتى تكون الرضيعة قد كبرت وتستطيع حينئذ تحمل مشـقة السـفر؛ أو حتى شهر يونيو طالما أننى سوف أتقدم لاختبار الثانوية؛ ولكننـا لـن نذهـب أبعد من ذلك، لأن ذلك السفر سيكون طويلاً جـداً، وسيكون الوقـت قـد فـات للمضى إلى أبعـد مـن ذلـك. كـان يونيـو شـهراً سعيداً، فلقـد أجريـت مبـاراة الاختيار فى الثامن من يونيو، وكان نونو يتدرب طوال الوقت، فحينمـا كـان غير متواجد فى صالة التدريـب بشـارع بـاربس العريـض، كـان يتمـرن علـى الملاكمة فى مبيت السيارات، فلقد صنع لنفسه كرة ملاكمـة مـن جـوال بطاطـا حشاه بالخرق البالية.

كان الطقس بارداً فى شارع جافلو، ولحسـن الحـظ أن نونـو كـان قـد أحضر مدفأة كهربائية، كـانت حينمـا تعمـل تحـدث صوتـاً كصوت طـائرة؛ وترشيدا للاستهلاك، أرانى نونـو كيـف أنـه زور فـى عـداد الكـهرباء ثاقبـاً بالشنيور على جانب غطاء العداد ثقباً صغيراً حتى يوقـف عجلـة العـداد عـن طريق إبرة حياكة، ولحظة مرور مفتش الكهرباء، كنا ننزع الإبرة من العـداد ونخفى الثقب عن طريق قطعة صغيرة من العجين الملون بـاللون الأزرق. كـانت تنقصنا النقود، فكان نونو يتدرب، ولم يكن لديه الوقت كـى يعمـل، فكـانت النقود تسد عوزنا بالكاد؛ وعندما كان يعود للمنزل فى المسـاء، كـان يضمحـل

من التعب، وكان أحد الأعضاء الاشتراكيين قد وعده ببطاقة إقامة لو أحرز النصر فى المباراة، ولذلك لم يرد أن تفوته هذه الفرصة. أما حورية فلقد كانت تشبه فى الآونة الأخيرة ـ أكثر فأكثر ـ ملكة النحل، فكانت تظل راقدة على الفراش، بالقرب من المدفئة التى كانت تموء، ضخمة ومتبلدة، ووجهها منتفخ من الحمل، و لم تكن ترغب فى أن تعتنى بها مساعفة اجتماعية، و لم تكن ترغب فى أن تُعرض على طبيب أيضاً، فلقد كانت تخشى أن يتم إخطار الشرطة عنها وأن يرسلوها آنذاك إلى زوجها، إضافة إلى أنها كانت فى مأمن تحت الأرض، كالعنكبوت فى شقه، يصنع طفلة؛ و ما من أحد يمكنه العثور عليها هنا، والخطر الوحيد كان يتمثل فى صديق نونو، ولكن من الأخبار الأخيرة، علمنا أن جزيرة بورا بورا[24] تعجبه، ولم يكن هناك خطر كبير من أن يمضى إلى باريس وسط المطر وحبات الجليد.

عندما جاءت لحظة الولادة، طلبت حورية مولدة وليس طبيب، وكان نونو مذعوراً، فكان يجرى فى كل الإتجاهات، وكان يفقد صوابه؛ وبما أننى لم أكن أعرف إلى أين أذهب، فقد استقليت القطار حتى إيفرى كوركورن وذهبت إلى المعسكر البوهيمى، ووجد جيانيكو المولدة، ثم تفاوض معها باللغة المانوشية[25]، وقبلت أن تأتى فى مقابل خمس مائة فرنك. كانت تدعى جوزيفا، كانت فارعة الطول، مسترجلة قليلاً، وجهها عريض بارز التقاطيع

---

(24) جزيرة فرنسية فى المحيط الهادى. (المترجم)

(25) لغة البدو الرحالة. (المترجم)

ويداها قوية ؛ ولم تكن تتحدث بالفرنسية تقريباً، ولكنها اطمأنت إلينا عندما سمعتنى أحدثها بالأسبانية، وكانت لديها لكنة الجالسيين[26] القاسية.

اصطحبتُها بالقطار، وقبل أن تمضى إلى شارع جافلو، أرادت القيام ببعض المشتريات لها ولحورية، فاشترت قطناً ولصقة مشمعة ودواء البيتادين وكمادات وأمور من هذا القبيل، وأيضاً أعشاب من عند الصينيين: زعتر وقويسة، ومرهم فى علبة مستديرة مزخرفة بصورة نمر؛ واشترت أيضا كوكا وحلوى وسجائر.

بلغت مبيت السيارات، فعلقت ملاءة عبر الحجرة التى كانت ترقد فيها حورية حتى لا يزعجها أحد؛ وظلت هكذا ثلاثة أيام كاملة دون أن تخرج تقريباً ودون أن تتحدث. كانت تقول أن هناك رائحة سيئة فى المكان، وكانت تطلق البخور وتشعل السجائر. وفى خلال هذه الأيام، لم نكن أنا ونونو بوسعنا أن نمكث فى المكان، كنا طوال الوقت فى الخارج، فكنت بعدما أفرغ من عملى فى منزل بياتريس، أمضى كى ألحق بنونو فى صالة التدريب فى باريس، وكنت أراه يلاكم ظله، وكان يقفز الحبل، فكنت أجلس فى ركن من الصالة وأشاهده يتحرك؛ وكان كل الناس يعتقدون أننى صديقته، حتى أن العضو الاشتراكى جاء ليتحدث معى، ولم يكن يلقبه بنونو أو ليون، إنما كان يتحدث عنه ذاكراً اسمه العائلى "اديدجو"، فكان يقول: "ينبغى على

---

(26) مدينة وميناء فى سيرلانكا. (المترجم)

اديدجو أن يجتهد، ولا ينبغي عليه أن يرتكب الحماقات، قولي له ذلك"؛ وأعتقد أنه كان يلمح بممارسات نونو، وللأشخاص الذين كانوا يكسرون المنازل والسيارات وللشرائط التي يجلبها من وقت إلى آخر ويقوم ببيعها. كان العضو الاشتراكي قصيراً، وشعره منتفش، وكان يبدو أنه رجل رياضي أو رجل شرطة؛ ولم أكن أحب أن يأتي ليتحدث معي، ولم أكن أحب أن يقول "اديدجو" هكذا كما لو كانت له حقوق على نونو وكما لو كان من نصرائه. ولمرة أو اثنتين، حاول أن يعرف موقفي من القانون أو هل لدى بطاقة إقامة، و لم أكن أحب أن يطرح على أسئلة، ولم أكن أحب أن يخاطب كل الناس بصيغة المفرد، كما لو لم يكن هناك اختلاف بينه وبيننا، ولكنه ربما كان ببساطة لطيفاً. كان ذراعه الأيسر مبتور وربما كان هذا الأمر وراء ذلك، فكان يدلف نحو الناس، ويقول لهم بصوت عالٍ: " أمسك هذا، عاونني في ارتداء قميصي الصوف، هل لك أن تفعل؟" كان إحساسه بالصداقة عنيف إلى حد ما، فكان يقول دوما لنونو: "لا عليك، بطاقة إقامتك مسألة محلولة"، كما لو كان بوسعه أن يسوى هذا الأمر مهما كان.

وضعت حورية أنثى، فعندما عدت من منزل باتريس المحررة، كانت الرضيعة قد خرجت إلى الدنيا، ملتصقة بصدر حورية، وكانت الولادة متعبة، فلقد احتست عددا من كؤوس الخمر ثم نامت بعمق على الأريكة، حتى أن ضوء النيون لم يوقظها.

كان يبدو على حورية النعاس هى أيضا، وكانت الغرفة تفوح برائحة مقززة: بول، عرق، رائحة حامضة، ولو كانت هناك نافذة فى أى مكان، لفتحتها على أخرها حتى أدخل الهواء والشمس. فكرت فى أنه ينبغي أن يرحل الطفل بسرعة وإلا فلن يقو على العيش تحت الأرض.

وفى الأيام التالية، أصابتنا الحمى، وكنا جميعاً منهكين، كما لو كان كل منا أنجب الطفلة، فكنا ننام بالتناوب تبعاً لنظام الرضاعة؛ وكانت أطراف ثدى حورية مشققة، ولذا كانت تجد مشقة فى الرضاعة، وكانت هناك بقع من الدم على فراشها، فقدمت المولدة وأسقت حورية لبناً ويانسوناً ودلكت ثديها بمرهم. كانت حورية ترتعش من الحمى، وكانت الرضيعة تعوى، وفى النهاية، أرسلت بياتريس المحررة صديقة لها كانت تعمل معاونة بمستشفى، فحملت حورية ورضيعها إلى قسم الولادة بالمستشفى، وكانت متوعكة للغاية ذلك أنها تركت نفسها تُحمل على نقالة دون أن تقول شئ.

كنت أذهب كى أراها كل يوم بعد الظهيرة، وكانت تقيم مع أمهات مثلها، فى غرفة جميلة بيضاء فى الطابق الأرضى؛ ومن خلال نافذة الغرفة، كانت تُرى أشجار السرو، وأشجار جنبة الرباط، وعصافير الدورى وهى تحلق فى الهواء، وحتى السماء رمادية اللون كانت رائعة. كنت أحمل إليها حلوى جافة وشاى فى كظيمة[27]، وحتى أمزح مع حورية، كنت أقص عليها

(27) الكظيمة هى الجهاز الذى يحتفظ بحرارة الشاى لمدة من الوقت، ويطلق عليه فى بعض البلاد العربية التى تبنت فى لهجتها العامية المصطلح الغربى "تورموس". (المترجم)

أى شئ، فكنت أقول لها أنهم سوف يعطون اسماً لرضيعتها، وسيسمونها باسكال لأنها ولدت فى اللحظة المناسبة قبل أن يطبق قانون الدم الجديد[28]، وكانت حورية توافق على ذلك، ولكنها كانت ترغب فى أن يُضاف اسم "مليكة" إلى اسم الطفلة، لأن "مليكة" هو اسم أمها هى؛ وهكذا سُميت الرضيعة "باسكال مليكة"، وفى سجل الأحوال الشخصية، أرادت حورية أن تكتب الاسم الحقيقى للأب "محمد"، حتى لا تكون الفتاة من أب مجهول. وحتى حكيم جاء فى زيارة حورية، ونظر إلى هذا الكائن الصغير أحمر البشرة، الذى يقتله النعاس فى المهد بجوار حورية، قائلاً: "يبدو عليها أنها فرنسية صغيرة".

فجأة صارت حورية قلقة، فقالت لى: "ولكن إذا أردت أن أعود لبيتى، ألا يأخذوها منى؟" هدأت من روعها على قدر استطاعتى، وقلت لها: "ما من أحد بوسعه أن يأخذها منك، هى أبنتك، وليست ملكاً لأحد سواك"؛ وأظن أن هذه هى المرة الأولى التى كان لحورية شيئاً تملكه؛ وعلى الرغم من كل ما عانت منه، وعدم الثقة فى مستقبلها، إلا أنها كانت محظوظة.

غَيَّرَ قُدوم باسكال مَليكَة كل شئ بحق فى شارع جافلو، فلقد أدركت أن ما من شئ سيبقى كما كان من ذى قبل، وكان ذلك شئ طيب، فبداية، لم

---

(28) قانون الدم هو القانون الفرنسى الذى كان لا يمنح الجنسية إلا لمن كان أبويه فرنسيين. وعلى العكس منه. هناك قانون الأرض -وهو قانون يعمل به حتى اليوم- وهو منح الجنسية لمن ولد على الأراضى الفرنسية بعد مرور عمر معين. وكان قانون الدم يحتم على من يحصلون على الجنسية أن يكون له اسما فرنسياً. (المترجم)

تعد حورية تفكر فى الرحيل، و لم تعد ترغب فى أن تعود إلى بلدها، فالآن بعد أن أصبحت تمتلك الرضيعة، تشعر بأنها قوية، والمدينة والناس لم يعودوا يرعبونها؛ وكل صباح، تلف الطفلة فى خمار صوفى، ثم تمضى إلى الخارج، فى الحدائق، فى الشوارع أو تعود صديقها، السيد فى؛ وحتى يكون لها عملاً، طلبت من بياتريس أن تعينها بدلاً منى، فاشترت بياتريس مهداً للرضيع؛ وكانت حورية تمضى كل صباح لتعمل لديها. ولم يكن بوسع بياتريس وزوجها أن ينجبا أطفال، ولهذا كانوا متأثرين من وجود هذه الطفلة التى تنام فى منزلهم؛ ثم اعتادت حورية أن تتركها وقتاً طويلاً أثناء ما كانت تمضى للقيام بالمشتريات، أو عندما كانت تمضى تتابع دروس محو الأمية. كان لبسكال مليكة حجرة أنيقة، فلقد أزاحت بياتريس وزوجها المكتب والأرفف المليئة بالكتب، وفرشوا الحجرة بالسجاد ذى اللون الوردى، وكان ذلك يشكل منظراً هادئاً مع الضوء والشمس. عندما كانت حورية تعود إلى الجحر الأسود فى شارع جافلو فى المساء، كانت الطفلة تبكى وتصرخ ولا ترغب فى النوم. وظننت منذ بداية الأمر أن بياتريس وزوجها قد فكرا فى تبنى باسكال مليكة، ولكنهما لم يصرحا بذلك الأمر.

رأيت سيمون مرة ثانية، فذات مساء، عدت إلى محطة ريومير - سيباستوبول، وكان يبدو لى أننى منذ سنوات لم أذهب إليها، وعندما سمعت ضربات الدف تدق فى المر من بعيد، ارتعش جسدى، ولم أكن أعلم إلى أى حد كنت أفتقد ذلك الأمر، إضافة إلى أن كل ما حدث مع ميلاد الطفلة غير

منى وربما كبر من عمرى، كما لو أننى أصبحت أدرك الآن ما كان وراء هؤلاء الناس، وكل هذه المشاهد والمعنى الخفى من هذه الموسيقى.

فى الممر، فى تقاطع الأنفاق، كان العازفون يجلسون ويدقون الطبل، وكان هناك هؤلاء الذين أعرفهم، الأنتيين و الأفارقة، وعازفين لم أراهم من قبل قط: صبى شعره طويل، بشرته صفراء ذهبية، من جزيرة سان دومينيك على ما أعتقد، ولم تكن سيمون تغنى، بل كانت جالسة وظهرها للحائط، ووجهها مقنع بنظارات سوداء، فمكثت بجوارها، وعندما تعرفت علىَّ ابتسمت، ولكننى رأيت وجنتها اليمنى متورمة، فقلت لها: "ماذا حدث لك؟"

هزت منكبيها ولم تجب، وكانت موسيقى الجامبيه والديجون ديجون تنطلق فى إيقاع هادئ، وكانت بطيئة، هادئة تماماً. وكان كل ذلك يحدث تحت الأرض، ويصل حتى الطرف الآخر من العالم وكأن هدفها هو إطلاق موسيقى الجانب الآخر خلف المياه، كأغنية و كلغة. كنت فى حاجة إلى هذه الموسيقى، وكان ذلك يسعدنى، فلقد كانت مشابهة لصوت المؤذن الذى كان يعبر فوق الأسقف ويدخل فناء لالا أسماء، ومشابهة لصوت أجدادى فى بلد الهلالين.

وفى لحظة، انطلقت إشارة تدل على أن الشرطة جاءت، ففر الجميع بسرعة، داقو الطبول والجمهور، فوجدت نفسى وحيدة مع سيمون كالمرة التى ذهبت فيها إلى منزلها، ولكنها سألتنى هذه المرة وكان صوتها مخنوق

ومتكدر: "ليلى، هل يمكنني أن أمضى إلى منزلك هذه الليلة؟"، وكانت تعرف أين أقيم منذ ذلك المساء الذى وضعني فيه مارتيال أمام باب مبيت السيارات، و لم أسألها لماذا تريد أن تأتي معى؛ و عدنا سيراً على الأقدام عبر باريس وسط رذاذ المطر.

أمضت سيمون يومين في مسكننا، ومكثت دون أن تتحرك، راقدة على فراش أحضره نونو، وكانت ترتشف قليلاً من الكوكا، ثم تعاود النوم. كان المخدر يملئها، وقصت عليّ قليلاً مما حدث لها، فلقد أصبح صديقها مجنوناً، أتهمها أنها تخونه، ضربها، ثم اغتصابها ومعه شخص آخر؛ و لم ترد أن أقوم بإبلاغ الشرطة، فكانت تقول أن ذلك لن يفيد في شئ، وأن الطبيب جوابيه رجل مهم، وله أصدقاء في كل مكان، يعمل في هوتيل دى دييه[29]، ولن يصدق أحد عنه ذلك.

ذات ليلة، جاء صديقها يبحث عنها، وسمعت السيارة تتوقف خلف باب مبيت السيارات. لا أعرف كيف خمن أن سيمون مختبئة لدى، كان له جواسيس في كل مكان. لم يحدث أى صخب، فلقد طرق برفق باب الحريق، فأحدث صوتاً خفيفاً كنت أسمعه في نومي، و عندما أضأت المصباح، وجدت سيمون جالسة على فراشها، وعينيها منفرجتين على أشدهما كما لو كانت تنصت إليه؛ وكان يحدثها بهدوء من خلف الباب بلغته، لغة

(29) مستشفى شهير في باريس يقع على نهر السين. (المترجم)

المستعمرات المنغمة والعذبة، فقلت لسيمون: "أتريدين أن أقول له أن يمضي؟"، وكانت لها نظرة غريبة، مخلوبة اللب، خائفة ومجذوبة، و رأيت وجنتها متورمة، والدم الذى جف على قوس حاجبها، فشعرت بالغضب والخزى، وقلت لها: "لا تنصتى إليه، لاتجيبيه، سينتهى بالرحيل عن هذا المكان"، ولكن الأمر كان أقوى منها، فأخذت تحدثه عبر الباب، فلم ترد أن تستيقظ الطفلة، كانت تهمهم فى صوت منخفض، فى البداية بالفرنسية، بالشتائم، ثم بلغة المستعمرات.

انتهت إلى فتح الباب؛ وفى الغبش، كانت السيارة المرسيدس واقفة، فوانيسها مضاءة، ولم يكن هناك سوى صوت غطيط فتحات التهوية التى كانت تنطلق رويداً رويداً ؛ وظلا يتحدثان طوال الليل، وفى لحظة، استيقظت، وكنت أشعر بالبرد، فلقد جعل باب مبيت السيارات الموارب الهواء المبلل يمر إلىّ، ورأيت المرسيدس، وكانت أنوارها هذه المرة غير مشعلة، وكانت سيمون وصديقها يتحدثان وهما جالسان على مقعد السيارة الخلفى. ومع مطلع الصباح، رحلت معه دون أن تقول لى أى كلمة، فوجدت مشقة فى إدراك كيف أن امرأة مثل هذه تتعلق إلى هذا الحد بمثل هذا الرجل.

اعتدت أن أذهب إلى منزل سيمون فى فترة ما بعد الظهر، عندما كان ماتريال جوبيه خارج المنزل، كى أتعلم العزف والغناء بمفردى فى المنزل الصغير ببيت دى كاى، وكانت مصارع النوافذ مغلقة، فكانت سيمون تخط مثلثاً بالشمع المشتعل فى آخر البهو، وفى المنتصف كانت تضع ما كانت

تحب من فواكه السوق، المانجو، الأناناس، العنب الهندى. لم أجسر على سؤالها لماذا. لم أطلب منها شيئاً على الإطلاق ولهذا كانت تحبنى كثيراً. كانت ساحرة، كانت تتعاطى العقاقير أيضاً وتدخن الكوكايين عن طريق بيبة[30] صغيرة فى لون الأرض السوداء. كانت جميلة فى عينيها الواسعتين كعينى امرأة مصرية، وجبهتها المحدبة التى كانت تلمع كرخام أسود.

كانت تعزف على بيانو إلكترونى متصل بعلبتين تكبير صوت، وكانت تجعل الصوت منخفضاً للغاية، خشناً جداً حتى أسمعها بشكل أفضل، وقالت لى أننى يجب أن أتعلم عزف الموسيقى لأن إحدى أذنى لا أسمع بها وأن كل الموسيقيين كانت لديهم معضلة، فكانوا أصماء، أو مكفوفين أو ببساطة مخبولين.

كان الدكتور جوييه لا يعود إلى المنزل خلال فترة النهار، وكان طوال الوقت فى مستشفى لاسالبترير، يعالج أصحاب الأمراض العقلية، وكان هو أيضاً مجنون.

لم يكن ليحب ما تفعله سيمون بشمعها وقرابينها، فكان سيغضب إن عرف ذلك. ولكن سيمون كانت تخفى كل شئ قبل أن يصل، وكانت ترتب الشمع والبخور، وتضع السجادة فى موضعها والمقاعد المريحة فى أماكنها.

وضعت فى ذهنها أن تعلمنى الغناء، وكنت أجلس على الأرض بجوارها فى ثوبى، أما هى فكانت تمد ثوبها الطويل على ساقيها كتاج

---

(30) الأنبوبة التى يوضع فيها التبغ والكلمة فرنسية وعربية. (المترجم)

قرمزى، وكانت تعزف بيدها اليسرى على لوحة المفاتيح، يدها العريضة والخفيفة التى تهرول على النوتات، فقط ثلاث، أربع، خمسة نغمات أو ائتلاف ممتد، وكان عليَّ أن أتابع الصوت؛ ولهذا السبب كانت تعزف بيدها اليسرى حتى تتمكن من الغناء على الجانب السليم بالقرب من أذنى السليمة، ولم أقل لها شيئاً ولكنها كانت تعرف أننى نصف بكماء؛ و كان أمراً لا يصدق أن تنتابها فكرة تعليمى الموسيقى كما لو أنها كانت قد أدركت أن هذا الأمر يشغلنى وأننى أعيش لهذا السبب.

كنا نمضى معا فترات بعد ظهر فى منزل لابيت اوكى، وكنا نعزف الموسيقى، ونحتسى الشاى، وندخن الغليون، ونثرثر، ونضحك دون أن نعرف لماذا. كان لدى إحساس أننى ليس لى من صديقة كسيمون، تذكرت زمن الفندق، الأميرات اللواتى كنت أرقص لهن واللواتى كن يحملننى للحمام أو فى مقاهيهن على شاطئ البحر؛ ولقد كانت كل تصرفات سيمون تصرفات أميرة منهن، إلا أن جزءاً من حياتها كان مأسوياً ولم أفهمه جيداً وسيظل سراً، وهو جزء من الجنون.

علمتنى الغناء على موسيقى جيمى هاندريكس، "محترقاً مع مصباح منتصف الليل"، "أيتها المرأة الماكرة"، "ضباب بنفسجى"، "الحجرة مليئة بالمرايا"، "شمس حبك"، " فودو الطفل"، وموسيقى نانا سيمون، "الأسود هو اللون الحقيقى لبشرة حبيبى "، "كنت أضع سحراً عليك"، ومودى وترز وبيليه هوليداى، " أيتها السيدة المتكلفة"، ولكننى لم أكن أغنى الكلمات،

كنت أحدث أصواتاً فقط، ليس فحسب من شفاهي وحلقي، إنما من أقصى أعماقي، من أعماق رئتي، من أمعائي. فقط أربعة أو ستة مقاييس، وكانت توقفني، ثم أكثر فأكثر. كانت يدها ترقص على لوحة المفاتيح وكان لزاما علي أن أفعل مثلها مجموعة من ثماني وحدات أو كانت تغني بصوت خفيض وكان علي أن أتابع وأغني: "بابليبو، بابالولالى، لااليالولا.."

كانت تتحدث أحياناً عن جزيرتها في الطرف الآخر من العالم وعن الموسيقى التي تتجاوز البحر حتى الأرض القديمة التي أنتشل منها أجدادها وبيعوا. كانت تلفظ أسماء الأمم، وكانت هذه الأسماء ترن بطريقة غريبة، وكأنها كلامات موسيقية: "ايبو، موكو، تم، ماندنكا، شامبا، غانا، كيومانتي، أشانتي، فون..."

كأسماء آبائي الذين نسيتهم.

كانت تتحدث عن الفقر، وتقول: "إن الهاييتي هو الإنسان الأكثر قسوة في العالم"، وكانت تقول: "إن الأسود يخون الأسود كزمن ديسالين[31]"، وكانت تقول: "عندما ينتابنا الجوع نوجه أعيننا نحو الداخل"، وكانت تتحدث عن شارع سيزار، عن بورت او برنس، كانت

(31) جان جاك ديسالين Jean Jacques Dessalines هو إمبراطور هاييتي ولد في غينيا وعاش بين 1758–1806. كان عبداً أسوداً، ثار ضد روشلمبو وطرده من الجزيرة ثم أعلن نفسه إمبراطوراً على هاييتي عام 1804 بعد أن أمر بمذبحة ضد البيض أغتيل على أيدي خصومه. (المترجم)

تتحدث عن القلب الذى يدق وسط الزحام، عن أمها روز كارول التى كانت تنشد فوتو[32] فيما مضى حتى تحضر الموتى، كانت تدق الدف، وكانت هناك عين مفتوحة فى منتصف زاوية كبرى فى فناء منزلها كتلك التى صممتها سيمون بالشمع. كانت تحكى، كانت تغنى، كانت تتحدث مع الدف، كانت ترى قدوم الاوس حتى هنا، حتى شارعها. كانت تردد أسمائهم، أسماء النباتات، السلاح الحقيقى، فواكه الروح الحقيقة، العنب الهندى والعملاق الداكن الذى يغطى الجزيرة بظله. وكنت أنصت إليها، وكانت هذه الأشياء مسلية لحد أننى كنت أنام من سماعى لها. ومن أجلى، كانت تعزف على لوحة المفاتيح، والنوتات التى كانت تكررها دوما، كانت نوتات خفيضة، أو كانت تقرع بأطراف أصابعها الدف الذى كان يتحدث، على الرادا، على الديجون ديجون وكان الصوت يتغلغلنى كما فى ممرات محطة ريومير – سيباستولبول، كان يصعدنى ويملأنى تماماً وكنت شبيهة بثعبان يتراقص أمام المروض، شبيهة بعيساوة[33] الأعياد، وكنت أدور حول نفسى حتى الدواخ.

لم نعد نتحدث. فقط هى جالسة القرفصاء فى وسط ثوبها، تهز نصف جسدها الأسفل، وتعزف الموسيقى وتغنى أغنيتها الأفريقية التى تأتى

---

(32) الفوتو vautou عبادة روحية أعتادها زنوج الأنتى وزنوج هاييتى. (المترجم)

(33) العيساوة Aissaouas هى فرقة دينية مسلمة نشأت فى شمال أفريقيا فى القرن السادس عشر. (المترجم)

من الشاطئ الآخر من البحر وأنا كنت أردد حركاتها وجملها، حتى حركات عينيها وإشارات يدها دون أن أدرك، كما لو كانت هناك قوة مغناطيسية تقيدنى إليها. كانت تفعل ذلك إلى أن تغرق شعل الشمع فى الجس.

وعندما تنتهى، كنا نصير منهكتين، فكنا ننام على الأرض، على الوسادات المتناثرة فى رائحة الدخان. وفى خارج المنزل، كانت الناس تتحرك، وربما المترو، القطارات، السيارات، الناس يهرولون كالحشرات المجنونة، الناس الذين كانوا يشترون، يبيعون، يحسبون، يضربون، يخزنون، يستثمرون. نسيت كل شئ، حورية، باسكال مليكة، بياتريس وريمون، مارى هيلين، نونو، الآنسة ماير، السيدة فروماجا. كل ذلك تزحلج وسار. الصورة الوحيدة التى كانت تأتى، ثم تستغرقنى، هى نهر السنغال الكبير، ومصب الفاليميه[34]، وحافة الطريق المنشطرة فى الأرض الحمراء فى بلد الحاج، و إلى هناك كانت تحملنى موسيقى سيمون.

ذات مساء، عاد مارتيال جوبيه مبكراً عما هو متوقع، وفتح باب البهو، ثم جلس على العتبة لحظة طويلة ينظر. فى خارج المنزل، كان الليل. كان الشمع المحتضر يصدر ضوءاً واهناً، وخمنت نظرة الطبيب الذى كان يفتش فى الظلام؛ ولم يقل شيئاً، عبر البهو مصطدما بدف سيمون، ثم مضى مستقيماً نحو صالة الاستحمام. من المفترض أنه غضب بشدة بسبب عبوره

(34) الفاليميه Falémé مصب يفصل السنغال عن مالى وتبلغ مساحته 650كيلو متر مربع.
(المترجم)

بصمت عبر هذه الأشـياء. أوقفتنـي سـيمون ودفعتنـي نحـو البـاب قائلـة لى: "اذهبى، اذهبى، من فضلك"، وكان يبدو عليها الرعب، فقلت لهـا: "تعـالى، أنت أيضاً، لا تبقى هنا". كنت على يقين من أنها إن كانت قد شاءت أن تـأتى معى هذه اللحظـة، لكـانت طليقـة، ولكنـها لم تفكـر حتـى فـى هـذا الأمـر. وضعت نقوداً فى جيبى، وقالت لى: "هيا، استقلى سـيارة أجـرة كـى تعـودى للمنزل، فالطقس بارد"، ولا أعلم لماذا فكرت فى هذه اللحظة أننـى لـن أراهـا ثانية. كانت لا تستطيع أن تقرر مصيرها، ولهذا كانت كالرقيق، فلـو قـررت مصيرها، لمرة واحدة فقط، لمـا عـادت تخشـى مارتيـال، ولا تخشـى أن تكـون بمفردهـا، ولـن تكـون فـى حاجـة إلى أن تخـدر دنسـها، أو تـأخذ أقـراص التميستا، كانت ستغدو حرة.

أما على مستوى الحاج، فلم تكن الأمور تمضى على مـا يـرام أيضـاً، فلقد كان المحارب القديم يخشى الشتاء، وكنت أذهب إليـه متـى استطعت، بالقطار أو بالأتوبيس، إلى كوركورن حتى طريق فيلابيه. كان الريف مثلجـاً، وكانت هناك طبقات جليدية خفيفـة علـى المنحـدرات، وكـانت هنـاك حقـول رماديـة شاسـعة حيـث تحجـل طيـور الـزاغ[35]، وفـى الشـقة الصغـيرة فـى البرج B كان الحاج يجلس أمام النافذة مرتدياً قميصاً من الصوف السميك فوق قميصه الأزرق، وكان يضع قلنسوة مُتلبدة حتى عنـد النـوم. كـان يحلـم عاليـاً بالنهر الكبير الذى يسرى ببطئ شديد عبر الصحراء حيث يسطع الضوء حتى

(35) الزاغ هو نوع من الغربان. (المترجم)

الكبير الذى يسرى ببطئ شديد عبر الصحراء حيث يسطع الضوء حتى فى الليل، و ربما لهذا السبب كنت أمضى لرؤيته حتى يحدثنى عن النهر، وكان يحكى لى أيضا عن نهر فاليميه والمدن: كيه[36]، المدينة[37]، ماتام، ويامبا قريته، كما لو أنه مازال يستقل زورقا كبيرا مصنوعا من جذع شجرة مع النساء والأطفال ناظراً للبيوت الملتصقة بالشاطئ وهى تمر، وطيور الكُركى[38] التى تحلق فى السماء، وطيور الغاقة[39]. حدثنى عن مريما للمرة الأولى، حفيدته، أخت حكيم، وقال أنها ماتت هناك ذات صيف وهى تمضى لترى أمها، فلقد أصيبت بداء إبيضاض الدم فى أثناء فصل الأمطار، ودخلها البرد، وجمدها يوما بعد يوم ثم قتلها. ولم يرينى الحاج صوراً لها، ربما كان ذلك لا يفيده فى شئ. أرانى فحسب كتابها المدرسى، لأنه كان فخوراً بنتائجها، فلقد كانت فى السنة الأخيرة من الثانوية فى مدرسة سان لوى.

وكان ينسى أحيانا أنها ماتت، فكان يحدثنى كما لو كنتُ أنا ماريما، ماريما الجديدة. وكان هناك شقاً فى داخله، عميقاً جداً كعظمة مكسورة لا تتوقف عن إيلامه. ولم يرد أن يعود إلى هناك مطلقاً، فكان يقول: "لقد هدموا كل شئ، هناك طرق فى كل مكان، أترين، معابر، مطارات، وكل

---

(36) Kayes مدينة بمالى تقع بالقرب من السنغال. (المترجم)

(37) Médine قرية فى مالى تقع بالقرب من السنغال. (المترجم)

(38) طيور طويلة الساق. (المترجم)

(39) طيور من الفصيلة البجعية. (المترجم)

الزوارق قطعت مؤخرتها حتى يوضع محرك، فعجوز مثلى ماذا يفعل هناك؟ ولكن عندما أموت، أريد أن تحمليني إلى بلدى، حتى يتم دفنى فى الأرض بجوار أبى وأمى، فى يامبا، على شاطئ نهر الفاليميه، فهناك ولدت وإلى هناك يجب أن أعود". عاهدته على أننى سوف أمضى معه رغم علمى بأن هذا الأمر على الأرجح مستحيل... وأنا أيضاً، لدى دار مقابر أود أن أدفن فيها.

وأيضا، كان يتحدث عما رآه فى العربية السعودية ريثما قَبَلَ الحجر الأسود للملك جبرائيل، وماء منبع زمزم والذى جلبه فى زجاجة بلاستيكية صغيرة، وجبل عرفات حيث تحرق رياح الصحراء أعين المسافرين. كان وجهه مداراً إلى النافذة، وكنت أرى الجدار الكبير للمبانى المجاورة، كنا نسمع غطيط ليس من بعيد، من هناك حيث توجد جزيرة البوهيميين، ولكن ذهنه لم يكن هنا، لقد كان فى مكان آخر، فى ضوئه. ظللت مع الحاج حتى هبط الليل، وأعددت لنفسى الشاى، وغسلت الأوانى، ثم رتبت أشيائه، وربما كنت أعرف فى داخلى أننى لن أراه ثانية، كاليوم الذى وقعت فيه لالا أسماء فى المطبخ وأدركت أنها ستتوفى.

كان الشتاء هو الذى أهلكه، فكان يشعر دوماً بالبرد، وكان حكيم قد أشترى له مدفأة تعمل بالزيت، وتدور فى النهار والليل، فكان الطقس حاراً فى الغرفة الصغيرة حتى أن العرق كان يسيل على البلاط، وكان الحاج يتوقف عن الكلام كى يسعل سعلة ثقيلة كانت تحدث صوت كمطرقة الحدادة فى جوف رئتيه، وهذا ما كان يؤلمنى. وكان حكيم قد قال لى أنه يعانى من

الاستسقاء الموضعي، وهو مرض كان يمنعه من التنفس، ولكنني كنت أعتقد أنه البرد فحسب، الرياح والمطر والسماء التى تمضى فى الغيوم الرمادية والشمس الشاحبة، وأنه لكل هذه الأسباب كان يستنفذ قواه.

عندما أحسست أنه متعب للغاية، انصرفت، وقبلت يده فأسند راحة يده للحظة على جبيني، ثم هبط بها على عينيي، على أنفي، وجنتي، شفتي. وقال: "إلى اللقاء، يا ابنتى" كما لو كنت بحق ماريما، وربما كان يظن أننى بحق هي، وربما كان قد نسي، وربما غدوت شبيهة بها من فرط المجيء إلى جدها، من فرط سماعه يقص عليّ ما عاشه هناك على شاطئ النهر، وأنا لا أعرف جيداً من كنتُ.

بينما كنت أمضي نحو محطة كوركورن، عبرت جزيرة البوهيميين، وتحولت عن الطريق المباشر حتى أرى جيانيكو، فذات مساء، جاء نحوى كما لو كان يرقبني. كانت تبدو عليه الغرابة، وطلب منى سيجارة، وقال لى بصوت مختنق قليلاً. "برونا باعت طفلها "، وعندما بدا عليّ أننى لم أفهم، كرر وبدا صبره ينفذ: "حقيقى ما أقوله لك، برونا باعت طفلها". هبط الليل، وكانت المصابيح تضئ نجوم صفراء على طوال الطريق وليس بعيداً، على حافة الركام الأسمنتى، وكان مبنى المتجر الكبير مضاءً كقصر أسطورى.

كان قلبى يدق بشدة، وسرت خلف جيانيكو، على طول درب الكلاب المؤدى إلى معسكر البوهيميين، وكنت أسير بسرعة، ولم أصدق ما قاله

لى جيانيكو، فلقد كان يبدو لى أن ما قصه عليَّ هو قصتى أنا، عندما القانى أشخاص مجهولون فى حقيبة كبيرة وحملونى وباعونى من يد إلى يد حتى وصلت إلى لالا أسماء .

قادنى جيانيكو إلى كوخ خشبى سقفه من الصفيح يتكأ إلى عمود أبيض، رأيت بعض الأطفال عن طريق مصباح غازى موضوع على الأرض. وحول الكهف، كانت هناك أكوام من الفضلات، كراتين، علب صدئة، عربة مشتريات مستنفذة، وكان هناك أناس فى العربة الكبيرة التى يسكنها الرحالة، نساء ورجال يأكلون، ضوضاء تلفاز، و كلاب مربوطة فى سلاسل، شعرها أسود مُنتفش. فتح جيانيكو باب الكوخ، وكانت برونا تجلس على فراش من المعسكر، على مرتبة بلاستيكية ترتفع من كل طرف، وبجوارها، كان هناك طفلان، صبية عمرها ست أعوام تقريباً، وصبى عمره أثنى عشرة عاماً، كانت نظرته حادة وكان حاذقاً. كانوا يتحدثون اللغة الرومانية، وطرح جيانيكو بعض الأسئلة على المرأة؛ كان طالعها رقيقاً، شعرها لونه أشقر نحاسي قليلاً، عيناها شديدتا الخضرة، صغيرتان، حيويتان كعينى حيوان. كانت تنصت إلى ما كان يقوله جيانيكو وكان نظرها يمضى منه إلىَّ، كما لو كانت تحاول أن تتبين الحقيقة.

ثم نهضت، وذهبت نحو نهاية الحجرة، وسحبت ستارة، وفى مخدع النوم، كانت هناك عربة طفل سوداء، وفى العربة كان هناك رضيع نائم. قال جيانيكو: "إنها أنثى"، وأضاف بصوت منخفض وبسرية: "إننى

قلت لها أنك تعرفين إناس أغنياء، أطباء، محامين، وبدون ذلك، لم يكن لها أن تريك طفلها "، ولم أعرف بماذا أجيب، و نظرت إلى الرضيعة النائمة و المخفية كلها تقريباً بالثياب المسردة والملابس، وتساءلت: "ما اسمها؟ "

هزت بورنا رأسها، وصار وجهها قاسياً وصلباً، وأجاب جيانيكو بعد صمت طويل: "ليس لها من اسم، من سيشتروها سيمنحونها اسماً".

ولكن عندما خرجت من المنزل، قال لى جيانيكو بصوت منخفض: "أتعلمين، هذا غير حقيقى، هذه الطفلة لها اسم، إنها تُدعى ماجدة "، وفكرت في بياتريس المحررة، ما كانت قد قالته بشأن طفلة حورية من أنه إذا لم تستطع أمها أن تتولى أمرها، فإنها تحب أن تتبناها. قلت لجيانيكو: "لو كان حقا أن هذه المرأة تريد بحق أن تبيع أبنتها فأننى أعرف شخصاً ما يشتريها"؛ قلت ذلك وحلقى مشدود، لأننى فكرت فى ذات الوقت أن شخصاً ما كان قد قال نفس الشئ في السابق عندما أختطفت وأنه من المفترض أن لالا أسماء أجابت هى أيضاً: " أستطيع أن أشتريها أنا". كان الطقس مظلماً ورمادياً هذا المساء، وكانت السيارات تمر من جانب جزيرة البوهيميين محدثة غطيط كنهر فى فيضانه. اصطحبنى جيانيكو حتى موقف الأتوبيس، ثم عدت إلى باريس.

بعد ذلك بثلاثة أيام، مات الحاج، وأخطرنى حكيم بذلك عن طريق صديق له؛ وكنت أعد نفسى 'تلقى درس الفلسفة فى مقهى لا ديسيسبرانس عندما علمت هذا الخبر، فاستقليت على الفور القطار حتى إيفرى –

كوركورن، وكانت السماء كعادتها دوما رمادية ومنخفضة، وكأن الأيام لا تمر، بينما كانوا يتحدثون في المذياع عن الثلج.

كان باب الشقة الصغيرة مواربا، فدخلت في هدوء كما لو كان الحاج لا يزال على قيد الحياة، ولم أرد أن أفزعه. كان المطبخ الذى عادة ما كان يمكث فيه خاليا، وفى غرفة نومه، كانت الستائر منخفضة إلى النصف. رأيت في البداية حكيم من ظهره، بالقرب من الفراش، ثم أناس آخرين لم أكن أعرفهم، جيران بلا شك، رجال مسنين، ، امراءة، فارعة وقوية، ظننت أنها على الأرجح أم حكيم، ولكنها كانت فى مقتبل عمرها، وكان نمطها على الأحرى عربيا، بشرتها بيضاء، وشعرها مموج ومصبوغ بالحناء، ربما كانت هذه السيدة خادمة أو بوابة المبنى. كان الحاج راقدا على السرير، مرتديا ملابسه على أكمل وجه، دوما فى قميصه الطويل الأزرق دون الرقبة وبنطاله الرمادى ذى الثنية المكوية الرائعة، وكان ينتعل حذائه الثقيل الأسود المصقل، كما لو كان يعد نفسه للرحيل فى سفر، و لم أراه أبدا هكذا من ذى قبل: كان شكله متصلبا كقبضة اليد، وكانت عيناه منتفخة الجفون، وكان فمه وأنفه مغلقين ومشدودين، وكان يبدو على وجهه تعبير عن الحزن والضيق، وتذكرت ما قاله عن نهر السنغال، عن قريته يامبا وعن نهر الفاليميه، كل ما كان يحبه في الدنيا، وفى أنه مات بعيدا جدا، وحيدا فى غرفته، فى الطابق الثامن من البرج B الواقع فى طريق فيلابيه.

الآن الكل صامت، كان حكيم ينظر إلىّ بينما كنت أتلمس جبهة جده، لبرهة فحسب، فلمست جلده البارد المحبب بأطراف أناملى؛ وكان الجو شديد الهدوء، شديد الصمت، فوددت أن يكون هناك صخب، كما يحدث فى الأفلام عندما نسمع النسوة تبكين فى تنهدات طويلة مشجية مبالغ فيها، ويكون هناك جلبة من أصوات الرجال وهم يحتسون قهوة الميت، أو كما يحدث لدى المسيحيين فى غمغمات الصلوات. كان هناك كلب يعوى فى الفناء، وكان عوائه عواء حزن، ولكن لم يكن هناك أى شئ آخر، فقط ضوء تلفاز فى مكان ما فى أعلى المبنى، وكان القادمون ينسحبون واجمون متحاشون أن ينظرون إلىّ. وتمنيت أن يكون هناك عازفو التم تم بمحطة المترو حتى يعزفوا دون توقف موسيقى كصوت الرعد عبر الغابة، تحيط بهم ورود، وتغنى سيمون بصوتها الخفيض، "الأسود هو اللون الحقيقى لبشرة حبيبى". خرجت المرأة البدينة بهدوء، وتبينت أنها تشبه لالا أسماء، كانت لها نفس النظرة الشاردة المتأملة قليلاً خلف عدساتها، و لا أعلم لماذا مسكتها من قبضة يدها واقتدتها نحو الفراش قائلة لها: "من فضلك، امكثى قليلاً، لا ترحلين"، فهزت رأسها، وكان صوتها أجشاً، مختنقاً حينما قالت: "لقد كان طيباً". قالت ذلك كما لو كانت تعتذر، انسحبت ببطئ، ودفعت أناملى، فكتها واحدة تلو الأخرى، وكان عليها تعبير بالخوف فى عينيها الخضراوتين، وكان يبدو لى أن حدقتيها السوداوين تسبحان فى منتصف قزحيتها.

نهاية، خلصها حكيم منى، ثم مسكنى من كتفى، كما يجرى مع مجنونة بالهستيريا، فقلد كان حكيم بمثابة أخى، وكنت بالنسبة له كماريما. أحسست على وجهى وكأن أنامل الحاج الهرمة تمر برقة على عينى، على وجنتى، على شفتى، فلم أعد افلح فى التنفس، وكان هناك شئ ما ينتفخ فىَّ، فى صدرى، يكظم حلقى، وتمتمت: "كان لى جداً، ذلك حق، أما الآن فماذا أكون؟"، وكنت أتمتم بكلام غير مترابط، وكان الكلام يخنقنى. ظن حكيم أننى أبكى ولكن لم تكن بى دموع، إنما الغضب، وودت لو أن أهشم كل شئ فى هذا المبنى، وددت لو أشق السماء الكثيفة التى كانت قد منعت الحاج من الرؤية، أهشم الزجاج والستائر، أهشم عربات القطارات والأتوبيسات، قضبان السكك الحديدية، السفينة التى تنتظر وقتاً كبيراً كى تشارف شواطئ نهر السنغال ويامبا على نهر الفلاميه.

شدنى حكيم بسرعة لدرجة أننى انهرت على الأرض بجوار الفراش ورأيت كل ما نزع الحياة عن الحاج، المبولة، زجاجات الكُرتزون[40]، وكل ما سقط منه على الأرض والذى لم يكن هناك وقت كى ينظفه أحد ضمنى حكيم للحظة طويلة فى صدره، وأظن أنه هو أيضاً كان فى حاجة للمواساة؛ وفى لحظة ما، قَبَلَنى، وشعرت بالدموع تنساب على وجنتيه، ثم انتهى ذلك. نهضت وانصرفت، لم أنظر إلى جسد العجوز كامل

---

(40) الكرتزون cortisone هو هرمون ذو فعالية فى معالجة التهاب المفاصل الرثيانى.

(المترجم)

الثياب على فراشه. اعتقدت أنه لن يعود إلى بلاده على شاطئ النهر، سيظل في فيلابيه في دار الموتى حيث سيجدون له موقعاً صغيراً؛ وبدلاً من النهر، سيسمع ضوضاء السيارات على الطرق السريع، وهل لهذه الأشياء أهمية ؟. في القطار، المشابه للصحراء في هذه الساعة، رأيت الليل يهبط عبر الزجاج القذر، أظن أنني كنت أفكر في ماجدة أكثر من الحاج، وكان القئ على شفتي، ولم أكن قد تناولت أو شربت شيئاً في الصباح.

قبل أن أدخل باريس، تركت نفسي أقع في شراك مفتشي القطار؛ وعادة كنت أراقبهم جيداً، فكنت أهبط لحظة صعودهم؛ ولكن هذا اليوم، نسيت نفسي، وكنت في حلم، فاترة الهمة، كما يحدث لإنسان على أثر الإصابة بألم شديد. ربما كانوا قد شاهدوني من ذي قبل، وعندما نظرت إليهم كانوا أمامي، وجاءوا تجاهي مباشرة متجاهلين الركاب الآخرين؛ وكان هناك الأطفال البوهيميون – الذين رأيتهم لأول مرة مع جيناكو –، فأسرعوا في الفرار مظهرين لهم أصابعهم، ولكن رجال التفتيش كانوا يبغونني أنا؛ وفي البداية، كانوا مهذبين معي ورسميين تقريباً.

قال أحدهم: "آنستي، ما معك من بطاقة سفر، تفضلي بإخراج بطاقتك الشخصية لنا"، وعندما قلت لهم أنني ليس معي بطاقة شخصية، ومن ناحية أخرى، حتى لو كانت معي، ما كان لكم الحق في طلبها مني. أصبحوا أقل أدباً وقال أحدهم: "في هذه الحالة، تمضين معنا إلى المركز".

كانوا عبارة عن زوج من الرجال متناقضين فى الشكل، أحدهم فـارع وقوى، ذقنه ثنائى وشاربه صغير ولونـه أشـهب، أمـا الآخـر فقصـير وأسمـر البشرة ويبدو عليه الانفعال، وهو يتكلم بلهجة مدينـة تولـوز[41]. أخذانـى، كل واحد منهم مـن ذراع، ومـروا بـى فـى القطـار مـن عربـة إلى عربـة حتـى القاطرة، ثم أجلسانى بينهما على مقعد صلب بجوار الباب، وقلت لهما إنهما يتعسفون فى اسـتخدام القـوة وإنـه لم يكـن لهمـا أن يلجـأ إلى العنـف معـى، ولكنـهما ظلا غير مكترثين بما أقول. استمر القطار فى السير نحو باريس، ثم هبط الليل، وكان حارسى يتحدثان فوق رأسى كمـا لـو أننـى لم أكـن بينـهما، كانا يتبادلان أخبار مكتبـهما، ويقصـان حكاياتـهما؛ وكـان بوسـعى أن أثـير شفقتهما بأن أقص عليهما أن جدى مات وأنه لهذا السبب افلحا فى مبـاغتتى فى القطار، ولكننى لم تكن لدى الرغبة فى أن يشفقا علىَّ فى أى شئ، ولا مـن أجل أى شئ فى الدنيا، و لم أرد أن استخدام الحاج فى الحصول على ميزة من مثل هؤلاء المرتزقة.

فـى محطـة اورسـترليتز، حملانـى إلى مكتـب صغـير خلـف منـافذ التذاكر، ثم تركانى أنتظر ساعة كاملة، وفى خلال كل هذا الوقت، ظـلا أمـام الباب يشعلان السجائر ويتبادلان نكاتهما، فظننت أننى سمكة صغيرة فى يد رجلين قويين للغاية يرتديان زياً موحـداً، ويحمـلان أصفادهمـا ومسدسـيهما

(41) إحدى مدن الجنوب الفرنسية وتتميز بلكنتها المختلفة فى تنغيم الأصـوات عـن اللهجـة الباريسية. (المترجم)

الأوتوماتيكيين، ولكن ربما كانا يعتقدان أن ما من شئ عديم المغزى في الحياة، وأن هناك أناس يحبون الاعتقاد في ذلك.

وصل رئيسهما، أراد أن يستجوبني، فجلس بالقرب من وجهي، وقال: "ما اسمك؟"

– ليلى.

– هل أنت بالغة؟

– لا أعرف، نعم، لا، ربما.

– أين أبوك؟

– في أفريقيا.

وهنا ساءت الأمور، وكان رئيس المكتب قصير لا شأن له، يدعى كاستور، وكان ذلك على الأرجح اسمه الذى فككت رموزه من على مظروف وضع مقلوباً على مكتبه.

– أليس معك مستندات شخصية ؟

كانت المخاطبة بصيغة أنت علامة على الانفعال؛ وحتى أهدأ الموقف، طرأت عليّ فكرة طيبة، فقلت له: "يمكنك أن تستدعي محاميتي"

– أتريدن أن أصفعك صفعة؟

لم يكن ذلك بمثابة الوسيلة المثلى لتهدئتهم، فقلت: "حسناً، هي ليست بحق محاميتي، إنها السيدة التي تهتم بأمري، وهي تعمل محررة ".

أعجبهم قولى، فأمليت عليهم اسم ورقم هاتف بياتريس، على أنـها محررة أو معلمة، فلم يكن ذلك مختلف كثيراً، ولم أرد أن يذهبوا حتى شارع جافلو، حيث كانت هناك مضايقـات كافيـة تواجـه كـل مـن نونـو وحوريـة، ولحسن الحظ، أننى منذ أن دخلت إلى بـاريس، فعلـت كـالفدائيين فـى أفـلام الحرب، نزعت عنى كل ما يمكن أن يفيد في التعرف على هويتى.

قَدمت بيـاتريس علـى الفـور فـى سياراتها الصغـيرة الإنجليزيـة، فسددت كل شئ، التذكرة والغرامة، وحتى أنها تلقت منهم وعظاً .

كانت السماء تمطر رذاذاً، وكـانت ماسـحة زجـاج السـيارة تحـدث صريراً على الواقيـة مـن الريـح، كمـا لـو كـانت السـماء تمطـر رمـالاً، وقلـت لبياتريس: "لن أستطيع أن أعود إلى منزلى".

نظرت إلىّ للحظة، وبحثت عـن شـئ تجيبنـى بـه، ثـم قـالت: "إذا شئتِ، يمكنك أن تأتى لتنامين فى منزلى، ريمون لن يقول شيئاً ".

ولم يكن هناك من شئ أكثر من ذلك يسـعدنى، وضعـت رأسـى علـى كتفها، فلقد كنت فى هذا المساء فـى حاجـة إلى أن أومـن أن لى شـخصا مـا فـى الحياة، صديقة أو أخت كبرى.

مكثت وقتاً طويلاً فى مـنزل ريمـون وبيـاتريس، وأظـن أننـى كنـت متعبة للغاية، ولم ألحظ ذلك، لأننى كنت أغدو وأعود، ومـر بـى الكثـير مـن الأحداث: رضيعة حورية ونونو والدروس والمشـتريات وسـيمون التـى كـانت

لدينا، والحاج الذى رحل عن الدنيا، وفجأة، لم تعد لدى القوة، كاللحظة التى تركت فيها منزل السيدة وحملنى نونو إلى شارع جافلو.

مكثت عشرة أيام فى منزل بياتريس، أو ربما شهر، لا أستطيع أن أجزم بذلك. فى خارج المنزل، كان الطقس بارداً، داكناً، أو لربما كانت السماء تثلج، فظللت راقدة على الفراش الموضوع فى جزء من الصالون يستخدم كمكتب، بينما ظلت بياتريس تنام فى حجرة نومها، وكانت هناك كتب فى كل مكان، فى كراتين وعلى الأرفف، فكنت أمضى وقتى فى قراءة الروايات أو كتب التاريخ وأيضا الأشعار. كنت أطالع مالابرت[42]، كامى[43]، أندرية جيد[44]، فولتير، دانتى، براندلو[45]، جيليا كريستفا،

---

(42) Malaparte كاتب إيطالى عاش بين 1898و 1957. من أشهر رواياته " الجلد " La peau 1949. (المترجم)

(43) Albert Camus روائى فرنسى عاش بين 1913 و 1960 من أهم أعماله الروائية "الغريب" L'étranger 1942 "والطاعون" La peste 1947 . حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1957. (المترجم)

(44) André Gide روائى فرنسى عاش بين 1869 وعام 1951. من أهم أعماله "الأطعمة الأرضية" nourritures terrestres 1902، "والباب الضيق" La porte étroite 1906 "وعندما لاتموت الحبة" Si le grain ne meurt 1920-1924. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1947. (المترجم)

(45) Pirandello كاتب إيطالى عاش بين 1867 و 1936. من أهم أعماله "لكل حقيقته" 1917 و "ستة أشخاص تبحث عن مؤلف" 1921. حصل على جائزة نوبل عام 1934.(المترجم)

ايفان اليش[46]. فوجدت أنهم جميعاً يستخدمون نفس الكلمات ونفس الصفات، ولم يكن ذلك أمراً مؤثراً، ولم يكن مؤلماً، فلقد كان ينقصنى فرانز فانون. حاولت أن أتخيل ما يمكن أن يقوله، وكيف كان يمكن له أن يتحدث عن الدين، وضحكته الساخرة أمام مثل هذه السخافات. كان الشعر الذى طالعته غريباً، كما لو كان ليس لمثلى ولا يخاطبنى؛ ومع ذلك، كنت أحب أن أنتقى منه الكلمات لكى أغنيها، لكى أطلقها فى الغرفة، ثم أسمعها ترتد، تتحطم إلى ألف قطعة، أو على العكس تسقط مفلطحة على الأرض كفاكهة زابلة؛ وكنت أمسك بكراس أسطر فيها الكلمات التى كنت أعثر عليها وكذلك أطراف جمل:

طقس

ظلال

طائر القيثارة[47]

مصقلة الفجر

يحرف

الأمواج ترتطم

طرقعة السماء.

---

(46) Ivan Illich كاتب من أصل نمساوى ولد فى فينا عام 1926 أنشأ جامعة حرة فى المكسيك. عُرف بمهاجمته القاسية لأنظمة التعليم. (المترجم)

(47) طائر القيثارة هو طائر به ريشتان طويلتان تجعله يبدو كالقيثارة. (المترجم)

وكان ذلك لا يعني شئ. كانت بياتريس تعود حوالى الساعة السادسة، كانت تفتح الباب وتُدخل تحمل معها نسمة من المدينة، من الضوضاء، من الدخان؛ وكان ريمون يأتى بعد ذلك، فكان يحمل الخمر، وكنا نتناول نحن الثلاثة فى المطهى، فطائر حبقية و جبن، وكنت أحب أن أظل معهما، فلقد كانا أناس أمناء جداً وواضحين جداً وطيبين جداً.

أجلت لحظة التحدث إليهما عن ماجدة، فلقد قلت لنفسى أننى ما إن أتلفظ باسمها، حتى لا يكون أمامى إلا أن أنصرف، وسيعود من جديد الشارع المفتوح والناس الذين يدفعوننى و ضوء السيارات ومدخل شارع جافلو المشابه لدهليز يؤدى إلى مركز الأرض.

كانا يتحدثان عن مهنتهما، فكانت بياتريس تقص ما يحدث فى يومها: صرخات رئيس عملها، المحادثات الهاتفية، مشكلات لم أفهم منها شئ، كما لو كان كل هذا العالم مشفر، أما ريمون فكان يتحدث بكلمات أحادية المقطع، وكان يتدرب فى مكتب محاماة بعيداً فى منطقة سارسيل أو فى منطقة فلرى – موراجيس، وكان مكلف بشئون الآخرين.

حاولت أن أتخيل حياة ماجدة لديهما: ماجدة في الغرفة المدهونة باللون الوردى، لها فراش بهى كله أبيض، والبلور الذى تنبعث منه موسيقى والذى يعلق فى هذا البلد فوق الرضع لتعليمهم الصبر، و ماجدة مهرولة نحو المطبخ مادةً ساعديها الصغيرين نحو ريمون صائحة: "دادا"، فيقول لها: "جولى" أو "رومى". وعلى أية حال، لم تكن القضية أن يعرفا

اسمها الحقيقى، فربما ذات يوم، عندما تكبر، سأكون بالنسبة لها بمثابة خالتها، ويمكننى حينئذ أن أخبرها بالحقيقة قائلة لها: "سوف أقول لك اليوم اسمك الحقيقى، الاسم الذى ولدت به"، وربما سيقول لها ذلك جيانيكو، فقد تقابله ماجدة مصادفة فى ممر مترو، فى محطة ريموير – سيباستوبول، و يناديها حينئذ صائحاً: "ماجدة، ابنة خالتى".

سماها كلير، لأن ذلك الاسم كان اسم أم ريمون ، وسماها جوهانا، ذلك أن بياتريس كانت تحب هذا الاسم، وكانت تغنى لها: "هيا ياجوهانا"، وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها أثناء حرب فيتنام كالكثير من الصبية الآخرين.

لم أعرف كم دفعا فيها، فلقد ظللت بالخارج، فى الريح، أسمع صوت السيارات المتدفقة حول الجزيرة، كانت هناك غربان فى السماء، كما حدث فى يوم ميلادى، ولكن الغربان لم تكن تصيح صيحات الهلع.

حدث كل ذلك فى هذه الفترة، وربما فعلا ذلك بسبب رحيل حورية إلى منزل السيد في، وأصبحت أعيش بمفردى، ولكى أكسب قليلاً من النقود، عُينت من قبل هيئة للبكم الصم كى أضع بطاقة على مناضد المطاعم مع حاملة مفاتيح فأجمع القليل من النقود؛ وكنت أنتبه جيداً عندما كنت أمضى أضع حوامل المفاتيح فى مطاعم المركز التجارى، أو عندما كنت أمضى أستمع للموسيقى فى محطة ريومير، ولم أكن أمر مرتين من مكان واحد قط، وكنت أتحاشى الدهاليز المهجورة والبوابات الكبيرة و لم أكن أنظر إلى أى شخص فى عينيه.

كنت أعرف العصابات من بعيد، حيث كانوا يشكلون مجموعات صغيرة في الشارع بجانب إيفرى أو في جانب ميدان جان دارك، وما إن كنت ألمح مجموعة منهم، أسرع فأعبر الشوارع بين السيارات وأختفى في الجانب الآخر، كنت سريعة وماهرة جداً، وما من أحد كان بوسعه أن يلحق بي. وفي بعض الأحيان، كان ينتابنى إحساس أن هذه هى الغابة، أو الصحراء، وأن هذه الشوارع عبارة عن أنهار، أنهار كبرى من الماء المغلى الذى تغرس فيه الصخور، وأننى ألقى بنفسى من صخرة إلى أخرى وأنى أتراقص. كانت ضوضاء منبهات السيارات وغطيط المحركات تأتى من تحت الأرض وتصعد عبر ساقاى، ثم تملأ أحشائى. وبالرغم من ذلك لم أرى هذا الرجل وهو يتقدم إلىّ؛ فعلى الساحة الكبرى التى مسحتها الرياح وأضاءتها الفوانيس، كان يبدو طبيعياً ككل الناس، في واقى المطر وقبعته العسكرية، وكانت يداه في جيوبه، وكان وجهه أشهب، وكنت آنذاك منهمكة في حصر النقود التى جمعتها من مطعم الفيتناميين، مائة أو مائة وخمسين فرنكاً، في بضعة دقائق، دون أن أفعل شئ سوى وضع حوامل المفاتيح على حافة كل منضدة مع بطاقة تدل على أننى صماء بكماء.

في اللحظة الأخيرة، رأيت نظرته لى، ثم انتابنى خوف لأننى عرفت من قبل عيون هابيل القاسية الثاقبة حينما تبعنى إلى مغسل الثياب، ولكن كان قد فات الآوان، فمسكنى من قبضتى يدى وشدنى بقوة هائلة دون أن يقول كلمة. على الأرجح أنه راقبنى، ثم جاب المتاجر حتى يعود ويجدنى في

المكان الذى كان يرغب أن يجدنى فيه، فى حائط التقوية، الواقع بين جدار البرج والمتاجر المغلقة.

أردت أن أصرخ، ولكنه دفع يده على جوفى ولكمنى كما لو كان يريد أن يكسرنى إلى جزأين، وفقدت النفس وانهرت وأصبح ساعدى وساقاى عديمى الحركة. كان هذا أمراً غريباً لأننى مع ذلك كنت أعلم ماذا سيحدث لى، كنت خائرة القوة كما يحدث للإنسان لحظة الكابوس. نزع أزرة بنطالى الجينز بإحدى يديه، فلقد كان قوياً وماهراً، وباليد الأخرى مسكنى من الخلف في مواجهة حائط التقوية، وأتذكر أننى شممت البول، وكانت هناك رائحة مفزعة هاجمتنى، وجعلتنى أتقياء، وأبان عن نفسه وحاول أن يفعل بى وهو يدفع كليتيه، وكان تنفسه يحدث صوتاً، فيرن فى زاوية المبنى.

لا أعلم كم من الوقت استغرق هذا الأمر، ولكنه بدا لى وكأنه أبدى: هذه اليد الموضوعة على صدرى، وهذه اللكمات الموجهة إلى جوفى، وأنا التى لم يكن بوسعها التفكير ولا التنفس. وكان يبدو لى أن هذا لن يبلغ نهايته مطلقاً. ثم انسحب الرجل، وأظن أنه لم يفلح لأننى كنت قصيرة بالنسبة له، أو لأن شخصا ما قد ضايقه، فرحل بسرعة، وظللت أنا فى الركن، وكنت مثلجة وواهنة، وكنت أنزف دما على الأسمنت. هبطت السلم حتى الشارع وعدت إلى الكهف، سخنت مغلاة ماء حتى أغتسل فى حمام رضيعة حورية؛ كان كل شئ ساكناً ومختنقاً، وكان يبدو لى أننى صماء تماما فى هذه اللحظة، ولم أكن أعلم أين كنت، و أعتقد أننى تقيأت فى الحمام فى نهاية المر، وأظن

أننى صرخت، فتحت باب الإنقاذ وصحت فى النفق، وأنا أزأر حتى يصعد ذلك إلى أعلى الأبراج ولكن لم يسمعنى أحد، فلقد كانت هناك محركات تهوية، تنطلق الواحد بعد الآخر مع رجة كرجة طائرة، فابتلع ذلك كل صراخى. فكرت فى سيمون، فلقد كانت لدى رغبة محمومة فى رؤيتها وفى أن أكون بجوارها وهى تردد مقطعاً موسيقياً، ولكننى كنت أعرف أن ذلك أمراً مستحيلاً، وأظن أننى غدوت بالغة فى هذه الليلة.

كان أمراً طيباً أن أكون نائية عن كل شئ فى منزل بياتريس، فمنذ وقت طويل لم يحدث أن كنت فى مأمن دون تفكير فى الغد، ودون هموم، وكنت أفعل ما أريد أن أفعله فى الشقة، فى ترتيب الأشياء بهدوء، فى مراقبة الرضيعة مثلما كنت أفعل عندما عادت حورية من المستشفى، مع وجود فارق وهو أنه فى منزل بياتريس، كان هناك الضوء والشمس، وكان الطقس رائعاً ولم يكن هناك ما تُخشى عقباه؛ وكانت نافذة البهو تطل على فناء داخلى صغير حيث ينبت شجر اللبلاب، وكان ورق الشجرة ملئ بعصافير الدورى، حتى أننى ذات صباح، وجدت دورياً على حافة النافذة، وكان مغشياً عليه، وكان ريشه مشعث، فأخذته وسميته هارى، ثم أخذت كرتونة أحذية من الدولاب الخشبى، ومن القطن صممت له عش أملس، ثم وضعته فى غرفة الرضيعة بجوار فراشها ؛ وكان ذلك أمراً يدل على عذوبة وحنان، كما لو أننى لم أرى شيئاً رديئاً فى الدنيا، وكما لو لم يكن هناك عصابات ولا عَسكر ولا فتيات مقهورات ولا شيوخ يموتون من الجوع فى

أكواخهم القذرة ذات المصارع المغلقة. أعددت قارورة الرضاعة لكلير، أو لجوهانا – وكنت أفضل هذا الاسم الأخير – ثم أخذت بعض قطرات الحليب الساخن كي أمزجها بباطن الخبز.

في علبة الأحذية، كان هارى مبللاً، ولكن ريشه بدأ يجف من الماء، وكان ينظر إلى وأنا أضع كرات الخبز أمامه دون أن يتحرك، عدا عينه السوداء التى كانت تبرق، ثم أعطيت قارورة الرضاعة لماجدة – لم يكن بوسعى حتماً أن أنسى اسمها الحقيقى – وفى اللحظة التى انتهت فيها الرضيعة من تناول الحليب، بدأ العصفور يزقزق ويحمحم فى العلبة.

لا أعرف إن كان قد أفلح فى التهام قطعة الخبز الصغيرة أم لا، ولكن درجة الحرارة المناسبة في الغرفة الصغيرة أنعشته كلية، وبعد ذلك بلحظة طار، وأخذ يقرقع خشب النافذة ؛ ومن الجانب الآخر فى أوراق الشجرة، كان رفاقه الصغار يطيرون في كل اتجاه وينادونه، مما جعلني أفتح النافذة ليفر على الفور؛ وفى خلال ثانية رأيته يختلط بعاصفير الدورى الأخرى، كانوا يتزوبعون كأوراق فى الريح، وبعد مرور لحظة من ذلك، أختفى هارى معهم.

بينما كنت أمد قارورة الرضاعة إلى جوهانا، رأيت المفتشين فى الأسفل في الشارع، كانوا يرتدون ملابساً على نهج كل الناس: وقاء مطر وسترة و أحذية تزحلج، ولكننى عرفتهم جيداً، فقلد كان لدى حاسة تجاه هذا الصنف من الناس؛ وكانوا ينظرون نحو نوافذ المبنى كما لو كانوا يسعون

للرؤية من خلال الستائر، ثم دخلوا إلى المبنى، ومن الجائز أنهم طرحوا أسئلة على البواب البرتغالى الذى لا يحبنى، ثم دقوا جرس الباب بشكل مستمر، فصَيّحَ دقهم للباب جوهانا، وكان دقهم يرن فى أعماق رأسى كصيحة حشرة.

لم أتحرك من مكانى حتى رحلوا، وكنت مضطربة، ولم يكن بوسعى أن أظل دقيقة واحدة أكثر من ذلك فى المنزل، ومع ذلك لم يكن بوسعى أن أترك جوهانا بمفردها تصرخ فى مهدها؛ حينئذ بحثت عن رقم هاتف بياتريس فى جريدتها، وكنت مضطربة إلى حد أننى وضعت سماعة الهاتف على أذنى الصماء، و لم أكن أسمع شيئاً مما يُقال، وكنت أكرر كلماتى كالبغبغاء: "بياتريس، من فضلك، عودى فوراً، من فضلك، عودى فوراً، الأمر عاجل، من فضلك يا بياتريس"؛ وفى اللحظة التى دلفت فيها أغلق الباب، دق جرس الهاتف، وبوضعى للسماعة على أذنى السليمة سمعت بياتريس تقول لى: "ليلى، ماذا يحدث؟ "، فقلت لها أن تعود، لأنه ينبغى علىَّ أن أرحل، وكنت فى هذه اللحظة هادئة للغاية، فوضعت سماعة الهاتف قبل أن تطرح علىَّ أسئلة أخرى؛ ثم نامت الرضيعة جوهانا، وحينئذ مشيت فى الشوارع نحو محطة اوسترليتز.

عدت إلى شارع جافلو، وعندما سرت فى النفق الطويل حتى باب مبيت السيارات حيث طُلى رقم 28، كان قلبى مقبوضاً، فلقد بدا لى أننى لن يمكننى أن أعيش فى هذا المكان، وأن حياتى لابد وأن تكون فى مكان آخر،

لا يهم أين، بل أنه ينبغى أن أرحل وحسب؛ وكان جيانيكو يقول مثل قولى هذا "أتعلمين، فى بعض الأحيان، ينبغى علىَّ أن أفر، فالأمر أقوى منى، وبعد ذلك، ربما أعود، ولكننى إذا بقيت هنا، فسوف أقتلك وأقتل نفسى"، وفى هذه اللحظة، أدركت ما كان يعنى أن يقوله.

فى شقتنا، لم يتبدل شئ، كنا نختنق من جهاز التدفئة الذى كان يرهق شركة الكهرباء حتى الموت، و لاحظت أن نونو جلب أجهزة جديدة، أجهزة تلفاز، أجهزة عرض مرئية، تسجيل كبير، وكانت هناك أيضا دراجة نارية جديدة، حمراء اللون مقعدها فى لون جلد الحمار الوحشى، ولم أدرك لماذا كان لدى إحساس أننى أدخل آنذاك إلى منزل أطفال، وأعطانى ذلك رغبة فى أن أضحك وأبكى فى آن واحد.

على الفراش وجدت مظروفاً يحمل اسمى، ولم أكن أعرف الكتابة الأنيقة الكلاسيكية، وكان مدوناً عليه: "إلى الآنسة ليلى، باريس"، فتحته ولم أدرك الأمر على الفور، وكان ذلك جواز سفر باسم ماريما مافوبا.

كان الكهف خالياً، فلم يعد هناك أى أثر لحورية ولا لبسكال ماليكة، ولم يكن مهدها هناك، فأحدث ذلك الأمر فىَّ شيئاً ما، حتى ولو أننى أدركت فى أعماقى أنها رحلت من أجل شئ أفضل من هذا المكان وأنها من الممكن ألا تعود.

فى جواز السفر، فى موضع الصورة، كان هناك خطاب، وتعرفت على خط حكيم الردئ، فلقد كنت أجد مشقة دوماً فى مطالعة محاضراته.

ما كان يقوله في الخطاب كان سهل الفهم، ومع ذلك فلقد قرأته واعدت قراءته دون أن أفهم: "عزيزتي ليلي

قبل أن يرحل جدي، كان قد وضع جانباً جواز السفر لك، وكان يقول أنك كابنته، وأنك أنت التي تستحق جواز السفر هذا، حتى تذهبين إلى حيثما تريدين، كالفرنسيات، لأن ماريما لم يكن لديها الوقت لتستخدمه؛ ستفعلين ما تريدين، أما بالنسبة للصورة، فإنك تعلمين أنه بالنسبة للفرنسيين كل السود متشابهون.

أردت ان أراك قبل أن أرحل، فلقد قررت أن أحمل الحاج إلى بلده على الرغم من كل شئ، ولقد اقترضت من البنك من أجل دراستي، وهو ما يفيدني في ذلك الأمر، إن الأمر ينطوي على خسارة لأنك لست معنا حتى نذهب إلى منزل جدي في ياما ؛ ولكنك الآن وبحوزتك جواز السفر هذا، يمكنك أن تذهبي إليها في يوم ما، وسوف أشرح لك أين يوجد قبره. أعانقك.

حكيم ".

******

عندما علمت الأمر، أحسست بالدموع في عيني، ولم يحدث ذلك منذ موت لالا أسماء، فلم يقدم لي أي إنسان هدية مماثلة، اسم وهوية. وكان ذلك بمثابة أمر يجعلني أفكر فيه، هذا العجوز المكفوف الذي كان يضع برفق أطرف أنامله المستهلكة على وجهي وعلى جفوني وعلى وجنتي. ولم يخطأ الحاج ولو لمرة واحدة، فإذا كان يلقبني بماريما، فلا يعني ذلك أنه فقد

صوابه، بل كان ذلك ما أراد أن يفعله أن يمنحنى اسماً وجواز سفر وبالتالى حرية فى السير.

أدركت أن فصل الربيع لم يكن ببعيد عندما أخذت أشجار المركز التجارى فى الأزهار، فلقد كانت هناك أشجار غريبة صغيرة غرسها الفيتناميون، أشجار خوخ، أشجار كريز، أشجار دُراقن قذمية، تلك التى كانت تندثر بزغب أبيض أو وردى؛ وكانت السماء دائماً شهباء وممطرة، ولكن النهار أصبح أكثر طولاً، وكانت كرات المطر الهشة تدخل السعادة على قلبى.

منذ أسابيع لم أعد أعرف أخباراً عن نونو ولا عن أى إنسان، ولم أعد أذهب إلى محطة ريومير - سبستوبول لكى أستمع إلى موسيقى الجامبه. هتفت إلى سيمون، ولكننى لم أجد على آلة الرد الهاتفى سوى صوت الطبيب جوبيه، الصوت الأنيق المُحتقِر الذى كان يرعشنى، فلم أترك اسمى على الآلة. وبمفردى فى الكهف، كنت أسمع، أحيانا فى الليل، طقطقات الديزل أمام الباب، فكان قلبى يدق بشدة لأننى كنت خائفة، ولكن خوفى كان فى خيالى.

جاء نونو ذات ظهر يوم من الأيام، ولو كان قد جاء بعد ذلك بقليل، ما كان لى أن أتعرف عليه، فلقد كان حليق الرأس، وكانت له نظرة غريبة، قلقة، جانبية لم أكن أعهدها عليه. قدمت له الطعام، فطائر محشوة بالجبن والتى كان يحبها، وتفاح رمادى أحمر، وخبز من نوع نيتلا. ظننت أنه سوف يقص علىّ ما فعله وأين كان، لكنه لم يقل شئ، فقد تناول الطعام على عجل،

وارتشف أكواب كبيرة الحجم من الكوكا؛ وكانت هـذه هـى المرة الأولى التى أراه فيها غير معتنى بذقنه، فكـانت هنـاك شعيرات تنتفش علـى وجنتيـه وذقنه وشفته العليا، فقلت له: "أكنت فى السجن؟"

فلم يجب، ثم أشار بنعم عن طريق رأسـه، ومـا إن فـرغ مـن تنـاول الطعام، رقد على فراشه، واضعاً رأسه بين زراعيه، ثم نام فجأة.

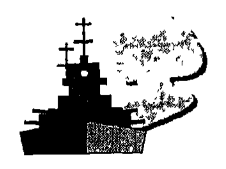
كنـت فـى حاجـة إلى الإحساس بحرارتـه، منـذ أيـام وأنـا أعيـش بمفردى فى الكهف، دون أن أتحدث إلى إنسان، كنت فقط أستمع إلى الموسيقى على مذياعى القديم ذى البطاريات. رقدت بجانبه، ووضعـت زراعـى حولـه، ولكنـه لم يستيقظ، وظللنـا سـاعات هكـذا دون أن نتحـرك، كنـت أسمـع تنفسه؛ وحاولت أن أخمن أين ذهب أثناء كل هذا الوقت، ولا أفعل شئ سوى أن كنت استنشق رائحته من عنقـه ومـن ظـهره؛ وعندمـا استيقظ، تضاجعنـا فى هدوء، مثلما فعلنا المرة الأولى. وقبـل أن نفعـل، مضـى يبحـث عـن واقـى فى جيب قميصه، وهو الذى أراد أن يضع هذا الواقى وليس أنـا، وأظـن أننـى لم أكـن حتـى قـد فكـرت فيـه. ولا فـى المستقبل، ولا فـى الأطفـال، ولا فـى المرض.

ثم ذهبنا سويا على سقف البرج متخذيـن الطريـق السـرى: المصعـد حتى الدور الواحد والثلاثين، ثم باب إطفاء الحريق، ثـم السلم وسلم رجـال الإطفاء الصغير. كانت السماء تقتطع مربعاً أزرقاً من الفولاذ فوقنا، كنافذة فى فضاء لامتناهى، وفى هذه اللحظة، أدركت أنه على أن أرحل.

على سطح الأرض، كانت الرياح تهب على كبلات الأعمدة وأعمدة التليفونات، فتحدث صوتاً غريباً هنا فى وسط هذه المدينة النائية جداً عن البحر، على الرغم من سير السيارات البطئ للغاية أسفل المبنى فى شارع إيفرى العريض باتجاه بلاس ديتالى، وإلى أبعد من ذلك على الأرصفة أو على الطريق المحيطى، والذى كان سيرها فى أفواج رائعاً للغاية كمد البحر حين يصعد الجرف. وفجأة شعرت بالخواء الذى كان بمثابة رغبة تصعد فىّ فتؤلمنى، وكان ذلك بسبب البحر، فمنذ زمن بعيد لم أعد أسمعه، وكان ذلك شئ يدعو للدوار، سرت حتى حافة السقف، مائلة تجاه الريح، كما لو كان بوسعى أن أرمق البحر هناك، ولحق بى نونو، و لم يكن يدرك الأمر فقال: "ماذا تفعلين؟ أمجنونة أنت ؟ أتموتين؟"، فظننت حينئذ أنه ربما كان الأمر كذلك عندما يقفز الإنسان من النافذة لأنه يعتقد أنه سيجد البحر تحته. تعلقت بنونو قائلة له: "ضمنى إليك، ضمنى بقوة يانونو، إننى أشعر بالألم"؛ وأجلسنى أمام مربع محرك المصعد بعيداً عن الريح، وكنت أرتعش من البرد ومن الإضناء، فنزع نونو عنه قميصه الجلدى القدى ووضعه فوق ظهرى، وقال فى بساطة: "هاكى ياليلى، سأعطيه لك، هكذا ستفكرين دائما فىّ "؛ وكان وجهه أملسا ومنبسطاً، ورأسه كبيرة الحجم إلى حد ما، كرأس القزم، ولكن عيناه كانت رقيقة، سوداء جداً وحانية جداً. ظننت أنه أدرك أننى سأرحل، و ربما أدرك هذا الأمر قبلى، ولهذا السبب جاء إلىّ.

كل شئ سيتغير الآن، كان ذلك بمثابة لحظة تُختم، كنت على السقف فى الطابق الثانى والثلاثين إلى أعلى، أعلى السلم الصغير، كنت أسمع الريح وعيناى تزرفان الدمع من كثرة زرقة السماء كالمرة الأولى التى وصلت فيها إلى هنا وحملنى نونو إلى هذا المكان.

على المنضدة التى كنت أعمل عليها وإجابات الفلسفة للأستاذ حكيم، كان هناك خطاب وكيل الدائنين والذى جاء فيه أنهم اكتشفوا تزويراً فى عداد الماء وكيلووتات مسروقة دون أى تبرير، وأن البحث جارى، وأن المجرمين سيُكتشف أمرهم وسيتم طردهم ومعاقبتهم كما ينبغى. تركت الخطاب فى مكان واضح حتى يكون نونو على علم به، وصفعت الباب الحديدى لرقم 28 بشدة حتى أن الصوت ارتفع إلى قمة البرج.





استقلينا القطار المتجه إلى مدينة نيس، واستخدم هنا ضمير الجمع، ولكننى في الواقع، كنت بمفردى التى كان معها بطاقة سفر.

صعد جيانيكو معى إلى عربة القطار، كما لو كان سيودعنى، ثم تسلل فى العربة، ومكث فى حاملة الحقائب، فعل هذا ليمزح لأنه فى الواقع لم يكن فى حاجة إلى ذلك، فلقد كان يعرف كيف يراوغ مفتشى القطار وكان ذلك الأمر بمثابة مهنته.

لم يكن هناك سوى ثلاثة أشخاص في العربة، اثنان فى الأسفل، وأنا فى عربة النوم إلى أعلى، وبقيت للحظة طويلة فى ممر العربة أشعل السيجارة بعد الأخرى، ناظرة إلى الأضواء تتراجع إلى الخلف ؛ ثم هبط

جيانيكو من مجثمه، ولم يقل شيئاً. ولقد رأيت أن الصفعة التى تلقاها على وجنته تحول موضعها إلى اللون الأزرق - الأسود، وكنت قد فكرت أنه بإمكانه أن يرحل معى عندما علمتُ أن زوج أمه صفعه.

لم أعد أعرف من منا كان صاحب فكرة الرحيل فى البداية، ربما كان هو، فمن فرط تكراره للجملة: "فى يوم ما، سأهشم نفسى"، جاء هذا اليوم.

حدثنى جيانيكو عن خاله فى مدينة نيس، شقيق أمه، رجل يدعى رامون يورسى. ولكى يمكنه الصعود فى القطار، كان ينبغى عليه أن يكون فى صحبة شخص آخر، ومعى كان أمره يسيراً، ولكنه بأى وسيلة، كان سيسافر، فكان بوسعه أن يبحث عن شاحنة كبيرة فى رنجيس[1] أو فى محطة خدمة سيارات.

ولقد سبب رحيلى شيئاً ما فى نفسى، فمنذ وقت طويل جداً وأنا أقيم فى مدينة باريس، وكنت أشعر أننى أقيم بها منذ سنوات وسنوات، حتى أننى لم أعد أتذكر جيداً متى وصلت فى محطة اوسترليتز مع حورية. ولقد مرت بى أحداث كثيرة، حتى أننى أشعر بنفسى عجوزة الآن، ليس عجوزة بحق، ولكننى مختلفة، أكثر ثقلاً من خبرتى. والآن لم أعد أخاف من

(1) Rungis منطقة بأحد ضواحى باريس مخصصة لتلقى وبيع البضائع بالجملة حيث تُحمل إليها شاحنات كبيرة من مختلف المدن الفرنسية ومن بعض البلاد الأوربية. (المترجم)

نفس الأشياء التى كنت أخاف منها، فأستطيع أن أنظر إلى الناس مصوبة عينى إليهم وأستطيع أن أكذبهم وأواجههم أيضاً، وأستطيع أن أقرأ أفكارهم من أعينهم، واستبطن نواياهم وأجيب عليهم قبل أن يكون لديهم الوقت ليطرحون علىّ سؤالاً، وأستطيع أيضاً أن أعوى كما يعوون بإتقان.

ولكننى لم أعد أستطيع فعل ما كنت أقوم به فى السابق على الأرجح، فلا أستطيع أن أسرق فى متجر كبير، أو امضى وراء شخص ما وأتخيل أنه من أسرتى، وأتعقب شخصاً ما فى الشارع وأقول أنه حبى الكبير.

وأدركت أن مارتيال أو هابيل أو زُهرة لا يمثلون خطراً، إنما ضحاياهم هم الذين يشكلون خطراً لأنهم مستسلمون.

عرفت أن الناس لو كان لهم الخيرة بينك وبين سعادتهم، لاختاروك أنت.

عند مدينة ليون، كنت متعبة للغاية، فصعدت على مقعد النوم الذى يعمل بنظام اللمس. كانت المرأة التى ترتدى ملابساً وردية اللون تنام فى الطابق الأرضى من عربة القطار، ورأيت فى الطابق الأول رأس الأسبانية المستديرة التى كانت تلمع فى ضوء المحطة، وسميتها بالأسبانية لشعرها وعينيها الشديدتى السواد، وظننت أنها ستقول لى شيئاً، ولكنها اكتفت بتفحصى دون أن تحرك رموشها ودون أن تبتسم لى. أما جيانيكو فقد تمدد على مقعد النوم وكان يغط تقريباً، وكان يفوح منه عرقه وملابسه القذرة بشكل لافت للنظر، فكان الأمر وكأننى أنام بجوار متشرد، دفعته نحو حائط

العربة، ولكن اهتزازات القطار كانت تدفعه نحوى بلا توقف ؛ ثم خلصت إلى النوم ينتابني نعاس ثقيل، تقطعه ومضات الضوء وصوت عجلات القطار على شريط السكة الحديد.

ثم انتشلني جيانيكو من فتورى، فلقد هبط من مرقده دون أن يحدث أى صوت، متعلقاً بالسلم الصغير كالقرد، ثم قال لى فى أذنى حتى لا يكون عليه أن يصرخ: "تعالى، يا تاتا ليلى، تعالى كى ترين"، فخرجت تحسساً، وكان الضوء خافت في عربة القطار، وكان الطقس حاراً، كان هناك رائحة نسمة، وفى ممر عربة القطار، كانت النافذة تقطع زاوية تحجب الرؤية، وكانت المنازل وأبراج الأسلاك الكهربائية المتاخمة للبحر تجعله يتلألأ فى أشعة الشمس، وكان القطار يتعرج على طول الساحل ويتخطى الأنفاق، ويخرج منها، أما البحر فكان حاضراً دوما، لامعاً فى الشمس، فى لونه الأزرق الفاقع إلى حد أن عينى تغرغرت بالدموع من النظر إليه.

كان جيانيكو يرقص في مكانه، فلقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها البحر ؛ وعندما جاء من رومانيا، حمله القطار، هو وأمه وأخوته من تيميزورا، مباشرة دون أن يتوقف، إلا لعبور الحدود عبر الحقول بين ألمانيا وفرنسا، ثم لحقوا بمعسكرات البوهيميين.

من آن إلى آخر، كان يلتفت نحوى بابتسامته العريضة والتى كانت تجعل أسنانه تلمع وسط وجهه الداكن، ليقول، "أترين ؟ أترين ذلك؟"

هبط الناس من القطار بعضهم تلو البعض الآخر، في كل مدن الساحل، اجيه، سان رفائيل، كان، أنتيب، حتى صرنا بمفردنا في العربة قبل الوصول إلى مدينة نيس ؛ وكان القطار يسير على طول شاطئ طويل من الحصى الأملس، يتبعه طريق حيث تسير السيارات بنفس سرعة القطار، وكانت هناك أمواج تتدفق بانحراف، وطيور نورس تطوف فوق البالوعات، وكانت الشمس تلمع عبر الزجاج، وكان يبدو لى أننى استيقظت، أو نهضت من حلم طويل، كما ينهض الإنسان من مرض.

ودون أن نترك موقعنا فى ممر العربة، أخذنا الإفطار الذى حملته من باريس، برتقالات (مغربية) وشرائح خبز بائتة مبطنة بقشرة من الشيكولات، ولم يكن بوسعنا أن نتناول لحم الخنزير لأن ذلك كان محرماً بالنسبة لى، أما جيانيكو فكان يقول أن لحم الخنزير لايُعد طعاماً للإنسان، وأذكر أنه ذات مرة ونحن نناقش هذا الأمر، قال لى – ولا أعرف من أين أتته هذه الفكرة – أنه من المكن أن يجعلوك تأكلين لحم البشر قائلين لك إنه لحم الخنزير، وربت على مؤخرته حتى يبين ما كان من أمر ذلك.

كانت مدينة نيس جميلة كما تخيلتها، مدينة جميلة بيضاء فى قببها العادية وقببها البصلية، وكان هناك الكثير من الحمام والشيوخ، وكانت هناك الشوارع الكبيرة المحاطة بأشجار الدُلب[2] والمكتظة بالسيارات

(2) الدُلب هى شجرة للزينة يكثر غرسها على أطراف الشوارع الفرنسية. (المترجم)

حتى على الأرصفة، وكان هناك الكثير من العرب، ومع هذا فلم يكن هذا المكان يشبه أفريقيا، ولا حتى أسبانيا.

كانت مدينة يسعد الإنسان فيها، ويحلم فيها، ويتنزه فيها كما كنا نفعل نحن أنا وجيانيكو مشبكين أيدينا كأخ وأخت.

كان الناس ينظرون إلينا باستغراب لطريقة سيرنا وملبسنا، فكنت أرتدى قميص نونو السجفى وبنطالاً وحذاءً ماركة "تكس مكس"، وكان جيانيكو يرتدى بصفة دائمة ثيابه الرثة الفضفاضة وقمصانه الثلاثة الصغيرة ذات الألوان المختلفة والتى كان يضع الواحد منها فوق الأخر على جسده، القميص الأكثر اتساعاً فى الأسفل، ثم الأكثر صغراً، ولكن الأكثر عرضاً، ثم فوقهما قميص مخطط بألوان أزرق – أبيض – أحمر ووردى، وشعره الكث المجعد الأسود، وطالعه النحاسى اللون كالهنود ؛ ولم يكن معنا حقائب، إلا حقيبة صغيرة كانت معى وكنت أضع بها مذياعى القديم، وأشياء صغيرة خاصة بالسيدات وكتاب فرانتز فانون الذى كنت أحبه.

كان الطقس رائعا إلى أقصى حد، حيث سرنا النهار كله، بلا هدى، على طول البحر، وفى شوارع المدينة القديمة، وأيضاً فى التلال المليئة بالحدائق القديمة. لم يكن يعرف جيانيكو أين يقيم عمه رامون، لم يكن معه سوى اسمه وعنوانه الذى كان مدوناً بشكل مائل على مظروف هكذا: رامون

يرسو

معسكر إيواء كريما

في الظهر، تناولنا مرة أخرى خبزاً وشيكولاته على شاطئ البحر الملئ بالحصى والذى كان يُحاط بغيمة من طيور النورس، وكان جيانيكو كالكلب صغير، يجرى متعرجاً على طول البحر، وكان يرتمى على الحصى وسط طيور النورس، ويؤدى حركات جنونية كثيرة من هذا النوع، ولم أره مطلقاً هكذا، ففجأة، بدا عليه أنه طفل بحق، لقد أصبح طليقاً، ولم يعد يفكر في مستقبله ؛ وأنا أيضاً، لم أعد أفكر فيما يمكن أن نفعله، أين نرقد، وما يمكن أن نأكله هذا المساء. رميت لطيور النورس آخر قطعة خبز كانت لدينا، فلقد كانت هذه القطعة جافة لحد ما، ولو كان بوسعى، لألقيت بحقيبتى الصغيرة الزرقاء فى البحر بكل ما تحوى، ولم يمنعنى المذياع ولا كتاب فرانتز فانون، فالمذياع ما هو إلا علبة للموسيقى والكتاب يمكن أن يُستبدل، ولكن ما منعنى، على الأرجح، هو المظروف الذى يحوى جواز سفر ماريما وخطاب حكيم الذى حرره لى قبل أن يحمل جده إلى ياما على نهر الفاليميه.

أمضينا كل شهر مايو فى مدينة نيس دون أن نفعل شيئاً سوى الذهاب صباحاً إلى مكان إخلاء الشاحنات، وإلى الشاطئ بعد الظهر، ثم التسكع فى شوارع المدينة القديمة.

فى البداية، كان الأمر صعباً بالنسبة لنا فى المعسكر، فلقد كان نائياً عن كل شئ، ويقع فى الشمال، فى الوادى، ويبعد عن الضواحى وعن أعمدة الطريق السريع، وكان يشبه دوار تبريكة إلا أنه كان فى التلال، بعيداً عن البحر، فى التلال الوعرة، العارية، حيث تهب الرياح فى زوبعات وحيث

يكون للثرى طعم الأسمنت، فلقد شُيدت المدينة إلى الأسفل من المكان الذى تفرغ فيه الشاحنات، وكانت المنازل صغيرة مبنية من الأحجار المطلية باللون الوردى وأسقفها من القرميدة، وهو نمط بروفانسى[3]. كان هناك فى المجمل حوالى خمسين منزلاً صغيراً، وأتخيل أنه في يوم الافتتاح فى حضور ممثلين عن السيد رئيس الشرطة والسيد العمدة والمدير الإقليمى للمساكن ذات الإيجار المعتدل، كان المشهد رائعاً وممتعاً، ولاسيما إذا لم يُركز على حفر مكان تفريغ الشاحنات. ولكن بعد مرور سنوات، أصبحت مدينة الصفائح شبيهة بالمدن الأخرى، فلقد طُبع دخان المرامد على الحوائط، وزخرفت الأوراق والحقائب البلاستيكية على ساحة الخط الحديدى، وغدت الشوارع طرقاً مصدعة بالأخاديد الطينية.

ما كان طيباً فى هذا المكان هى المخيمات، حيث كان أمام كل منزل صغير، مخيم أو أثنين للرحالة، وكان بعضها مبنى من الطوب الأحمر ؛ وفى إحدى هذه المخيمات جعلنا رامون يرسى نقيم مع أبنائه الثلاثة والذين كانت أعمارهم في عمر جيانيكو أو أقل منه سناً، مالكو، جورج وإيفا. فى المساء، كنا نبسط حقائب النوم والغطاء، وكنا ننام حتى على خشب الخيمة ملتصقين بعضنا بالبعض الآخر حتى لا نشعر بالبرد.

كان رامون يرسى رجلاً فارع الطول، قوى البدن، شعره وأهدابه شديدة السواد، وكان يعمل بالمقطوعية فى ساحة التعمير، وكان يتحدث

(3) ريف فرنسى يميل إلى ارتياد طابع شبه خاص فى العمارة. (المترجم)

الفرنسية بصعوبة بالغة، وقال لى جيانيكو أنه لا يتحدث الرومانية أفضل من حديثه بالفرنسية، الخلاصة أنه لم يكن يتكلم. فى المساء، عندما كان يعود من العمل، كان يجلس على طرف الفراش فى حجرة المنزل الوحيدة، ثم يشاهد التلفاز وهو يدخن الغليون.

عندما شاهد جيانيكو يأتى إليه، لم تبدو عليه الدهشة، فربما كان يراقبنا وأن أحداً قد أخطره بذلك. كان رامون يرسى يعيش فى منزل صغير مع امرأة فارعة شقراء بشرتها حمراء، تُدعى الينا، وكانت إيفا ابنتها، أما جورج ومالكو فكانا من امرأة أخرى هجرها رامون.

فى الصباح، فى ساعة مبكرة، كنت أذهب مع جيانيكو والفتيان إلى مقر تفريغ الشاحنات، وكان جيانيكو يسمى ذلك "عمل".

كانت عربات النقل تصل بعضها خلف البعض الآخر فى ساحة المسحق الكبيرة، وكان صبيان المعسكر يتراصون هناك من كل جانب، وما إن كانت أكوام القمامة توضع على الأرض، حتى كانوا يسرعون كالفئران قبل أن تقوم الجرافة وتحملها بين فكين من الفولاذ.

كنت قد رأيت من ذى قبل مستودعات القمامة فى تبريكة، ولكننى لم أشاهد قط شيئاً مماثلاً لذلك، فلقد كان الهواء محملاً بالتراب الدقيق اللاذع الذى كان يؤذى العين والحلق، وكانت هناك رائحة عفنة ورائحة نشارة ورائحة قتيل. كانت الشاحنات تتحرك فى الضوء الخافت، وكنا نرى فوانيس الإضاءة أو منبهات الرجوع للخلف وهى ترسل صوتاً حاداً، ومن

السقف كانت تسقط أشعة ضوئية تخط أعمدة فى التراب، وعندما كان الفكان يتحركان لقص قطع الخشب والغصون، كانت الضوضاء مُصمةً.

كان جيانيكو ومالكو وجورج يفتشون فى الفتات ويحملون لقاياهم إلىّ: مقاعد معطلة، طناجر مبعوجة، وسادات مخروقة، ألواح خشب منتفشة من المسامير الصدئة، ولكن أيضا ملابس، أحذية، لعب أطفال، كتب. كان جيانيكو يحمل إلىّ بصفة خاصة الكتب، وكان لاينظر إلى عناوينها، حيث يضعها على حائط قصير بجوارى بالقرب من مدخل الصالة، ثم يرحل ثانية مهرولاً ليفتش فى شاحنة قمامة جديدة.

وكان هناك كل شئ، مجلات قديمة "رايدرز دايجست"، وأعداد عتيقة من مجلة "هيستوريا"، كتب مدرسية من فترة ما قبل الحرب، روايات بوليسية، أقنعة، أعداد من بيبلويتيك فيرت(4)، وردية اللون، مجموعات حمراء وذهبية، مجموعات سوداء. كنت أجلس على الحائط الصغير، فى الريح، وأطالع صفحات من هذه الكتب، ككتاب "قيثارة العشب" على سبيل المثال، حيث طالعت الفقرة التالية:

"متى سمعت للمرة الأولى الحديث عن قيثارة العشب؟ قبل الخريف حيث ذهبنا نقيم فى الشجرة ؛ فلنقول، ذات فصل خريف من ذى قبل، وبالضبط، كانت دولى هى التى حدثتنى عنها ؛ لم يكن هناك سواها كى تبتدع اسم مماثل كقيثارة العشب."

---

(4) Bibliothèque verte سلسلة من روايات الأطفال المبسطة لغوياً.

كنت أقرأ أى شئ، ففى جحيم تفريغ الشاحنات هذا، كـان يبـدو لى أن الكلمات ليست لها نفس القيمة، بل كانت قوية جـداً، وكـانت تـدوى فـىَّ دائما، وكنت أقرأ أيضاً الروايات التى كـان يلقـى بـها النـاس بعـد مطالعتـهم لها، مثل "العباءة الدينيـة"، "البـاب المفتـوح "، "البـاب الذهبـى"، "البـاب الضيق"، ومع ذلـك كـانت هنـاك جملـة مـن الممكـن أن تقفـز إلى العـين وتظـل مطبوعة في الذاكرة: "لماذا نيحر ذات يوم؟"

أو هذه الصفحة الفارة من كتاب قديـم، والتـى رأيتـها بكـراً بشـكل لافت للنظر وسط جبل الحثالة: السهل الفسيح أبيض

جامد دون صوت

لا ضوضاء، لا صوت، كل المدينة محترقة.

ولكنه يُسمع أحياناً، كأنه في سهل كئيب،

كلب ليس له ملاذ يعوى في ركن من غابة.

آه ليل العصافير الصغيرة المفجع.

ريح مثلجة ترتعش وتهرول في الممرات.

هم، بما أنه لم يعد لهم ملاذ مظلل بالهود،

فلايستطيعون أن يناموا على أرجلهم المجمدة.

فى الشجر الكبير العارى الذى يغطيه رقاق الجليد،

يقيمون هناك، مرتعشون تماماً، من غير أن يكون هناك من شئ يحميهم.

وبعينهم القلقة يشاهدون الثليج، منتظرين حتى مطلع النهار الليل الذى لايأتى.

وبعد ذلك، أصبحت هذه الأبيات مقطعاً محفوظاً بين جيانيكو وبينى، فمن آن إلى آخر، فى الشارع، أو عندما كنا مقوقعين فى حقائب نومنا، على أرضية المخيم، كان يبدأ فى لهجته الغريبة: "الليل المفجع للعصافير الصغيرة"، وكنت أقول: "لا ضوضاء، لا صوت"، وأظن أن هذه هى المرة الوحيدة فى حياته التى ألقى فيها شعراً.

وفى كل صباح، كنت أهرول نحو مكان تفريغ الشاحنات مع الأولاد، وكان ذلك بمثابة لُعبة بالنسبة لى، فكنت أتحمس لفكرة أن نجد شيئاً. كانت شاحنات القمامة تصعد وتهبط التل الصغير كالحشرات الضخمة، ثم كانت أطنان القمامة تسيل وتتبعثر وتُسحق وتدق، وكان التراب اللاذع يصعد فوق كل الوادى، ويصعد حتى وسط السماء مُنسجاً بقعة كبيرة بنيةاللون فى زرقة السُكاك[5]، فكيف لم يكن الناس يشعرون بها فى بقية المدينة؟ كانوا يلقون فضلاتهم وكانوا ينسونها، وكأنها غوائطهم، ولكن البودرة الناعمة كانت تسقط عليهم كل يوم كغبار الطلع، على شعرهم، وعلى أيديهم، وعلى روضاتهم الوردية. وكنا نجد من كل شئ فى الفضلات، وذات

(5) السكاك هو الهواء بين السماء والأرض فى الجزء الأعلى من الغلاف الجوى. (المترجم)

صباح، جاء مالكو وهو فخور تماماً، وكان يمسك في يديه لُعبة، جمل من الجلد المحاك، يمتطيه هجان في ذى أحمر وعمامة بيضاء، واضعاً سيف في زناره.

وكان هناك شِجار أيضاً، فلقد سبتنا مجموعة من الأسبان، وكانوا فارعو الطول، في العشرين من عمرهم، وكانوا يرتدون أقمصة مشجرة، ويضعون عصابة حول الشعر، سبونا لأن مالكو وجورج كانا يتحدثان باللغة الرومانية، وقدموا ليروا ما وجدناه: عجلة دراجة، طناجر، عصى ستائر، سلك حديدى صدئ، قطع من الحديد، آلة كاتبة، مطرية سوداء رائعة، حذاء، ونظروا إلى كتبي، والتى كانت عبارة عن روايات تجسس وكتاب قصائد شعرية باللغة الإيطالية لليوباردى(6) أو انونزيو(7)، وقلب أحدهم صفحات الكتب وألقاها باذدراء، ثم مسكني من عنقي وحاول أن يُقَبلني، فدفعته وقفز جيانيكو عليه وتعلق في رقبته محدثاً به قطعاً كالمفتاح في وجهه، ثم تشاجروا بعنف غريب، وهم يتقلبون في الفضلات، ولكن دون صراخ، محدثين صوت (هاه) في كل مرة يتضاربوا فيها بقبضة اليد وركلات القدم. حينئذ توقفت الشاحنات عن السير وتجمهر

(6) أديب إيطالى عاش بين 1798 و1837، من أهم مؤلفاته: "مؤلفات أخلاقية صغيرة" 1827-1833. (المترجم)

(7) أديب إيطالى ولد عام 1863، من أهم أعماله "النار "1899 ومسرحية "المدينة الميتة" 1898. توفى عام 1938. (المترجم)

الناس لمشاهدة المشاجرة، كان مالكو وجورج يتشاجران مع أحد الأسبان، وجيانيكو مع آخر، وكنت أصيح كالمجنونة، مع شعرى الأشعث الذى هيجه الريح، وقميصى الجلدى المغطى بالتراب، والحذاء الذى وجدته بجوارى على الحائط الصغير.

ثم جاء موظف يعمل فى تفريغ الشاحنات، وكان عجوز، وتلفظ بكلمات عنصرية عن السود والعرب والبوهيميين، ثم تناول آلة رش تصلح لرش نطاق كبير فى تفريغ الشاحنات ورشنا بالماء المثلج بقوة إلى حد أن جيانيكو تزحلج على ظهره كالناموسة وحتى أن كل كتبى طارت أرباً أرباً.

هذا ما حدث لى: نافورة الماء المثلج القاسية مثل السوط مزقت كل كتبى، وبغضت هذا الرجل، وصحت: " قذر، خنزير، حقير"، ثم قذفته بشتائمى العربية التى كنت أعرفها، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى أذهب فيها إلى مكان تفريغ الشاحنات.

وكانت هناك فى حياتى سارا، فلقد رأيتها للمرة الأولى مصادفة فى مشرب خمر فندق كونكورد فى منطقة البروමناد تقريباً، حيث أحببت هذا المكان لأننى رأيت فيه نحت لامرأة فارعة الطول، بشرتها برونزية، كانت تحاول أن تهرب من بين كتلتين من الأسمنت، فدخلت إلى صالة الفندق حتى أسأل عمن شيدها، فقال لى حارس البوابة اسم النحات، سوسنفسكى، ودونه لى على ورقة، وحدث ذلك فى نهاية بعد ظهر يوم ما، ولقد تركت جيانيكو، لأنه لم يكن لائقاً فى قمصانه المقززة المكدسة بعضها فوق البعض الآخر وشعره

المشعث، ناهيك عن رائحته. وفي نهاية صالة الفندق، سمعت صوت الموسيقى، كان ذلك شيئاً أثار فيَّ الفضول، لأنه عامة، بسبب أذني اليسرى، كنت لا أسمع الموسيقى من بعيد، ولكن في هذا المكان، كان صوتها يصل إلى ثقيلاً ومنخفضاً عن طريق الاهتزازات التي تجرى فوق جلدى وفي جوفي.

سرت عبر الصالة يقودني الصوت، وفي لحظة، دق قلبي لأنني ظننت أنني قد عثرت على سيمون، إنها هناك، منتصبة في نهاية مشرب الخمر، تغني أغنية "اللون الأسود هو اللون الحقيقي لبشرة حبيبي".

وحتى أنصت إليها جيداً، جلست بالقرب منها على سلم الحاجز، وعندما رأتني، ابتسمت لى كما لو كانت تعرفني، وأعتقد أن ابتسامتها جعلت القائم على مشرب الخمر لا يصرفني، والذى كان ينظر شذراً لهذه السوداء الصغيرة في شعرها الكثيف المجعد والتي ترتدى بنطالاً من الجينز وقميصاً من الجلد القدى.

سمعت كل أغانيها حتى جاء الليل. في مشرب الخمر، كان الناس يثرثرون وهم يحتسون الويسكي الاسكتلندى، وكانت هناك ثنائيات من رجال ونساء تتكون ثم تتفرق، وكان هناك من بينهم أيضاً من كان يرقص. ولكنني كنت أرتشف الكلمات والموسيقى، وكنت أنظر إلى جسد المرأة الشابة، وثوبها الأسود يقولب جسدها، وأنظر إلى طالعها وشعرها المحلوق قصيراً.

بعد ذلك تحدثت معي، وكنت أجد صعوبة في فهمها، وكنت أحاول أن أقرأ ما على شفتيها. في مشرب الخمر، ارتشفت كأساً من مشروب

البيريه معها، قالت لى إنها تدعى سارا وأنها من شيكاغو، وسمتنى "الأخت سوالو"، ولا أعرف لماذا، وقالت لى: " إننى أحب لون بشرتك"، ودونت لى اسمها وعنوانها على مظروف، لأنها سترحل عما قريب، ودونت لها اسمى ولكن بالنسبة لعنوانى، لم أعرف ماذا أكتب، فوضعت عنوان بياتريس.

عاد عازف البيانو للعزف، وعادت سارا إلى منصة الغناء، وظللت حتى النهاية، حتى الليل، وجاء رجل طويل أسمر البشرة يبحث عنها، وكان يرتدى بذلة، ومعطف أخضر اللون، ووشاح أبيض وكأنه ممثل فى السينما، واصطحب سارا، فخرجت تتموج بجسدها، ومضت نحو المخرج مبتسمة لى للمرة الثانية بابتسامتها المتوهجة على وجهها الأسود، فكانت تبدو كنجمة فن،كإلهة، كحورية.

بعد ذلك، كنت أمضى إليها كل يوم، من الخامسة إلى التاسعة مساءاً، وكنت أجلس فى ركنى، على حافة منصة الغناء، ولو أن نادلاً قال لى شيئاً، كان لدى إجابتى الجاهزة: "إنها أختى"، ولكنها ربما أخطرتهم بذلك، فلم يسألنى أحد عن شئ.

غنت سارا لى طوال شهر مايو، كانت هناك عواصف، وكان منظر المطر بديعاً، وأخضر البحر الردئ فأصبح رائعاً ؛ وكان جيانيكو يذهب كل يوم معى على الشاطئ، أو على السد الكبير الذى كانت تشكله كتلات أسمنتية ملقاة، ولكن هذا المكان لم يكن مكاناً مناسبا لفتاة مثلى، فذات يوم كنت انتظر جيانيكو هناك، فجاء رجل، وأظهر عن نفسه، وكانت له نظرة غريبة،

تائهة ولم تكن لدى رغبة فى أن أصرخ فيه كما حدث فى السابق مع العجوز فى دار المقابر: "سر وشأنك"، كما أشار لى صيادون - كانوا يستلقون مركبهم - بحركات مخلة بالأدب، وهم يتظاهرون بأنهم يرفعون شباك صيدهم، وكانوا يتلفظون بحماقات لم أكن أفهمها، فغضب جيانيكو وصاح فيهم: "يا أولاد العاهرة، سأقتلكم"، وكان يقفز من صخرة إلى أخرى، كان يشير لهم بحركات، ويتظاهر بأنه سيلقى عليهم الأحجار.

وفى معظم الأحيان، كانت هذه التصرفات تقتلنى، فلم يكن هناك مكان هادئ فى الدنيا، أى مكان، فعندما أجد ركناً منعزلاً، تعرُجاً، مغارة، مكان صغير مهجور، كان هناك دوما شئ ما بذئ، كغائط أو متلصص.

ولهذا، ففى فترة ما بعد الظهر، كنت على موعد حتى أستمع لموسيقى سارا التى كانت تداعبنى.

وكل يوم فى فترة مابعد الظهر، كنا نتحدث فى الفاصل الترفيهى، وعلى كل حال، لم نكن نتحدث بحق لأنها لم تكن تعرف الفرنسية، إضافة إلى أننى لم أكن أسمع جيداً ما تقوله لى ؛ كانت تضحك، وتقول كل مرة: "أختى سوالو، أحب لون بشرتك"، حتى أن تلك المقولة أصبحت لازمة لديها.

كنت أمكث حتى نهاية الغناء، وكان صديقها يأتى يسعى إليها كل مساء، وكانت تمر أمامى دون أن تقول لى شيئاً كما لو كانت لا تعرفنى ولا أعرفها، وكانت عيناها تمزحان معى، وتلقى بابتسامة صغيرة تضئ وجهها،

ثم تدلف متموجة نحو باب الفندق عندما يكون الليل قد حل تقريباً، فعشقت سارا طوال هذا الشهر.

في هذا الفترة أخذت في التعرض لمضايقات من جانب صبية معسكر كريمبا، من أخوين، داني وهيج ؛ كان داني شعره بني اللون مجعد، أما هيج فكان فارع الطول، أحمر البشرة، وكنت ألقبهما بالهنود، نظراً لقمصانهم المشجرة، وعصابات رأسهم وسيارتهما الشيسلر التي كانا يصارعان بها. صعدت في سيارتهما أنا وجيانيكو ومالكو، وكانا يدلفان في الشوارع، على غير هدى، جاعلان إطارات عجلات السيارة تحدث صوتاً، وكانا يطلقان صيحات، وكان ذلك أمراً جنونياً، فكانت الشوارع تتوارى خلفهما وهما يسيران بأقصى سرعة، وكانت الريح تدخل السيارة عن طريق نوافذها المفتوحة، وأظن ذلك ما أنعشهما، ولكنهما كانا قد أشعلا الغليون قبل ذلك، ولذا كانت أعينهما حمراء اللون طوال فترة ما بعد الظهيرة. لم يكن ينتابني خوف، ولم أكن أهاب بشر مثل داني وهيج، ويبدو أنني كنت أرى فيهما سلوك الأطفال، والأولاد السفهاء والغرباء والضعفاء أيضا.

كان داني في العشرين من عمره فقط، أما أخوه فكان في الثامن عشر من عمره، وحدث أنهما ركنا سيارتهما الشريسلر قبل ليل يوم بقليل في موقف متجر كبير لقطع الخردوات، متجر بريكولتو[8]، أو ميزون فرت[9]،

---

(8) Bricoltou متجر خردوات معروف بفرنسا. (المترجم)

(9) Maison verte متجر أدوات خردة معروف بفرنسا. (المترجم)

لا أتذكر، ثم هبطنا من السيارة وبدأ الأخـوان فـي التجـول بأجنحـة المتجـر وهمـا يشبهان الهمج في شعرهما المتدلى علـى أكتافـهما، وقمصانـهما المشجرة المفتوحـة فى البرد، وظل الناس واجمون واضعون رقابهم فى معاطفهم، وكانوا يتعقبونـهما بالنظر، كما لـو أنـهما ذئبين يـهرولان فـى الأجنحـة ؛ وكانـا يتحدثـان بصـوت مرتفع بالأسبانية، وكان أحدهما ينادى على الآخر من طـرف إلى طـرف آخـر فـى المتجـر، وكانـا يضحكـان، وكـانت أسـنانهم تتـلألأ بـين طالعـهما الداكنـين ؛ ثـم رحلنا، وكنا نسير بالمصادفة، على طول النـهر حتـى الجبـل، كنـا نعـبر كتـلات سكنية نائمة غارقة في ضباب ثقبه الضوء الأصفر المنبعث من الفوانيس.

كنا نرتكب أمور جنونيـة، فلقـد ذهبنـا يومـا مـا إلى المقـابر، وكنـا ننصت للمقابر حتى نسمع الموتى، وكان دانى أبله قليلاً، على ما أظـن، وكـان خال جيانيكو قد حذرنا منهما قائلاً: "لا تذهبوا معـهما، فإنـهما سيسـببون لكم المتاعب"؛ وكنت أحب هيج، وذات يوم، جلست فى مقدمة السـيارة بـين الأخوين، ثم توقفنا لنشرب، وكنت أتغازل قليلاً مع هيج، بينما كان كل مـن جيانيكو ومالكو يدخنان الغليـون وهمـا جالسـان علـى السـيارة مـن الخـارج، فحاول هيج أن يقبلنى، ولكننى دفعته عنـى، فـأصبح مخبـولاً، وكـان هنـاك وريدا ناتئا على جبينه، وكـانت عينـاه تبرقـان، فـأخذ زجاجـة صغـيرة مـن البنزين من علبة القفازات ورشنى بها ثم أطلق النار، فأحسست بهواء شديد، كصفعة على وجهى، ووجدت نفسى خارج السيارة وأنا أصرخ، وكـان صـدرى ويداى تشتعلان، فأخمد هيج النار، وغلفنى بقميصـه ودورنـى علـى الأرض،

وأعطاني لكمات بقبضة يده، وكنت مخبولة، ولم أكن أدرك شئ ؛ وفي أثناء هذا الوقت، كان داني وهيج يتشاجران ويتسابان، وكان جيانيكو ومالكو ينظران إليهما دون أن يتحركا، وأظن أنهما لم يدركا الأمر جيداً. وعندما أدركت الأمر، مضيت فعبرت الطريق وتركتهم هناك، فأخذني على الفور تقريباً قائد سيارة وحملني إلى الطوارئ، وكان يبدو عليه اللطف، فكان يريد أن يبقى معي، ولكنني شكرته، وقلت له أن الأمر لايستدعى ذلك، فهي حادثة بسيطة، ووضع الطبيب المقيم لى ضمادة، فلقد حُرقت في ثديي وفي رقبتي وفي ساعدي.

سألني الطبيب المقيم: "من فعل بكي هذا ؟"، وكنت أشعر بالألم، وأشعر أنني متعبة، ولكنني قلت له أنني تحسنت، وأضفت: "لا شئ، هذه حادثة حدثت لى وأنا أقوم بإشعال النار"، وكان يبدو عليه أنه صدق قولي، وطلبت سيارة أجرة كي أعود إلى كريما.

بعد ذلك، استلزم الأمر عليّ أن أرحل، ولم يقل رامون يرسي أى شئ، غير أن إلِنا جاءت إلى المخيم، وأخذت أشيائى، ثم رتبتها في حقيبتي، وأعطتني قميصا جديداً من الصوف الأحمر والأسود، ثم نظرت إلى بقسوة، كما لو أنها تبغضني، وكان مالكو وجيانيكو يلعبان الكرة في الشارع المحفور، فقلت لإلِنا: "وماذا عن جيانيكو؟ "، فأشارت لى بعلامة على أنه سيظل معهم، وأعتقد أنها كانت على حق، فمن جرائي أنا، لم تمض الأمور على ما يرام، فأنا أحمل النحس.

في مدخل المعسكر، كانت هناك مجموعة من البوهيميين يتجادلون حول هياكل معدنية، وهم يشبهون القناصة الذين فرقتهم فريسة. كان اليوم يوم الأحد مبكراً، ولذا كان مصنع سحق القمامة لا يعمل. وضعت الحقيبة في حمالة على كتفي الأيسر، بسبب الحرائق، كانت السماء شديدة الزرقة، وكان هناك بعض طيور الخُطاف التي كانت تخط الأفق، وكنت أسمع أصواتها بوضوح. استقليت أتوبيساً حتى محطة القطار، وكانت لاتزال لدى نقوداً كافية كي أشترى بطاقة سفر في القطار الراحل إلى مدينة باريس.

قبل قدوم صيف هذا العام، طرأت تغيرات كثيرة في حياتي؛ بداية، تقدمت لبكالوريا القسم الأدبي كطالبة حرة، وكما كان متوقعا رسبتُ، فلقد أعدت ورقة الإجابة خالية في مادة الحساب وفي مادة التاريخ ؛ أما في مادة اللغة الفرنسية، في الاختبار الشفهي، لم ترد المتحنة أن تصدق أنني كنت طالبة حرة، ففحصت جواز سفري، ثم نظرت إلى ملفي وقالت: "توقفي عن الكذب، أين أجريت دراساتك؟، ثم استطردت: "أين قائمتك؟"، ثم في النهاية، عندما انتابها خجل من أن تبدو ثائرة، قالت: "عن مَنْ مِنْ الكُتاب تريدين إجراء شرحك؟"، فقلت دون تردد: " إيميه سيزار[10]"، ولم يكن هذا الموضوع ضمن المقرر الدراسي، ولكنها دُهشت وقالت لي: "حسناً، سأستمع

(10) كاتب فرنسي ولد في جزر المارتينيك عام 1913. عُرف بنزعته المناهضة للفكر التقليدي الغربي الاستعماري. حاول في مؤلفه أن يبرز دوره المساند للزنوج. (المترجم)

إليك"، فألقيت عن ظهر قلب قصيدة "كراسات عودة إلى الوطن مسـقط الـرأس، التى ذكرها فرانتز فانون فى كتابه: وبالنسبة لهذا الرب ذى الأسنان البيضاء

الناس ذوى العنق الهش

يتلقى ويلمح قدراً هادئاً بشك مثلثى

إلى رقصاتى رقصاتى رقصات زنجية سيئة

و حتى الأبيات: أوصلينى، أوصلينى أيتها الأخوة اللاذعة

ثم اخنقينى بوهجك النجومى

اصعدى أيتها الحمامة

اصعدى

اصعدى

اصعدى

أتبعك، مطبوعا بنسبى

قرنية بيضاء

اصعدى يا متملقة السماء

والثقب الكبير الأسود حيث أردت أن أغرق

القمر الآخر

هناك أريد أن أقتنص الآن اللغة الشيطانية

لليل فى سكنه .

وفى مادة الفلسفة كان الامتحان هذا العام عن الإنسان والحرية، أو شئ من هذا القبيل، فكتبت بحماس إجابة شغلت عشرين صفحة، ذلك أننى كنت أذكر باستمرار مقولات لفرانتز فانون وللينين، ولاسيما العبارة التى يقول فيها: "عندما لا تبقى على ظهر الأرض أية إمكانية لاستغلال الآخرين، ولا يبقى مُلاك للمال، ولا مُلاك للمصانع ولا يكون هناك عوزة فى ناحية وجوعى فى جانب آخر، وعندما يصبح كل ذلك مستحيلاً، حينئذ فقط، سنضع آلة الدولة فى الخردة."

ولهذا رسبت، وكنت قد كتبت كل شئ دون أن استريح، ودون أن أقرأ ما كتبت، كنوع من الإفلاس، ثم رميت كومة الأوراق على مكتب المراقب ورحلت دون عودة، حتى أننى لم أبحث عن اسمى فى سجل الناجحين، فلقد كنت أعرف مسبقاً أنه لن يكون فيه.

فى باريس، كان كل شئ كما هو ومختلفاً فى آن واحد ؛ ففى منزل بياتريس كان الطقس رائعاً، كانت نافذة الصالون الكبيرة تلمع لمعاناً رائعاً، أما جوهانا، فلقد كبُرت ونبت شعرها، وكانت عيناها مشابهة للعقيق، مع نظرتها الثابتة والقلقة.

كنت أمكث معها كل فترة الصباح، بينما كان ريمون فى مكتب المحامين وبياتريس فى جريدتها. كانت شجرة اللبلاب مليئة بالعصافير، فكنت أحمل جوهانا بالقرب من النافذة المفتوحة حتى تسمع إلى زقزقتهم.

قررت أن أرحل، وبفضل مدرس في المركز الثقافي وعقيد في مركز يوسيس كان قد أغرم بي، حصلت على تأشيرة تبادل، على أن إقامتي ستكون في منزل سارا ليبكاب في ولاية بوستن، وحتى أنني سجلت أسمي في أوراق اليانصيب الذي يوزع بطاقات الإقامة في الولايات المتحدة حينما علمت أن نصيب الأفارقة كان كبيراً هذا العام ؛ ولم يكن ينقصني سوى النقود للرحيل، وبدلاً من أن أبيع قرط أجدادي، اقترضت خمس وعشرين ألفاً فرنكاً من بياتريس، وكنت على استحياء منها إلى حد ما، ولكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت، أو تقريباً كذلك. كان لدى انطباع أن بياتريس وريمون أعطياني هذه النقود حتى أخرج من حياتهما مرة واحدة، وحتى لايبقى هناك من شئ يربط جوهانا بأمها الحقيقة.

ما كان عليّ أن أقوم بوداع الآخرين، فلقد كان كهف شارع جافلو مغلقاً، فحينما عاد إيف – صديق نونو – من موريا، أبلغ عن الكهف، فأمر عضو المجلس البلدى بتبديل القفل، ومررت من أمامه في سيارة أجرة، ذات يوم من بعد الظهر، وانتابني شعور غريب وأنا أرى الباب المعدني المطلي بلون أخضر برقم 28 المدون على الطلاء الأسود على حجر الزاوية، كما لو كان ذلك مبيت سيارات أو خزانة فيها عدادات أو أى شئ من هذا النوع، وأن ما من أحد عاش فيه، وأنه لم يكن هناك البتة هذا الليل الذى وُلدت فيه باسكال ماليكة، فكان ذلك أمراً غريباً، كل شئ بدا معكوساً لي، وعندما خرجت من نفق الشارع، قلت لقائد السيارة الأجرة: "عُد إلى الخلف"، فنظر إلى في المرآة

العاكسة، فكررت له: "من فضلك، أريد أن أمر مرة ثانية من هذا المكان"، ومررنا ببطئ، وأضاء قائد السيارة مصابيح سيارته، فشاهدت المكان الذى كانت تقف فيه سيارة مارتيال جوابيه المرسيدس ترقب سيمون طوال الليل تقريباً، وكانت هناك بقع زيت على الممر تشبه بقع الدم، ربما ماتت، فلقد كان يصيح فيها دوما أنه سيقتلها ما إن أرادت أن تتركه، ومع ذلك كانت تسجن نفسها لديه، ولم يكن بوسعها أن تهرب منه مطلقاً، ولهذا السبب كانت تضع البودرة فى أنفها وكانت تبتلع قرص دواء، وكان ذلك بمثابة أسلوبها فى الهروب منه.

تركتنى السيارة الأجرة فى شارع باربس الكبير، أمام مركز الجمانزيم الذى يلعب فيه نونو، وصعدت السلم الواقع بين متجر الأشياء القديمة وبائع الأجهزة الصوتية. فى طابق صالة الجمانزيم، كان باب الصالة مغلقاً، ولكن كان هناك جلبة صوت، فقرعت على البلاط طويلاً حتى أتى أحد الأشخاص، وكان رجلاً فارع الطول، يرتدى ملابس رياضية، عربى، لم أكن اعرفه، فسألته: "أين نونو؟".

جعلنى أكرر سؤالى، وصاح باتجاه عمق الصالة: "هل تعرف نونو؟"، ومنعنى من المرور إلى الصالة، كما منعنى من النظر، ثم جاء رجل فى حوالى الأربعين من عمره، فارع الطول، كان لونه غامقا، له أنف قوية وشعره مجعد وأشيب، كان يشبه السيد دلاهاى، ولا أعرف لماذا، قررت على الفور أنه هو، إيف لى جن، صديق نونو، نظر إلىّ لوقت طويل دون أن يقول

شيئاً، تعرف عليّ بالتأكيد هو أيضا، ولكنه لم يعبر عن شئ، لا تعاطف ولا اشمئزاز، رغم أننى كنت أشاطره نونو، فعل حركة بيده كى يقول أنتهى الأمر، كل شئ أنتهى، وقرأت الأمر على شفتيه، أكثر مما سمعته، كان يقول بصوت منخفض إلى حد ما: " لم يعد هنا، لم يعد نونو يأتى إلى هنا، خسر مباراته، وأنتهى، لم يعد يلعب ملاكمة هنا، ولن يلاكم مطلقاً "، فقلت شبه صائحة: "وأين هو؟ هل تعرف أين يمكننى أن أراه؟ "، فهز الرجل كتفه، وقال: "ليس لدى عن هذا الأمر أية فكرة، ربما عاد إلى أفريقيا، ربما تم طرده من الأراضي الفرنسية، فلقد فسد أمره ".

لم أشأ أن أصدق قوله لى، فوقفت على طرف أقدامى، كالحيوانات حتى أرى من فوق أكتافهم كما لو كانوا يخفون عنى شيئاً، فرأيت الصالة القذرة وحلبة المصارعة التى تدر ربحاً، والصبية الذين يضربون على حقائب الرمل، والذين يبدو عليهم أنهم يرقصون، وكان هناك من الشباب سود البشرة، نحفاء البدن من كانوا يتدربون كنونو، ثم أدار الرجل ظهرى ودفعنى العربى براحة يده حتى يتمكن من أن يغلق الباب، وكانت تُشتمُ هناك رائحة حمضية أو رائحة عرق أو عفن كعفن نونو عندما كان يعود من التمرين ؛ وفجأة، أحسست بنفسى وحيدة، وكأننى أدركت فى النهاية أننى راحلة لأن الجميع رحلوا قبلى.

عدت إلى بلاس دى إيتالى كى أرى حورية، ولم يكن السيد في يحبنى، ولكن كان ذلك لا يمثل لى شيئاً، فلقد صممت على أن أرى حورية

وباسكال مليكة، فلن يأخذ هذا الأمر سوى دقيقة واحدة، وفى هذه اللحظـة، لم أكن متيقنة مما سأفعله. وفى مطعم في تيه تو، كان الباب مفتوحاً للسهرة، ولكن الصالة الصغيرة كانت خالية، وأخرج السيد في رأسه مـن بـاب المكتـب، وقال لى بصوت ردئ: "ماذا تريديـن؟"، فحـاولت أن أمـر، لكنـه سـد أمـامى الطريق، فلقد كـان أكـثر قـوة مـن رجـل قصير ونحيـف مثلـه، وصـاح فـيَّ: "انصرفى! انصرفى!"، وأملت أن يلفت صوته نظر حورية، ولكنها لم تظهر، فربما كان يحبسها، أو لربما لم يعد لها رغبة فى رؤيتى البتة، وربمـا كنـت بحق أحمل النحس للآخرين.

درت كثيراً فى خطوط المترو هـذا المسـاء، حتـى فـى جـانب محطـة ريومير أو فى جانب محطة جار دى ليون وحتـى محطـة دانفير – روشـرو، وكان هناك أناس غريبو الطباع فى عربات المترو وعلى الرصيف، وكـان هنـاك جنود مُسرحين يغنون مرتشفين الخمر متشردين، وكـانت هنـاك نسـاء لهـن عيون شفافة، وكان هناك سائحون تائهون، وأنـاس عـاديون للغايـة يحملـون سلات وقبعات. وفى محطة ار ايه متييـه[11]، بحثـت عـن الجنـدى القديـم، اريتريه الذى كان يبدو عليه بحق أنه محارب، مغلـف فـى دثـاره الفضفـاض وأقدامه محمية بخرق، ثم بحثت عن يسوعى الذى يستجدى راكعاً سواعد من صليب، ومارى مادلين بعينها الخضراء اللون وشعرها المنكوش وفمـها الملطخ

(11) محطة مترو فى باريس تعلق فيها لوحات تاريخية ومعادن صغيرة علـى صلـة بـأحداث قومية بصفة خاصة. (المترجم)

بالدم كما لو أنها انتهت من قرط أحد ما. وكان الأمر غريباً بالنسبة لى، فللمرة الأولى دون شك، صمتت الطبول ودق الصمت فى المرات، وفى محطة اوستيرليتز، بدت الأمور وكأنها لحظات تعقب عاصفة، أو لحظة تعقب دق نواقيس، فأدركت أن ذلك بمثابة علامة شؤم.

فى اليوم الأخير قبل أن أستقل الطائرة إلى ولاية بوستن، تسكعت بجوار شارع جان - بوتن كما لو كان هناك شئ بحق سأجده هناك، بخلاف بعض الفتيات المتشردات، المعربدون ذوى السنتيمين، وفندق الآنسة مايير المؤثث، وتمنيت بغير وضوح أن تخرج مارى - هيلين من المبنى، وأن تأتى نحوى وتسلم علىَّ بحرارة شديدة وأن أرى نونو فى المطبخ، عارياً تماماً وهو يرقص الجامبه. كانت السماء تمطر، كانت القطرات تنحت مستنقعات صغيرة سوداء، لا شئ تبدل، ومع ذلك كانت تلك حياة أخرى بعيدة جداً. مرت سيارة شرطة ببطئ، فرحلتُ مسرعة، ووجهى ملتفت إلى جانب آخر حتى لا يلحظ أحد إلى أى حد أنا سوداء، فعلى الرغم من جواز سفر ماريما، وخطاب قطاع الهجرة لسفارة الولايات المتحدة الذى يفيد أن اسمى تم سحبه فى القرعة، كان قلبى يرتجف كما لو كان أحد سيلقينى إلى خارج الولاية، وحينئذ فكرت أنه ليس هناك ولو مكان واحد لى فى الدنيا، وأنه فى كل مكان سأذهب إليه، سيقال لى أننى لست في بلدى، وأنه ينبغى على التفكير فى الذهاب للبحث عن مكان آخر.



في فصل الصيف، يكاد المرء يختنق بولاية بوستن، فلقد كان هناك بخار يعلو المدينة حيث تختفى ناطحات السحاب. كانت سارا ليبكاب تقيم فى شقة مكونة من حجرتين فى مبنى من الطوب الأحمر بالقرب من نهر شارل ناحية بى. يو. وفى الصباح، كانت تُدرس الموسيقى فى مدرسة دينية، وفى المساء، كانت تغنى فى حانة لموسيقى الجاز مع صديقها جوب، عازف البيانو.

فى الآونة الأولى، كانت الأمور تمضى على ما يرام، إلى حد أننى لم أشعر مطلقاً بالحرية مثلما شعرت بها فى هذه الفترة، فلقد كانت هذه الفترة مثل عهدى بالفندق والأميرات، والفارق أن هنا لم يكن هناك من إنسان يكلف

أحد بالبحث عنى ؛ فكنت أستقل الترامواى وأذهب إلى حيث أريد، وأظل خارج المنزل طوال النهار فى باك راى أو فى هاى ماركت أو فى ارليجتون أو فى الميناء ؛ وكنت أذهب إلى كمبردج سيراً على الأقدام مدلفةً على طول النهر أو مستقلة المعبر ؛ وفى الفترة التى كانت تمضى فيها سارا لتلقى دروسها، كنت أقوم بعملية تنظيف المنزل، فكنت أنظف وأنسق الأوانى، وأعد طعام الغداء والعشاء، ولم تكن سارا تطلب شيئاً منى، ولكننى كنت أرى أن ذلك أمر طبيعى، عوضاً عن المسكن كما كان يحدث فى منزل بياتريس، غير أن سارا وجوب لم يكونا يعطيانى النقود، ولم يكونا يسألانى البتة كم أنفقت كى أشترى لهم الطعام، ولم أكن أجسر على طلب النقود منهما، ولكننى رأيت أن مدخراتى تنهار ولم تعد لدى ولو ورقة مالية خضراء، ولم يكن فى إمكانى أن أزاول عملاً، وكنت أترصد صندوق بريدى كل يوم على أمل أن أتلقى مظروفاً مدونا عليه قطاع الهجرة، وكنت دائما منفعلة قليلاً، وكان لدى شعور بأن مصيدة تطبق علىّ بهدوء دون أن يكون بوسعى أن أفعل شيئاً.

كانت سارا وجوب يعيشان يوما بيوم، فكانا لايدخران نقوداً، وكانت سارا تقوم بتسديد إيجار الشقة من راتبها الذى تتقاضاه من عملها كمدرسة للموسيقى، ولكى تنفق على الأمور الأخرى، مثل السهرات مع الأصدقاء والمطاعم والثياب، كانت تنفق عائد عزف البيانو فى مشرب الخمر، وأظن أنهما كانا يتعاطيان منشطات أيضاً، فكانا يدعوانى من آن إلى آخر،

ويصطحبانى إلى نادى سى. تى. وايو فى منطقة باك بـاى، الـذى كـان يسـميه جوب "بلاك باى" لأننا كنا نستمع فى هذا المكان لأفضل موسيقى جاز.

كانت سارا تحـب كثـيراً أن تقدمنـى لأصدقائـها، وكـانت تجعلنـى أرتدى مثلها أثواباً سوداء ملتصقة على الجسد، قميص أسود وقبعة، أو كانت تجدل شعرى إلى ضفائر صغيرة كما كانت تفعل الأميرات فى الفندق، وكـانت فخورة بى، وتقول أنه ليس لى من مثيـل، وأننـى أفريقيـة حقيقيـة، وكـانت تقـول لأصدقائـها: "إنـها تدعـى ماريمـا، وهـى مـن أفريقيـا"، فكـان النـاس يقولون: "آه؟ " أو "اوه"، ويطرحون علىَّ أسئلة غبية، مثل " أى لغة يُتحـدث بها هناك؟ ". وفى البدايـة، تعـودت علـى لعبـة سـارا، ثـم أخـذ ذلـك الأمـر يضايقنى بحق، أسئلتهم، نظراتهم وجهلهم بكل شئ. فـى مشـرب الخمـر، كانت الموسيقى تدق بقوة شديدة، وكـان هنـاك إيقـاع ثقيـل يـدق فـى جوفـى، وكنت أحاول عبثاً أن أضع يدى على أذنى السليمة، صوت الوتـر الغليـظ كـان يدخل جسدى، فيؤلمنى، وكنـت أشـرب البـيرة، المرجريتـا، الكوبـا الحـرة، كنت ارتشـف الضـوء والدخـان فـأصبح ثملـة مثـل حوريـة عندمـا عـادت مـن العُرس.

ربما كنت أحب ذلك أو ربما لم أكن، فلقـد كـان ذلـك الأمـر جديـداً علىَّ، وكنت أشعر وكأن شخص ما بدل جسدى، فلقد أصبحت رفيعة للغايـة، نحيفة تقريباً، وكانت عيناى محمومتين، وأشعر بالكهرباء فى أناملى حتـى أطراف شعرى، وكنت أشعر بالكحول يمـلأ مفاصلى فيجعلـها أكـثر ليونـة،

وكنت أمضي من مجموعة من الناس إلى أخرى، وكان جوب يمسكني من منتصف جسدي، ثم يتحدث بصوت جهور وبسرعة، فلم أكن أسمع ما كان يقول، أما سارا فكانت تضحك بطريقة عجيبة، ضحكة خفيضة، تغدو شيئاً فشيئاً حادة، وتدور كالشلال.

كانت سارا ليبكاب تحب أن تقص حكايتي، كيف تعارفنا، فندق اكسيلسيور، أو كونكورد، لا أعرف، تمثال المرأة العارية بين حائطين كما لو كان قد وقع زلزال، والأيام التي كنت أجلس فيها على حافة منصة الغناء، كفتاة صغيرة مجدة كي أنصت إليها وهي تغني لماهليلا جاكسون ولنينا سيمون، وكانت تحكي أنها كانت تعاملني وكأنها أختي الكبرى، وأنها انتشلتني أنا التي لم يكن لها أحد في الدنيا، أنا التي كان بإمكانها أن تعزف الدرابوكا وتغني، وأنها أتت بي لديها هنا، في ولاية بوستن، في هذه المدينة العفنة، حيث لا يستطيع أحد، ولاسيما شخص ذو موهبة، أن يتمكن، مهما كان الأمر، من الخروج من الفسق بل يمضي ليعيشه تماماً.

حدث ذلك في بداية الأمر، ولكن في نهاية الشتاء، كانت هناك هذه العاصفة، هذا الإعصار الحلزوني الذى قلب كل شئ، ولا أعرف إن كان هذا بحق الإعصار الحلزوني الذى كان السبب فيما حدث، فلقد كان الطقس حاراً جداً، وثقيلاً جداً في بداية شهر أغسطس ؛ وأحياناً كان الضباب مترامي الأطراف إلى حد أنه كان يغطي أعلى المباني، ناحية الميناء. وعندما جاء الإعصار الحلزوني يقصد مرتفع كود، كان هناك إنذار، فأغلق الناس

أبوابهم ونوافذهم وألصقوا على الأبراج الزجاجية لفات من الـورق ؛ وبـالرغم من ذلك استمرت سارا في الذهاب إلى مدرستها كـي تُدرس محاضراتـها فـي البيانو.

اعتاد جوب المكوث في المنزل في فترة الصباح، وكان يتزرع بـالقول بأنه سيساعدني في التنظيف وإعداد وجبـة الغـذاء، ولكنـه فـي الواقـع كـان يتمدد على الأريكة في حجرة الجلـوس ويرتشـف البـيرة نـاظراً إلىّ بـأطراف عينه ومن فوق شاشة التلفاز المشعلة.

وذات صباح، كان هناك مشـهداً سـاخراً أسـفت عليـه، تقـدم جـوب نحوى، دون أن يلفظ شيئاً، كما لو كان يبحـث عـن شئ يشـربه فـي المطبـخ، وكان الطقس حاراً للغاية ؛ وكـان جـوب عاريـاً تمامـاً، يرتـدى سـترة وسطه فحسب، وكان جلده الأسود يلمع من العرق، وكنت أمرر المسحة المبللة علـى البلاط، وبدلاً من أن يقفز من فوق المسحة، مـر مـن خلفـها وأمسـك بـى. فـى البداية، ظننت أنه يمزح،ولكنه طوقنى بزراعيه وسعى لتقبيلى، ومــرر يـده من أسفل قميصى حتى يلامـس ثـدى، فـأخذت أصـرخ بكـل قوتـى ؛ وحينئـذ تركنى، فظننت أن الأمر قد انتهى، ولكنه عاد نحـوى، وحـاول أن يقتـادنى إلى غرفة النوم، إلى الفراش ؛ ولم يكن جوب قوياً، ولكن الكحول ضـاعف مـن قوته، ورفعنى وسـحبنى إلى الغرفـة ؛ ظللـت أصـرخ، وأوجـه إليـه ضربـات بقبضة يدى، فضربنى في البداية على جـانب رأسـى ثـم علـى وجنتـى وعلـى رقبتـى، وكـان يصيـح فـى نفـس الوقـت: "كلبـة ! " أو "لا تكونـى كلبـة!"،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما رأى أنه لن ينالنى أو خاف أن يأتى الجيران يطرقون الباب كى يسألون عما يحدث، تركنى، ثم أخذ يدى ووضعها على عضو ذكورته المنتصب، وأراد أن أستمنيه، وقال إنه مريض، وأظن أنه قال أننى إذا تركته فى هذه الحالة، سوف يهوى مريضاً، فقلت له أن يمضى يستمنى نفسه ثم رحلت.

دلفت طوال النهار فى شوارع بوستن، وأخيراً توقفت الزوبعة الحلزونية التى استهدفت مرتفع كود ومضت تشعث منازل الأثرياء الخشبية فى منطقة مارثيس فينريد.

بعد الظهر، كانت السماء تمطر، وذهبت إلى الشاطئ الآخر للنهر سائرة فى شوارع كمبرديج المصممة على الطريقة الإنجليزية، وكان الناس يخرجون من منازلهم، وكان هناك طلاب وعشاق يفترشون العشب الأخضر، ويحتمون بمظلاتهم الجولفية، وكان المطر الدافئ يخرج رائحة العشب ورائحة الأرض.

شعرت بنفسى خاوية، منهكة ؛ وفى مقهى بجوار محطة الترام، التقيت بجان فيلان، قال لى أنه جاء ليتعلم فى هارفرد وأنه يُدرسُ اللغة الفرنسية فى اليانس شيكاغو[1]. لم يكن طويلاً، كانت مقدمة رأسه خالية من الشعر، ولكن كانت عيناه جميلتين خضراوين، مرتبكتين قليلاً، وكانت له

(1) الاليانس Alliance منشئة تعليمية فرنسية تعنى بتدريس اللغة الفرنسية فى كثير من بلاد العالم. (المترجم)

ابتسامة عطوفة. أمضينا بقية النهار فى الحديث والسير فى الشوارع والذهاب من مقهى إلى آخر ؛ كـان صوتـه واضحـاً فكنـت أسمعـه جيـداً، وكـانت يـداه كبيرتين جميلتين ؛ وأظن أننى لم أتحدث مطلقاً مع أحـد أكـثر مما تحدثـت معه، ويبدو لى أنه منذ سنوات لم أتحدث هكذا، كما كنـت أتحـدث مـع جـد حكيم . كنت أحتمى وجان فيلان من المطر تحت أشجار المنتزه، وعندما بللنـا المطر، جلسنا فى مقهى، ولكى أفرغ من ذلـك الأمـر، مضينـا إلى غرفتـه التـى تقع فى الطابق الأخير فى منطقة "ذا أين" عندمـا جـاء الليـل، وكـانت هنـاك نافذة تطل على شارع ماساشوستس العريض.

لم نكن نتحـدث بحـق بسـبب أذنـى الصمـاء، ولأن الأخـرى كـانت متعبة، وكنت أشعر بالخواء يدق فى رأسى. ولم أشأ أن أفكر فيمـا حـدث فـى منزل سارا، إذ كنت أتحدث بالكـاد، وكـان جـان يتحـدث غـير ملتفـت إلىّ، فقص علىّ طفولته السعيدة، حكى لى عن أخوته وأخواته، فـى بريطانيـا وفـى باريس؛ ومن آن إلى آخر، كنا نضحك وكأننا نصتنا لفكاهة هائلة.

كان الوقت متأخرا جداً كى أعود للمنزل، ولم يكن هناك من شئ فى الدنيا يجعلنى أعود لمنزل سارا، فتناولت وجان البسكويت المملح الـذى كـان موضوعاً فى الثلاجة، وارتشفنا زجاجات صغـيرة مـن الكحـول ومـن الجـن[2] ومن الفودكا[3].

---

(2) مشروب مسكر قوى. (المترجم)

(3) مشروب كحولى تشتهر به روسيا. (المترجم)

لم أنم حتى الصباح، وتمدد جان على الأريكة، فبدا شاحباً ومنهكا، وكان ذقنه يظلل وجهه، وقلت لنفسي أنه عندما نخرج، سيقول العاملون فى الفندق أننى عشيقته أو ربما عاهرة لوقت قصير .

مضينا نتناول الإفطار فى كافتريا الفندق فى الفناء الداخلى: كثير من الشاى، بيض، فاصوليا ؛ ثم كان على جان أن يستقل طائرة شيكاغو عند الظهر.

عدت إلى منزل سارا.

ولكن خلال الأيام التى أعقبت ذلك، لم تمض الأمور على ما يرام البتة، ولم أعرف ماذا قص جوب على سارا، ولكنها أصبحت مجنونة وشريرة معى. فكرت كثيراً أن أقول لها الحقيقة، ولكن ماذا كان جدوى ذلك؟ فلم تكن لتصدقنى، فدائما تنحاز السيدات لجانب الرجل، حتى عندما يخطئون وحتى عندما يخونهن.

حينئذ اشتريت بطاقة سفر إلى جريهوند، ووضعت أشيائى فى حقيبة صغيرة، ووضعت كما أفعل دائما مذياعى الصغير المبقع، وكتاب فرانتز فانون الذى تبقى من ذكرى حكيم ورحلت إلى شيكاغو.

لم يكن لدى خوف من شئ، وكنت قادرة على أن أواجه الدنيا. وبعد وصولى بيومين، عملت فى فندق كانال ستريت الذى يديره مستر استبان، "السنور"، وكان كوبياً منفياً، وكنت أجمع وأغسل أكواب مشرب الخمر فى "الساعة السعيدة"، وهى ساعة مرور الجريهاوندز ؛ وكانت هناك مغنية

سوداء البشرة لا تشبه سارا البتة، كانت تغنى على موسيقى البلوز[4] مصحوبة بعازف بيانو منهك. قمت بتأجير غرفة فى منزل بمنطقة ساوز روبنسون، فلقد رأيت لافتة على نافذة سفلى من المنزل كلافتات إعلانات السينما، وكان المنزل قديما متهدما ومؤسس من الخشب الأشهب، به درج سلم فى مدخله، وكان سقفه من خشب القدة الأخضر، وكان به مدخنتين عاليتين من الطوب الأحمر.

بعد ذلك بقليل، سقط عازف البيانو مريضاً، فعزفت بدلا منه، حيث ساعدتنى دروس سيمون وسارا جيداً، وكنت أعزف من ذاكرتى، ولم أكن فى حاجة إلى أن أقرأ عن الموسيقى، وأصبح كل شئ سهلا بالنسبة لى، كنت أربح خمسين دولاراً كل مساء، ومن أجر أربعة سهرات كنت أسدد مسكنى ؛ وكنت أتناول عشائى فى الفندق، وقبل أن أصعد على المنصة، وكنت أتناول بفتيك وجمبرى، وكنت أمسك نفسى عن الطعام والشراب حتى مساء اليوم التالى بزجاجات من الحليب وشريديد وات. كان صاحب الفندق معجبا بموسيقاى، فكان يأتى ليجلس فى الصالون عندما كنت أعزف، كان ينصت إلى الموسيقى وهو يحتسى المياه الغازية. وعندما رحلت المغنية بدورها، عيننى بدلاً منها، فكنت أغنى وأعزف على البيانو، وكنت أغنى أغانى سارا: "بيلى" و"هوليدى" و"نينا سيمون". وفى بعض الأحيان كنت أرتجل، فكنت

(4) الـ blues موسيقى من الجاز ألفها زنوج فى بعض ولايات أمريكا. (المترجم)

أعزف الموسيقى التى كنا نعزفها فى ممرات محطات ريومير – سيباستوبول أو على سقف شارع جافلو، وكان إيقاع البيانو يعزف صوت عاصفة من بعيد، وضوضاء السيارات فى الشوارع الكبيرة، وصرخات، ونداءات، وعواء قاطعى الحطب فى حقول سان – دومانج[5]: "اوها ! هوا! ".

لم يكن السنور يقول شيئاً يذكر، ولكن مع الطريقة التى كان يتمايل بها قليلاً على مقعده مغلقاً عينيه وهو يمتص سيجارته، كنت أدرك أن ذلك يعجبه كثيراً، ولم أكن أعير انتباها إلى الناس الذين كانوا يشربون فى مشرب الخمور، وكنت أعتقد أننى أغنى له بصفة خاصة. حاولت أن أتخيل حياته، وما مر به من أحداث قبل أن يصل إلى هنا، وربما كان عقيداً سابقا فى الجيش الكوبى، أو قاضى صلح قبل كاسترو[6]. وخارج السهرات فى مشرب الخمور، أمام كوب مياهه الغازية، لم أكن أراه البتة، إذ كان يعيش بمفرده فى مبنى ملحق بالفندق فى نهاية ممر أرضى. لم يكن مسؤولا عن أى شئ، حتى الدفع للموظفين، فلقد كان سامبو رجله الذى يقوم بكل شئ، فكان يعطينى أجرى بعد كل سهرة.

عثرت على جان فيلان، وكان يقيم مع سيدة تُدعى انجلينا فى مبنى راقى، فى منطقة بين جروف، بالقرب من لاكسهور، وكنت أقضى معه فترة ما بعد الظهيرة من آن إلى آخر، حتى أنسى بقية الناس، وكنا نذهب إلى فندق

---

(5) Saint-Domingue هو الاسم القديم لجزيرة هايتى. (المترجم)

(6) يقصد فيدل كاسترو. (المترجم)

يقع في أعلى برج، وفي هذا المكان، كان الطقس هادئ تماما، وساكن تماما، فكان صالونا حقيقيا من الدرجة الأولى ؛ ومن خلال فتحته الزجاجية الصغيرة التي تطل على الجانب الشرقي، كنت أشاهد الليل الأزرق والبحيرة وأضواء السيارات التي كانت تتعرج إلى الأسفل على الطريق السريع، كما لو كنت أحلق على بعد ثلاثين ألف قدم. كنا نتحدث في بعض الأحيان قليلاً، ولكن ليس كما حدث في غرفة فندق هارفرد ؛ وكنا نتضاجع، ثم نأكل، ثم أنام بثقل حتى المساء ؛ وفي معظم الأحيان، عندما كنت أستيقظ، أجد أن جان قد رحل ليدرس محاضراته، وكان يُعدُّ رسالة عن علم الاجتماع حول المهاجرين المكسيك في ضواحي شيكاغو الجنوبية. مرة أو مرتين، اصطحبني معه في أحياء روزل، تانلي، نابيرفيل، اورورا، وكان يُدعى لحفلات زواج وحفلات تعميد، فكان ذلك يحدث كما لو كان يذهب إلى كوكوب مارس، ولست على يقين من أنه – مع كل شهاداته – يفهم أفضل مني ما يراه.

في روبانسون، كان هناك أناس غريبو الطباع، ففي المساء، قبل قدوم الليل بقليل، كانوا يخرجون من منازلهم ذات النوافذ المسدودة بألواح الخشب، ثم كانوا يبيعون جرعات بودرة ومربعات الراتنج[7]، وتعلمت أن أتحاشاهم . ولكن في واجهة نافذة غرفتي على الجانب الآخر من الشارع، كان يعيش السيدور، وكان عملاقاً، ضخما كالدب الأسود، ووجهه طفولي، وكان يرتدي يومياً نفس الملبس من بنطال جينز وقميص قصير لونه أبيض

(7) مادة صمغية لزجة تُستخلص بصفة خاصة من أشجار الصنوبر. (المترجم)

وأحمر، حتى عندما كانت رياح الشمال تهب، وكان يعيش في منزل مترنح مع أمه، وكانت سيدة سوداء البشرة وقصيرة، وكانت تعمل في مقهى، وتصادق معى، فكان كل صباح، عندما كنت أخرج للقيام بالمشتريات، في حوالى الحادية عشرة أو في الظُهر، كان السيدور يجلس على عتبة منزله يشير إلىّ كثيراً، ولكنه لم يكن بوسعه أن يتكلم، فلقد كان هناك خلل في عقله، فكان يحرك رأسه عندما كنت أقول له شيئاً ما، وكان يشبه كلباً ضخماً متوحشاً لكنه مسالم. كان أولاد الحارة يهزئون به، فكانوا يلقون عليه الحصى، ولكنه لم يكن يغضب، وكان بإمكانه أن يجلس لساعات على عتبة بابه، منتظراً عودة أمه وهو يلتهم البسكويت الملح. وكانت العصابات لا تتركه هادئاً، ففي بعض الأحيان، لكي يتسلوا، كانوا يشعلون له سيجارة من الحشيش ليروا التأثير الذى تحدثه عليه، فكان السيدور يدخن السيجارة، ثم يأخذ في التهام بسكويته في هدوء، وكان يضحك ربما قليلاً، هذا كل شئ. كانت له بحق قوة غير معقولة، فذات يوم صعدت شاحنة صغيرة يقودها ثمل على الرصيف وهشمت جدار مبنى بعيد، فوصل السيدور، وتعلق في الجسر الرفوع وبثقله فقط رفعه ثم وضعه في مكانه. ويبدو أن منظم لمنازلات أراد أن يجعله يعمل لديه، ولكن السيدور كان رقيقاً جداً، كثير العطف، لم تكن لديه رغبة في أن يتقاتل، ولم يكن يتكلم كثيراً، وكان كل ما يقوله، يدور حول الطقس المتوقع في فصل الشتاء: "ربما تمطر، ربما تثلجُ، لا أدرى".

كانت أمه تحميه، فذات يوم، كنت أجلس على درجات سلم بيته بجوار السيدور، وكان معى كتاب فى الرسوم المتحركة، فلقد صممت على أن أعلمه القراءة، وجاءت أمه، وعندما رأتنى غضبت وقالت: "ما هذه الزنجية؟ ماذا تريدين من ابنى؟ "، فلم أعاود فعل ذلك مطلقا.

ومع ذلك، فذات يوم من بعد الظهيرة، وقعت هذه القصة المفجعة مع الشرطة، فكان من المفترض أن العمدة أعطى تعليمات حتى يتم القبض على بعض الأشقياء، حتى تلتقط له صورة فوتوغرافية وتتحدث عنه الصحف، ولا أعلم لماذا اختاروا شارع روبنسون هذا، ربما لأنه لم يكن يحدث به أى شئ. بغتة، وصلت سيارات الشرطة فى شكل علب، فأغلقت الشارع، وهجم رجال الشرطة على المنازل، خاصة المنازل الواقعة فى أطراف الشارع، والتى كانت نوافذها مغلقة بألواح الخشب، وعلى ما يبدو فإنهم قبضوا على بعض الصبية، وفجأة، شاهدوا السيدور، وكان العملاق قد نهض من نوم القيلولة، فخرج على عتبة بابه، يرتدى دوماً عفريتته الجينز والقميص الصغير الأحمر والأبيض، وعندما رأى الفانوس الدوار يومض، شده ذلك فتقدم بخطوات حتى يرى ماذا يحدث، وفى أعلى درجات السلم الخشبية، بدا أكثر طولاً وأكثر ضخامة، كدب حقيقى يخرج من الغابة، فانقبض قلبى لأننى لاحظت أنه لا يدرك الخطر وأن رجال الشرطة ينتابهم خوف منه، فأردت أن أصيح له: "السيدور، ارجع، عُد إلى منزلك"، وكانت مكبرات صوت الشرطة تصدر أوامر، ولكن السيدور لم يكن يدرك ذلك بالتأكيد، ومضى فى السير

باتجاههم، واضعا يداه في جيوبه متمايلا بلطف، فقفز عليه ثلاثة رجال من الشرطة، وحاولوا أن يسقطوه على الأرض، ولكنه دفعهم بضربة مفاجئة، فكان يعتقد أن الأمر فكاهة، ونظر إلى أسلحتهم المصوبة إليه دون أن يفهم، واستمر في التقدم نحو منتصف الشارع، ولكنه لم يعد يضع يديه في جيبه، وعندما تيقن رجال الشرطة أنه غير مسلح، اغتنموا الفرصة، فقفزوا عليه وشرعوا في ضربه بالعصي، على ظهره، وعلى ساعديه، وعلى رأسه، فكان السيدور ينزف دما من أنفه ومن جمجمته، ولكنه كان لا يزال منتصبا، ودار حول نفسه متذمرا، وزراعيه ممدودان كما لو كان يسعى للتعلق بشئ، ثم ضربه رجال الشرطة على ساقيه، وفي النهاية سقط على الأرض، ثم استمروا في ضربه بضربات مطرقة وبقوة شديدة لدرجة أنه خيل لي أنني أسمع صوت الضربات، وكانوا يسبونه ويضربونه. وفي النهاية، رأيت السيدور يبكي راقدا على الأرض، واضعا زراعيه على رأسه حتي يذود عن نفسه الضربات، وكان يطلق صرخات تذمر واستنجاد بأمه.

وصلت العجوز في اللحظة التي حملوا فيها السيدور في سيارة، وكان ضخما لدرجة أنهم لم يتمكنوا من إدخاله مستقيما، فدفعوا رأسه إلى الأمام وضربوا ساقه حتي يثني نفسه في السيارة، وجرت العجوز السوداء خلفهم وهي تصرخ، كانت تسعى لتلحق بهم، ثم رحلوا فعادت إلى منزلها وأغلقت بابها. كانت على يقين من أننا جميعا – في هذا الشارع اللعين – نحن الذين أرسلنا رجال الشرطة للبحث عن أبنها. وبعد يومين من ذلك،

وبعد أن عاد السيدور، تبدل شئ ما، فلم يعد يجلس في خارج المنزل يشاهد الناس وهم يعبرون في الشارع، وظل حبيس المنزل، فلقد كان خائفا. وبعد ذلك ببضعة أيام، رأينا لافتة على المنزل، فلقد حملت العجوز السيدور إلى حي آخر، فلم أعد أعرف عنه شيئا.

بعد ذلك، عرفت الانحراف، كان لدى منه ما يكفيني وأنا أقتسم جان مع إنجيلا، فلقد خرجت مع بلا، وهو من الإكوادور، وكان يقيم بمنطقة جوليت، وكان فارع الطول، نحيف البدن، شعره طويل مثل هنود السينما، وكان يضع حلية صغيرة ماسية مصقلة في أذنه اليسرى ؛ وكان يحلم بالرج[8] والراجا وأن يشهر علامته التجارية، وفي انتظار ذلك، كان يتاجر بشكل غير شرعي في ملاقيط الشعر والمواد المنبهة، وقليلا في البودرة، وكان يتعاطى المخدرات أيضا، ولكن هذا الأمر لم أكن أعرفه عنه. كنت أذهب معه إلى مشارب الخمر، في حانات البلوز[9]، وكنت ألتقي بموسيقيين ؛ وكنت أظل خارج غرفتي طوال الليل، وكنت ألتقي بنجوم في لعبة كرة السلة ولاعبين مشطوبين من سجلات الرياضة متسكعين ونساء شهيرات تتصرفن على نهج جانت جاكسون وهي تغني "فر إذا أردت أن تحيا "، ورجال من جاميكا يتصرفون على نهج زيجي مارلى، ورجال من هايتي يتصرفون على نمط الفوجز. أما أنا فكنت أحب الأغاني القديمة: كأغنية رازهل "راعي

(8) reggae موسيقى يعزفها الزنوج في جاميكا. (المترجم)

(9) موسيقى من مشتقات الجاز الفها زنوج الولايات الأمريكية. (المترجم)

الضوضاء"، وأغنيات بلاك ثو وهوب ومارك وكامل. واستبدلت المذياع القديم بجهاز تسجيل صغير، كنت أمضي في كل مكان ومعي الموسيقى العميقة فى أذنى الوحيدة، كما لو كان العالم أجمع صامت، وكنت أرتدى ملابسى مثلهم، كنت أسير وأشعل الغليون مثلهم، وكنت أتحدث مثلهم، وكنت أقول بالإنجليزية: "أتعلم ماذا أقول؟"، وما من إنسان كان بوسعه أن يظن أننى أتيت من الجانب الآخر من العالم. ذات مرة تحدثت عن المغرب، وهى الطرف الآخر من الدنيا، ففهموا أننى أتحدث عن موناكو، فلم أعد الكَرة. ولم يكن هناك من إنسان يعرف ماذا يعنى أن يكون المرء من أفريقيا، ثم أننى لم أكن قد تسلمت بعد البطاقة الصغيرة البلاستيكية الخضراء التى تمنح كل الحقوق. كنت أرى جان من آن إلى آخر، ولكنه لم يكن يحب أن يشاركه أحد مثل بيلا فيَّ، ولما كان ذقنه صغير، فلقد كان يبدو أكثر حزناً.

بفضل سينور، أصبح لدى رقم فى التأمين الصحى ورخصة قيادة، وذات مساء، ودون أن يخطرنى، دعا مستر لورى إلى مشرب الخمرة حتى يسمعنى وأنا أغنى، وعندما انتهيت من دورى، دون مستر لورى على بطاقة زيارته موعداً لليوم التالى، وذهبت بمفردى لحجرة التسجيل، دون أن أحدث بلا، ولا جان، ولا أى شخص، ولم أدر ما الذى كان يريده مستر لروا منى، فارتديت بنطالاً ضيقاً، وقميصاً من الصوف فضفاضاً لونه أسود، ورقبته مستديرة تحسباً للحالة التى من الممكن أن يعتدى علىَّ فيها. كان الأستديو يقع تحت الأرض من مبنى فى منطقة اوهيو، وكانت هناك صالة كبيرة

مفروشة بعازل أسود، وبها بيانو أبيض في منتصفها، وكان الأمـر مخيفـاً إلى حد ما. عزفت كما تعلمت مع سيمون فى منزل لابيت أوكـاى، منحنيـة علـى لوحة المفاتيح حتى أنصت للنوتات الخفيضة وهى تدق، وغنيت لنانـا سـيمون أغنية: " أضـع هجـاءً لِـك" وأغنيـة "أسـود لـون بشرة حبيبـى"، ثـم عزفـت مقطوعتى، تلك التى أعوى فيها كمقطعى الحطـب والتـى أصيح فيـها كصيـاح كطيور السمامة فــى السـماء فـوق فنـاء لالا أسمـاء، والتـى كنـت أغنـى فيـها كالعبيد الذين ينادون أجدادهم على حافة المزارع وهم منتصبون فى البحر، ثم عاودت غناء أغنيتى " على السقف" تذكاراً لشارع جافلو وسلم رجـال الإطفـاء الـذى يقـود إلى سقف الدنيـا. كـان قلبـى يـدق بشـدة، وحتـى أمنـح نفسـى الشجاعة، فكرت فى صوت دجاما الغريب والمنتعـش الـذى كنـت أسمعـه فـى الماضى فى دوار تبريكة ومذياعى ملتصقاً بأذنى، عندما كانت تعلـن عـن كـات ستفانز على إذاعة تانجير، صوت أمريكا.

الآن بعد كل هذه السنوات، أعرف ما أريد أن أسمعـه: هـذا الرنـين اللامنقطع والأصم والخفيض والعميق، صوت البحر على هضبة الأرض، صوت النـاقلات الحديديـة علـى شـرائط السكك الحديديـة اللامتناهيـة، زمجـرة الأعاصير المستمرة التى تخرج خلف الأفق كالتنهد أو الضوضـاء القـادمين مـن المجهـول، صوت دم شرايينى عندما أستيقظ فى الليل وأشعر أننى وحيدة.

فى هذه اللحظة، أعزف ولم أعد أخاف مـن شئ ؛ وأعلـم مـن أنـا، وحتى طرف العظمة الصغير الـذى تهشم خلـف أذنـى اليسـرى، لم تعـد لـه

أهمية؛ وحتى الحقيبة السوداء والشارع الأبيض والصرخة المدوية لعصفور الشر، لم تعد هناك أهمية أيضا في حياتي لزهرة ولاهابيل ولاللسيدة دلاهاى ولا حتى لجوب، لكل هؤلاء الناس الذين يراقبون بدقة ويطاردون ويمدون شباكهم في كل مكان . غنيت لوقت طويل، دون أن آخذ نفسي تقريباً، فانتابني ألم في أطراف أناملي، ثم انتابني شعور بدوار كبير، وكأنني في ممرات محطات المترو الخاوية عندما يفر الناس، أما مستر لروا فلم يقل شيئاً، فرحلت من قاعة التسجيل وقلبي منقبض، كان لدى انطباع أنني فشلت في كل حياتي، وفررت ألوذ بالفندق مع جان فيلان.

رقدت على مدار نهارين وليلتين، دون أن أستيقظ تقريباً، فلقد استنفذت كل طاقاتي. وبما أنني رأيت العملاق السيدور ملقياً على الأرض على يد رجال الشرطة، مضروباً ومتروكاً لبكاء أمه وكأنها تبكي طفل صغير، فلم يكن في وسعي أن أعود إلى شارع روبنسون، فمازالت تدوى في أذني صفارات سيارات الشرطة عندما أغلقوا الشارع. ومع وجود سماء فصل الخريف الزرقاء والأشجار حمراء اللون، إلا أن الأمر لم يكن مختلفاً عن شارع جان – بوتن، ولا يختلف كثيراً عن فناء لالا أسماء، ولا عن الشارع الأبيض حيث أختطفت عندما كنت صغيرة.

قبل هبوط الثلوج فحسب، وفي شهر نوفمبر، تلقيت في آن واحد خطاب هيئة الهجرة به بطاقة إقامتي، وموعداً مع مستر لروا لتسجيل أغنية "على السقف". وفي قاعة التسجيل، كان هناك المنتج والمساعدين والفنيين،

وعزفت وغنيت فى فترة الصباح، وكـان التسجيل يتقدم قليـلاً، وكـان الأمـر يستلزم أن أعود للوراء دوما، ثم أبدأ من جديد، ثم، عندما فرغـت مـن ذلـك، وقعت عقداً لشريط واحد ولكل ما أنتجه على مدار خمسة أعوام، فلم تكن لدى طوال حياتى نقود أكثر من ذلـك، ولم أكـن أدرك مـا حـدث جيـداً. فـى الليـل التالى، وفى صحبة بيلا والموسيقيين، ذهبت ومستر لروا ومساعدو الإنتـاج إلى مطعم "ليجران" لصاحبه ماجيك جونسون، وكانت رأسى تدور، وكان يبدو لى أنه لم تعد لى حدود، وكانت هناك صحفية تطرح على أسئلة، فكنت أقول لها أى شئ، أننى فرنسية، وكنت أفريقية، وعندما سـألتنى عـن عنـوان أغنيتـى القادمـة، قلـت لهـا دون تـردد " إلى السيدور مع حبى"، وانتـابنى غضـب مفاجئ، وكنـت ارتعـش. كـان لـدى انطبـاع أن موسيقى الطبـول فـى محطـة ريومير – سيباستوبول كانت موجودة فى كل مكان، فـى الهـواء، فـى دخـان مشارب الخمور، فى اللمعان الأحمر الذى يظل فوق شيكاغو حتى الفجر.

فى الصبـاح، تركتـهم جميعـاً، وسـرت علـى طـوال البحـيرة، كـان الطقس بارداً للغاية ولم أكن أرتدى سـوى قميصـى الجلـدى وقبعتـى السـوداء المدودة حتى أذنى، وكانت أشجار الحور الرجراجة مشـتعلة، والسماء كـان لونـها أزرق كثيف، والشمس كانت تشرق فوق البحيرة. رأيت أسـراب طيـور الكُركى تعبر نحو المكسيك الجديدة.

انتظرت باحتشام فى ممرات الاليانس الفرنسية، فلم يتعـرف علـىَّ جان فيلان على الفـور بسـبب قميصـى الجلـدى الأسـود وقبعتـى، ثـم اعتـذر

للطلاب، قال لهم إن لديه أمراً هاماً وعاجلاً، وسرنا فـى الشـوارع العريضـة، تناولنا إفطاراً، كما حدث في هارفرد، ثم مضينا حتى الهواء الطلق الذى كـان يحيط بمحطة التنقية على شـاطئ البحيرة. كـان هنـاك أنـاس جالسـون علـى العشب الأخضر، تجرها كلاب ملكية، وكـان هنـاك شيوخ يرتـدون ملابـس رياضية ويمارسون لعبة التيشي[10]، كان الطقـس بـارداً. وعنـد مـروري أمـام مبنى في حي شريدان، استأجرت شقة صغيرة، وسددت النقـود فـى الحـال، فدفعت شهراً من الإيجار كضمان وشـهر آخـر كإيجـار مقـدم، فلقـد أردت أن أتصرف كما لو كنت أنا وجان زوجان دون شهود ودون كنيسـة ولا مسـتندات ولا مستقبل ؛ وأعتقد أننى أصبحت حبلى في هذه الآونة.

لا أعرف أى شـيطان دفعنـى للعـودة إلى بـلا فـى شـقته فـى لابـلازا بمنطقة جوليت، وربمـا كـان هـو الشـيطان، أو لربمـا كـان جـان فيـلان لأنـه جعلنى انتظر كثـيراً، ولأنـه أنتظـر الكثـير منـى، وأظـن أنـه لم يكـن يوجـد شخص أكثر ضجراً منى آنذاك.

فى شيردان، كنتُ سجينة فـى قفـص مـن الزجـاج والحديـد، أعلـى المدينة والبحيرة المتجمدة، وفى مكان مُغلق بإحكـام إلى حـد أننـى كنـت أظـن أننى أصبحت صماء الأذنين. كنت أنتظر طوال اليـوم، كنـت أنتظـر أن ينـهى جان محاضراته، كنت انتظر أن يفرغ من تلاميذه، من أساتذته ومن مقالاتـه، ثم كنت أنتظر أن يفرغ من إنجيلا. وفى حوالى الرابعة، كان جـان يـأتى علـى

---

(10) رياضة صينية تعمل على تنشيط العضلات. (المترجم)

عجل، يحمل زهوراً، وزجاجة خمر، وبرتقال، كما لو كـان يعـود مريـض ؛ وكنا نتضاجع حتى على الموكيت، أمام الفتحة الخالية حيث يكون الظـلام قـد هبط، ثم أرقد معانقة له، كما كنت ألتصق في ظهر لالا أسماء . فـي منتصـف الليل، كان ينصرف على أطراف أقدامه، وذات يوم، سـألته أن يرينـي صـورة لصديقته ؛ كانت تضحك بغباء قليـلاً، علـى عشـب أخضـر كبير أمـام حمـام سباحـة. كان اسم إنجيلا اسماً يليق بـهـا كثـيراً، فلقـد كـانت فارعـة الطـول، شقراء، ملائكية، علـى عكسـى تمامـاً فـى مجمـل الأمـر، وكـانت روسـية أو لتوانيـة، لا أعرف، وكانت تعمل كطبيبة.

وبلا أيضا كان علــى النقيـض تمامـاً مـن جـان، فكـان رفيـع الجسـم كالنبات متسلق، عذباً وعنيفاً، يشوبه نوع من الغضب المكتسب، وكـان يُعنـى عناية تامة باختيار ملابسه وأحذيته وأقمصته الحريرية السوداء، وكان يطلى كل صباح الحُلي الماس المصقل الذى كان يضعه في أذنه، كان يقول إن ذلك أتاه من أخته، وأنها أعطته له قبل أن تموت من جرعة مميتـة عنـد أقربائـها فـى واشنطن. معه، كان شعورى بالفراغ يقلُ، وكذلك قلق الانتظار. وفـى الواقـع، لم أعد أنتظر شيئاً، فكنا نعيش اليوم باليوم، وكنا نستمع للموسيقى، ونذهب لمشارب الخمور والحانات الليلية والسهرات ؛ وكان مستر لروا لايحـب بـلا، وذات يوم هتف إلىَّ ولا أعرف كيف حصل على رقم الهاتف، وقـال لى: "إنـه نمط لايناسبك، فهو ضعيف جداً وسوف يهبط بك"، فغضبت وقررت ألا أعود إلى غرفة التسجيل.

كان ذلك قبل قدوم فصل الربيع، وكان بلا يواجه صعوبات مالية، فكان مداناً بأشهر إيجار مسكنه، وخططنا مشروعاً للرحيل إلى كاليفورنيا بالسيارة، ولكننا لم نتوصل لاتخاذ القرار. في المساء، كنا نتسكع حتى الرابعة صباحاً أو حتى الخامسة في الحانات الليلية، نشرب ونشعل الغليون، وعندما كنا نستيقظ، كنا نجد أن الوقت متأخراً جداً، إلى حد أنني لم أعد أعرف في أي يوم من الأسبوع أكون؛ ثم طُرد بلا من لابلازا، فذات بعد ظهر يوم من الأيام، وأنا عائدة إلى المنزل أحمل حليباً وفطائراً وبعض الأشياء للعشاء، لاحظت أن مغلاق الباب قد تغير، وجاء بلا فغضب، ولم أره مطلقاً في مثل هذه الحالة، ولاحظنا أن أشيائنا وضعت في سلات القمامة أسفل درجات السلم أسفل المطر، فقرع بلا الباب بضربات قدم قوية، وكان يصيح بشتائم، فقدم رجل أمن المساكن يحمل مطرقته الإلكترونية وهاتفه، وتظاهر بلا بأنه يتشاجر، فصعقه رجل الأمن بعصاه، ثم نادى رجال الشرطة، فصرخت وتشبثت بالأرض وصرخت ثانية، ثم جررت بلا من شعره حتى المكان الذي تتوقف فيه السيارات، وكان أمراً مضحكاً ومرعباً. وضعنا حقائب القمامة في السيارة ورحلنا قبل أن يصل رجال الشرطة، وحتى ينتقم، ألقى بلا زجاجة، من عصير الطماطم على واجهة المنزل، والتي ألصقت بقعة عريضة حمراء على الحائط؛ وفي ذات الوقت، كان يصيح كذئب من المدينة القديمة، ثم لذنا بأحد أصدقائه في المدينة التي يكثر سكانها من الصينيين، ثم قررنا أن نرحل إلى كاليفورنيا، فعبرنا كل الولايات المتحدة تقريباً دون أن

نتوقف، قائدين السيارة بالتناوب، ليلاً ونهاراً، نـائمين فـي مواضـع توقـف السيارات. في بعض الأماكن، فـي اركانسـاس وفـي اوكلاهومـا، كـان الطقـس بارداً جداً، وكان هناك ثليج على المنحدر، فسقطت مريضة، وكنـت أرتعـش، كان بى ألم في رأسي، وكنت أتقيأ، فقال لى بلا: "لا عليك، سيمر هـذا الأمـر بسلام، إنه زكام"؛ ولكن الألم لم يفارقني، فلم يكن مجـرد زُكـام، بـل حُمـى شوكية. عندما وصلنا إلى كالفورنيا، كنت على وشك الموت، كان ظهرى وعنقى مجعدين، وكـان هنـاك ألم واخـز يـدق فـي أذنـى، وكنـت أشعر وكـأن قلبـى متوقف، ولم أستطع أن أتكلم، ولم أعد أسمـع مـا كـان يقولـه لى بـلا، وكـانت عيناى مفتوحتين نهاراً وليلاً كما لو كنـت قـد سـقطت مـن الفضـاء. فـي سـان بيرنـاردينو، فقدت الجنين ونزفت دما غزيراً، فكان بلا خائفـاً مـن أن أمـوت في السيارة، فوضعني وحقيبتي علـى بـاب مستشفى، ولا أعـرف مـاذا قـص عليهم، ربما أنه انتشـلنى مـن نقطـة إيقـاف أو شيئاً مـا، لأننـى لم أره مـرة ثانية، وربما قبض عليه رجال الشرطة وهو يبيع البودرة أو الأختام، وهكـذا فقدت أحد قرطي الذهبيين التـى أعطتنـى إياهمـا لالا أسمـاء، ولكننـى كنـت مريضة بشدة حتى أهتم بذلك.

عندما دخلت مستشفى سان برنـاردينو، كنت فاقدة الوعـى أو هكـذا تقريباً، وأمضيت وقتى مكورة، مختبئة أسفل الملاءة حتى أهرب مـن الضـوء. وبسبب الحمى والجفاف، كان لسانى أسـود اللـون ومتـورم، وكـانت شـفاهى تنزف دماً، حتى أننى لم أعد أضع فى اعتبارى أننى صماء. كنت فى شرنقة،

مكورة فى قاع مغارة، فى عمق ألمى، وكان بطنـى، وهـو روحـى وكـائنى، قـد فسد كثيراً، فلقد كُحت وأخلى إلى حد أننى لم أعـد أعيـش إلا لـه. فـى بعـض الأحيان، كان يأتى شخصُ ما يضطرنى إلى الاستيقاظ والتبول فى الحـوض ثـم يقوم بحقنى، وكنت أشعر بـإبرة تغـوص فـى ظـهرى، بـين فقراتـى، فكنـت أصرخ من الألم، ثم أهوى منهكة على الفراش.

فى هذه الآونة، رأيت ندى للمرة الأولى، وسميتها ندى فى داخلى، لأنها وضعت يدها الندية جداً على جبهتى، فكـانت كنـدى الصبـح، ورأيـت وجهها الأملس الداكن وعينيها اللوزتـين السـوداوين، وشـعرها المصفـف فـى ضفيرة واحدة سميكة كالذراع . كانت تجلس بجوار فراشى، وكنـت أنظـر إلى عينيها، وأتبحر فى نظرتها، وأتشبث بيدها، و لم أكن أود أن تتركنى.

حينئذ نمت للمرة الأولى منذ أسابيع، ورأيت فى المنام أننى لا أنام، وأننى أتدحرج خلف موجة. فى كل صباح، كنـت أنتظـر عـودة نـدى، بيدهـا الطرية، وعينيها. كانت الوحيدة التى قادتنى نحـو البسـيطة، نحـو النـور، فبدأت أخرج من مغارتى، وهى الوحيدة التى كان بإمكانها أنى تضعنـى علـى العتبة، هناك حيث كانت تُسمع موسيقى الأطفال وصيحات العصافير، وحتى غطيط السيارات فى الشـوارع. كنـت أجمـع الأقـراص المنومـة لهـا، ثـم كنـت أدحرجها فى منديل تحت وسادتى، وفى الصباح كنت أقدمها لها، فلـم يكـن لدى شيئاً آخر أعطيها إياه.

جاء رئيس الأطباء ذات صباح بصحبـة طلابـه، ثـم عقـد محـاضرة، وكان طلابه يدونون ما يقول فى كتبهم، وكنـت أنظـر إليـهم حتـى يخفضـون أعينـهم، وكان الصبية يضحكون مستهزئين، ولم أكن أهتم بذلك، فلقـد كنـت أنتظر ندى.

جاءت قبل قدوم الليل، قبل أن تعود إلى حيث تقيم فى وإلى مؤسسة سان جوان. لم تكن تُدعى ندى، كانت تضع شارة على قميصها الأبيـض مدون عليها اسمها: شافيز، وكانت هندية، فلم تكن تكلمنى بغير الإشارة، كـانت تومئ لى بيديها ووجهها عن كل مـا تريـد أن تقولـه لى، وكـانت تخـط أحرفـاً بأناملها، وتعلمت الرد عليها، تعلمت أن أقول امرأة، رجل، طفل، حيـوان، يـرى، يتكلـم، يعـرف، يبحـث. وكـانت تعـرف قصـة الجنـين، فلقـد كـان العاملون فى المستشفى يواجهون هذه المشكلة إضافة إلى المشـاكل الأخـرى، ولم تسألنى ندى عن شئ . أرتنى صور رجال فى مجلة بالمصادفة: هوج جرانـت، سامى دافيد، كينو ريفز، بيل جوسبى وفهمت، وضحكنا كثيراً، وأظـن أنـها خافت أن يكون جنينى جاء على أثر حالـة اغتصـاب، وحينئـذ، دونـت علـى المجلة اسم جان فيلان، وأضفت كلمة نعم، إنه اسم رجل.

ذات صباح، قلت لها بالإشارة إننى أريد الانصراف، ففكـرت نـدى للحظة، ثم حملت إلىّ ملابسى، وتقهقرت للخلـف ثـم فتحـت بـاب الغرفـة، وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لى، لأنه حتـى هـذه اللحظـة لم أكـن قـد رأيـت منـها سـوى وجهـها البيضـاوى الصـافى، والـذى يشبـه قنـاع مـن الذهـب،

وحواجبها المقوسة، وعينيها المشـابهتين لدمعتـين مـن السـبج[11]، وشـعرها الأسود الناعم اللامع. وعندما وقفت أمام البـاب المفتـوح، رأيـت أنـها ضخمـة وبدينة ؛ ومن المفترض أنها قرأت في عينـي دهشـتي، لأنـها أشـارت لى عـن أردافها الكبيرة وهى تضحك.

ارتديت بنطالى الجينز الضيق وقميص قرمزى اللون، ثم وضعت على شعرى القبعة السـوداء والتـى عليـها ثبـتُ قـرط الهـلال الآخـر، ثـم وضعـت النظارة السوداء الشهيرة التى أعطاها لى بلا قبل أن نرحل، وكانت علامة على الحزن، ولكن هـا أنـا التـى كـانت مفقـودة. أردت أن أتـرك شـيئاً مـا لنـدى، على سبيل الذكرى، فأعطيتها كتابى عن فرانتز فانون والذى وجدته فـى قـاع سلة مهملات، وكانت صفحاته مثنية الأطـراف ومسـتهلكة وكأنـها صفحـات دعاية لمنتج ينقصها الصور التوضيحيـة، ولكـن هـذا الكتـاب كـان أنفـث شـئ معى.

عندمـا عـانقت نـدى شـافز، أعطتنـى بعـض الـدولارات مـن أوراق مستديرة موضوعة فى مشبك كما فعلت حورية فى السـابق عندمـا رحلنـا مـن تبريكة. هبطت السلم ومـررت أمـام مكتـب الحـارس متخـذة طريقـى بشـكل مستقيم تماماً دون أن ألتفت إلى أى شئ.

---

(11) مادة قيرية تلتهب كالفحم الحجرى وتستخدم الكلمة فى وصف العيون للدلالة على شدة سوادها. (المترجم)

ظللت لوقت طويل لا أخرج إلا ورأسى يدور، وساقاى يأبيان السير، وكنت أخفقت في العودة، وكنت أ سمع وقع أقدامى على الرصيف، وصوت الدم في شرابينى، وصوت الهواء في رئتى، ومع ذلك، لم أكن أسمع شيئاً آخر.

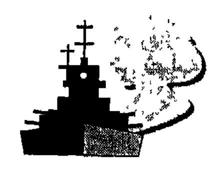




ظللت أسير لمدة أيام، حتى نهاية الشوارع، حتى البحر، حتى نهاية الدنيا، حتى الموت، وكنت أنسل وسط الناس، بين السيارات، مهرولة في الغالب، كنت أكثر سرعة من الآخرين، فليس هناك من شئ يمكنه إيقافي، فلقد تعلمت الجرى منذ وقت بعيد عندما خرجت من فناء لالا أسماء. تعلمت أن أتحاشى الشراك والأخطار وشرطة زُهرة، فكنت أترصد بطرف عيني، ثم أندفع، وأكون في توازن كالبهلوان على الخط الأوسط من قارعة الطريق. الشاحنات تلامسني، والأتوبيسات والعربات المعدنية يصدم هوائها وجهي، وأشتم رائحة عجلاتها العشر التى عندما تسير تحدث ثرى دقيقاً أسوداً.

السير عكس سير السيارات، أمر تعلمته بالغريزة، فإذا ما مشيت أنت في اتجاه السيارات فلن تراها وهي قادمة، وتكون آنذاك فريسة أو

ظللت لوقت طويل لا أخرج إلا ورأسي يدور، وساقاى يأبيان السير، وكنت أخفقت في العودة، وكنت أ سمع وقع أقدامي على الرصيف، وصوت الدم في شراييني، وصوت الهواء في رئتي، ومع ذلك، لم أكن أسمع شيئاً آخر.





ظللت أسير لمدة أيام، حتى نهاية الشوارع، حتى البحر، حتى نهاية الدنيا، حتى الموت، وكنت أنسل وسط الناس، بين السيارات، مهرولة في الغالب، كنت أكثر سرعة من الآخرين، فليس هناك من شئ يمكنه إيقافي، فلقد تعلمت الجرى منذ وقت بعيد عندما خرجت من فناء لالا أسماء. تعلمت أن أتحاشى الشراك والأخطار وشرطة زُهرة، فكنت أترصد بطرف عيني، ثم أندفع، وأكون في توازن كالبهلوان على الخط الأوسط من قارعة الطريق. الشاحنات تلامسني، والأتوبيسات والعربات المعدنية يصدم هوائها وجهي، وأشتم رائحة عجلاتها العشر التي عندما تسير تحدث ثرى دقيقاً أسوداً.

السير عكس سير السيارات، أمر تعلمته بالغريزة، فإذا ما مشيت أنت في اتجاه السيارات فلن تراها وهي قادمة، وتكون آنذاك فريسة أو

ضحية، ثم تُهدأ السيارات من سرعتها وتنسحب على طول الرصيف، وأغطيتها الطويلة براقة، وزجاجها مصبوغ، وهنا تفتح أبوابها، وتجد أيدى تسعى للإمساك بك وتضعك فى السيارة.

على النقيض من ذلك، إذا سرتَ عكس سير السيارات - وهو أمر ينعكف على جنون منك - فأصحاب السيارات هم الذين يخافون منك، فى مقاعد قيادتهم، خلف زجاجهم، فيتباعدون عنك، ويتركونك فى هدوء، ويديرون آلات التنبيه بكل تأكيد، ويطلقون صيحات ذئاب. ولكنك فى الحالة الأخيرة، ترى الشمس فى وجهك عند الغروب، وتحرق الشمس صدرك وشعرك ولا تسمع شيئاً.

أفكر فى ندى شافيز، أميرتى بفندق سان برناردينو، والجميلة جداً فى أردافها العريضة وطالعها الهندى وعينيها التى كنت أستطيع أن أقرأ فى تياراتها المنزلقة على سطح مائها، ويدها الطرية من ندى الصباح ؛ وهى الوحيدة التى لم تطرح علىَّ أسئلة، ولم تنصب لى شراكاً، وعندما كانت تأتينى فى كل صباح، كانت تجلس على المقعد البلاستيكى الموضوع على رأس الفراش، وكانت تمد يدها حتى أضع فيها حفنة من الأوراق بها حبوب بيضاء وحمراء كانت تجعل المجانين ينامون ؛ وكانت تضغط بيدها على جبينى، فتعطينى قوتَها. ويوما ما، عرفت أننى مهيئة، ففتحت لى الباب حتى أنصرف.

لكى آكل، أو أكون فى الظل أو فى محمى من مطر الصباح الخفيف، كنت أدخل المراكز التجارية الكُبرى. وللذهاب من محطة الجريهوندز فى

المنطقة السابعة والمادا إلى سانتا مونيكا، كنت أستقل الأتوبيس لمدة ساعة أو كنت أقطع المسافة في نصف نهار سيرا على الأقدام، وعندما كنت أذهب هناك، أصبحُ في مجالي، فكنت أختفي وسط الحشود، وأتتبع الممرات، ثم أعبر الميادين الصغيرة والساحات، وأهبط السلالم المتحركة، وأصعد في المصاعد الكهربائية الشفافة، وكنت أذهب إلى أي مكان حتى إلى الأدوار تحت الأرضية، وإلى الأماكن التي تقف فيها السيارات. كنت حاذقة، فلم أكن أذهب إلى مكان بالصدفة، وكنت أعرف أي زاوية أو أي ممر. وكان المشهد مشابها للمشهد الذي كنت أراه في السابق من سطح شارع جافلو، ولكن هنا المساحة كانت شاسعة كالجزيرة، وشاسعة كقارة.

أعرف الأسماء والأوجه ورسومات واجهات المتاجر ؛ وعرفت الحراس، وهم أيضا عرفوني. أظن أنهم كانوا يرونني على شاشتهم المتلفزة ثم يعلنون الخبر: "هناك صبية غريبة، سوداء البشرة، ترتدي قميصاً أحمراً وتضع قبعة سوداء، وهناك شئ على قبعتها، نجمة أو رسم قمر... لاتبعد نظرك عنها" ؛ فكنت أراقب، وكانت هناك ظلال خلفي تقتفي أثري، كالذئاب في غابات كندا، وكأسماك القرش في خليج كوباكابانا، فكنت أجرهم خلفي، وأعلم بالضبط أين هم، وماذا يفعلون ؛ وكان بوسعي أن أضللهم متى شئت، ولكنني كنت أمزح بوجودهم خلفي وأنهم يتناوبون عليَّ ويتتبعونني بعيونهم. وفي لحظة ما، كنت أتظاهر بأنني أختبئ، ثم أختار الكثير من البذل الكشمير التي كنت أضعها على قميصي الأحمر، ثم أتردد،

وألمس الأنسجة، أشاهد بطاقات الأسعار ورأسي مائلة قليلاً كدجاجة تترصد، ثم أترك كل شئ وأرحل في خطوات واسعة. وذات يوم، تم إيقافي وتفتيشي في حجرة صغيرة على يد امرأة بدينة مخبولة، فلم تكن تعلم من تفتشها، ولم تكن تعرف أن لي عينان خلف رأسي، ومنذ أن فقدت السماع بأذني الأخرى، وأنا أرى كل شئ من على بعد كيلومترات، ويمكنني أن ألمح حركة حارس وهو يحك ما بين أفخاذه على الطرف الآخر من الصالة ؛ ولم أكن أذهب كي أسرق، لكي أمنحهم متعة متابعتي.

كنت أجرب الملابس، هذا كل ما في الأمر، وهذا أسلوبي حتى أكون شخصاً آخر، بمعنى أن أكون أنا، وكنت أجرب تنورات قصيرة من الجلد الأسود ومن حرير الرايون، وأثواب من الأسترتش الأبيض، وبناطيل ضيقة الأرجل من الجينز، وأقمصة رياضية وأقمصة من الحرير وكنز صوفية من ماركة تي. اليفجر ونوتيكا وأقمصة رياضية أكمامها طويلة من ماركة جاب وار. لوران وسي. كلان وماركة لي وأقمصة بيضاء من ماركة ال. اشلي. وكنت أذهب إلى قسم ملابس الرجال، وأقتاس البذل، و الملابس الرياضية، والبدل الأوشكوش، والسترات الواقية من الريح من ماركة ذا منز ستورات سيرزس؛ ثم أرتدي بنطالي الجينز الأسود، وقميصي القرمزي وقبعتي السوداء وأخرج. ما كنت أسعى إليه، هو انعكاسي في المرايا، فلقد كان يخيفني ويجذبني. وكنت أقول لنفسي ها أنا بعيني، ولكنني لم أعد أنا، وكنت أدور حول نفسي، وأنظر إلى الألوان الصارخة والأنسجة اللامعة. عيناي لم تعد عيناي

بل أصبحت تشبه رسومات طويلة ومقوسة على هيئة ورقة كعينى ندى، وعلى هيئة شعلة كعينى سيمون، بى تشبه التجاعيد الصغيرة الضاحكة المشابهة لركن عينى تغادير العجوزة، أو الازرقاق الدائرى العميق فى عينى حورية عندما كانت طفلتها تُولد تحت الأرض.

كنت أريد أن أتحدث مع جسدى، فأمضى نحو المرآة، على طول ممر، كأميرة فى شرفتها، وأمشى، ثم ألتفت، أتوارك، وأشعر بالنظرات مصوبة إلىّ، وعدسات أجهزة التصوير غير المرئية. فى بعض الأحيان، كانت البائعات تتوقفن وتنظرن إلىّ، أو أطفال أو فتيات مراهقات، فذات مرة، أتت إلىّ إحداهن، وكان معها بطاقة صغيرة، وطلبت منى أن أكتب لها اسمى، كما لو كنت نجمة صغيرة من هوليود، فكتبت لها: ندى مافوبا، وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها، طالعها جميل يشبه طالع قط صغير، وعيونها كانت كبيرة بنية فى شكل اللوز، وشعرها على هيئة ذيل الحصان، وكانت ترتدى بنطالاً من الجينز فضفاض جداً على جسدها، مستهلك من على الركبتين، وجعلتها تكتب لى اسمها على ورقة من مفكرتها: أنا.

وحتى آكل، كنت أشترى شواطر اقتصادية، وفى بعض الأحيان، كنت أذهب إلى المطاعم على طريق ويلشير هاليفكس وطريق لاسينجا، وكنت أفر قبل تقديم الحلوى ؛ وكان هناك رجال يدعوننى، فكانوا يتعقبوننى فى المراكز التجارية وأقتادهم حتى المقاهى، وكانوا يجلسون معى على المنضدة، وكنت أبتسم لهم وأعرف أننى لن أدفع شيئاً، وعندما يكتشفون أننى صماء،

كانوا يخــافون، أو يصبحــون أشـرار اً معـى، وكنـت آكـل وأشـرب، وقبـل أن يلحظون ذلك الأمر، أكون فى الشارع، فأعـبره مهرولـة، متخـذة الاتجاهـات المفردة. وذات مرة، كان هنـاك رجـل لم يسـدد الحسـاب للمقـهى، ودار ودار بالسيارة حتى عثر عليّ، كان فارع الطول، وسيم، حسن الملبس، ولكنـه كـان كـالكلب، فلقـد جـرى نحـوى ولكمنـى بيـده فجعلنـى أدور علـى الأرض فـى نظـارتى السـوداء وحقيبتـى التـى تنـاثرت، ولم يسـاعدنى أى شـخص علـى النهوض من على الأرض، وعلى الأرجـح أنـهم كـانوا يقولـون فـى أذهانـهم: "هاك، عاهرة تُصوب ".

قبل مجى الظلام، كنت أستقل الأتوبيس حتى الحى السابع، وكنت أمر من أمام السائق دون أن ألقى بطاقتى، وفى بعض الأحيان، كانوا لا يقولون شيئاً، وعندما كانوا يأخذون فى الغضب، كنت أقوم بحركة تدل على أننـى لا أسمع وألوذ بنفسى. ملجـأ الليـل كـان عبـارة عـن مبنـى كبير طوبـى بجـوار الاميدا، وكان هناك دوما طابور من الناس الذين ينتظـرون، معظمـهم مثلـى، جلدهم داكـن وشـعرهم أسـود. وفـى السـاعة السادسـة، كـانت تُـوزع القـهوة والشطائر، وكان عنبر السيدات من الخلف، فى منتصف مربـع عـش مُصفـر، مُزين بنباتات اليُكة[1] فى واجهـة السـماء البنفسـجية، وكـانت هنـاك صالـة استحمام مبنية بالأسمنت المطلى باللون الرمادى، حيث تغتسل السيدات فـى مجموعـات، ولم يكـن هنـاك مـن أحـد ينظـر إلى الآخـر، ولكننـى كنـت ألمـح

(1) نباتات للزينة من الفصيلة الزنبقية. (المترجم)

ظهورهن النهكة، أثداهن، وجلدهن الأصفر والأشهب والأسمر المحمر، وبطونهن المحاكة من الجروح البنفسجية، وسيقانهن المصابة بالدوالى. وهكذا كنت لا أفكر في شئ، ولم يكن لى وجود إلا بالعين، ثم كنت أتدحرج أسفل الماء الساخن الذى يلدغ فمى حيث لكمنى الشاب. كنت لا أنام، أو أنام وعيونى منفرجة.

أنقذتنى الموسيقى، فلقد رأيت بيانو رائع، لونه أسود فى بيفرلى، وفى كل مرة كنت أمر من أمامه، لم يكن فى استطاعتى أن أحيل نظرى عنه. وذات يوم من بعض الظهيرة، لم يكن هناك أناس كثير، فلقد تبدل الرجل الذى كان يحرس البيانو بشاب أشقر البشرة، يضع نظارة، ذقنه صغير جداً، وكان يشبه جان فيلان، وكان يطالع كتاباً وهو جالس على المقعد.

اقتربت من البيانو، ولمست خشبه الأسود، ولوحة مفاتيحه العاجية، ثم نظرت إلى الحارس، كان منهمكاً فى القراءة، دون أن يعيرنى انتباها. فكرت: ربما كان أصم أيضاً مثلى ؟

جلست على المقعد، ثم شرعت فى العزف، وأظن أننى نسيت العزف فى البداية، فلقد كانت أناملى تقف على المفاتيح، وكنت أسعى لإيجاد الصوت فى ذهنى، وكنت أدندن وأتمتم، وكنت أميل برأسى إلى جانب حتى أسمع الأصوات كما كانت تفعل سيمون عندما كانت تعلمنى. ثم فجأة، بدأت أسترجع. كانت أناملى تهرول على لوحة المفاتيح، كنت أجد الإيقاع والألحان، وأعيد تشكيل اللحن، وكنت أعزف لبيلى، وأعزف لجيمى

هندريكس مقطوعات منفصلة وهاوية، وأعزف كل ما كان يأتى فى ذهنى دون نسق ودون أن أتوقف، وكنت أرتجل كما كنت أفعل في شيكاغو، وكما كنت أفعل فى منزل لابيت أوكارى، وكنت أعود للوراء، وأستعيد اللحن، وكنت لا أشعر بنفسي، وكانت الأصوات تنبثق خارج سمعى، من فمى، من يدى، من جوفي. لم أكن أرى شيئاً، كانت روحى فى علبة البيانو، وفمى متثائب، وبطنى ترن، وحلقى، وحتى ساقاى، كما لو كنت أسير فى خارج المنزل تحت أشعة الشمس، وكما لو كنت أهرول.

الآن أنصت الموسيقى، ليس بأذنى، ولكن بكل جسدى، رعشة تغلفنى، تتدحرج على جلدى، تؤلمنى حتى فى أعصابى، حتى فى عظامى. الأصوات المتعذر سماعها تصعد فى أناملى، تختلط بدمى، بنفسى، بالعرق الذى يسيل على وجهى وفى ظهرى.

اقترب منى الحارس الشاب، ووقف منتصباً، منكمشاً قليلاً، ولم يكن بوسعى رؤية وجهه، ولكننى رأيت أن كثيراً من الناس كانوا يقفون فى الصالة، فى مدخل المتجر، وكان هناك أطفال جالسون على الأرض، وأزواج متشابكون، وشيوخ فى ملابس رياضية يتذوقون مشروبهم. وفى لحظة ما، رأيت الفتاة الشابة التى كانت قد طلبت منى أن أكتب لها اسمى فى مفكرتها الشخصية، آنا، كانت فى داخل المتجر، جالسة على درجة سلم الحاجز، كما فعلت أنا المرة الأولى التى سمعت فيها سارا، فى فندق الكونكورد بمدينة نيس.

من أجلهم وأجلها، كنت أعزف، فلقد عثرت علـى موسيقاى، ودق الطبول الصامت فى محطة ريومير - سيبستوبول، ومحطة تولبياك، ومحطة اوسترليتز، وصوت سيمون الذى كان ينشد سفر العودة نحو ساحل أفريقيا، وصفارات رجال الشرطة وضربات العصى التى كانت تقرع السيدور، فى شارع روبنسون في شيكاغو. لم يكن الأمر بالنسبة لى أن أعزف الموسيقى من اجلى أنا فى هذه اللحظة، فلقد أدركت أننى أعزف من أجلهم جميعاً، هؤلاء الذين كانوا يصطحبوننى: أناس أسفل الأرض، سكان كهوف شارع جافلو، المهاجرين الذين كانوا معى على ظهر الزورق، على طريق فال دى الران، وأبعد من ذلك أيضاً: الناس في سويقة دوار تبريكة الذين كانوا ينتظرون عند مصب النهر، الذين كانوا يشاهدون بشكل لامتناهى خط الأفق كما لو كان شئ ما سيبدل حياتهم، ولهؤلاء جميعاً. وفجأة، فكرت فى جنينى الذى أخذته الحُمى، ومن اجله هو أيضاً كنت أعزف حتى تلقاه موسيقاى فى المكان السرى الذى هو موجود فيه.

أسرتنى الموسيقى، كنت أسمعها تمر على جلد وجهى كما يشعر الكفيف بخشخشة الشمس وخرخرة البحر الهادئة ؛ شعرت بالدموع تفيض من عينى ؛ وكانت هذه هى المرة الأولى منذ زمن بعيد، منذ أن تجمد الحاج مافوبا بمفرده فى فراشه فى إيفرى - كوركورون.

كان بوسعى أن أعزف كذلك حتى نهاية حياتى، شعرت بأيدى الحراس التى كانت تنهضنى برفق، فمددت يدى ثانية نحو لوحة المفاتيح،

ولكن فجأة، لم يكن هناك شئ إلا الصمت ؛ وببطئ شديد كـالطواف، حملنـي الحراس على طول الصالة، وكان الناس علـى الجـانبين يصفقـون فـي صمـت، وسارت الشابة أنا خلال لحظة بجوارى، ولم تكن تصفق، ولم تكن تتحـدث، مدت يدها نحوى فحسب، وكان وجهها كوجه القط الصغير على مقربة منى، وفي لحظة رأيت عينيها المتدتين اللتـان كانتـا تلمعـان مـن البكـاء. وضعنـي الحراس في شاحنة صغيرة بيضاء، وفي مؤخرة الشـاحنة، كـان هنـاك رجـل مسن يشبه السيد رشدى، أستاذ مكتبتي، وضمني إليه كما لو كـان يعرفنـي، وكنت متعبة للغاية إلى حد أنني تركت نفسي، ووضعـت رأسـي علـى كتفـه، وأظن كثيراً أنني نمت.

نهاية، الآن أنا في مأمن، أجلس في الجو المنعش في حجرة صغيرة نظيفة يحميها بإحكام من الشمس توجهها نحو الشمال ؛ ولم تكن هناك مـن نافذة، فقط كُوة باب مسيجة في أعلى الحائط الذى لايُـرى منـه سوى السـماء الزرقاء في هذه الآونة . وبجوار الفراش، كان هناك مقعد بلاستيكي ومنضـدة ليلية تخفي حوضاً، وفي أحد الأدراج، أضع الحقيبة السوداء التي رحلت بها من سان بيرناردينو، تضم كل أشيائي، النظارة السوداء وقبعتي التـي شـبكت فيها قرطي الهلالي الأخير.

في كل صباح، كان يعودني الأستاذ، ولم أكـن أعرف إن كـان بحـق أستاذ، ولكنني أسميه كذلك كذكرى للسيد رشدى العطوف الـذى كـان يذهـب إلى المكتبة التـي كنـت أرتادهـا بـالقرب مـن المتحـف، وأسليه بأسلوبي فـي

الضحك بالإنجليزية والفرنسية والأسبانية. لم يكن يتكلم، بل كان يطرح على أسئلة مدونا إياها على أوراق كبيرة الحجم ينزعها من مفكرة، وكان يكتب بنوع من العصبية بأحرف كبيرة مثل: "حالتك النفسية ؟ طبقك المُسكر المفضل؟"، ولكنه كان يود كثيراً أن يعرف من أين أتيت، ماذا حدث لى، عائلتى، واسم الرجل الذى جعلنى حُبلى.

عندما كان يطرح علىّ أسئلة حول أسرتى، كنت أقول كلمات يقرئها بانتباه، وكأنها لغز: ندى، سارا، آنا، ماجدة، ماليكة. وكان يظن أننى مكسيكية أو هايتية، ربما غينية.

جائتنى شافز اليوم للمرة الأولى، ولا أعرف كيف عثرت على مكانى، فربما دلتها بطاقات المستشفى، أو لربما قرأت فى الصحيفة الإقليمية مقالاً مع صورتى فى عنوان جذاب: "هل تعرفونها ؟ "

لم تكن ترتدى ذى المرضة، ولكنها كانت ترتدى بنطالاً فضفاضاً وقميصا مُشجرا يشبه قميص امرأة حُبلى وكأنها تعاضدنى، أتصور ذلك. تعانقنا كما لو كنا صديقتين بيننا صداقة قديمة، ثم جلستْ على المقعد وجلست أنا على الفراش، وتحدثنا وضحكنا كثيراً، ثم خرجت بى إلى الحديقة. وفى هذا المكان، الذى لايشبه سان برناردينو، نحن فى مونت زيون، فى بيفرلى، وهناك نخيل وأوراق فى كل مكان، عشب شديدة الخضرة، ونقود ؛ ليس هناك أسوار ولاحراس، وبوسعى أن أسير وأرحل، وربما لهذا السبب بقيت فى هذا المكان.

كل صباح، كانت شافز تأتى إلى هنا مع الأستاذ، وعلى الأرجح أنها طلبت أجازة حتى تتغيب عن عملها، أو لربما أنا عملها، وكنا نصعد فى سيارة الأستاذ، أو نتجول فى الشوارع بالمصادفة ؛ وكان يطرح علىَّ أسئلة، ويدونها دوما فى مفكرته، فيود أن يعرف من أنا وماذا فعلت وأين تعلمت العزف على البيانو. عدنا معاً إلى المركز التجارى أمام البيانو، ولكن لم يوحى ذلك لى شئ، فلقد تبدل الحارس، ولم يعد هناك الشاب الذى كنت أحبه كثيراً، وكان البيانو ضخماً، يقف بمفرده وسط المتجر، كآلة جهنمية. حينئذ، حملتهما إلى إحدى المكتبات لكى نشترى مجلات موضة، وتصفحت كتباً بالصدفة ؛ وفجأة، تعرفت على صورة الأستاذ على غلاف كتاب فلسفة، وكان عنوان الكتاب "هيبنوس وتانتوس"، شئ من هذا القبيل، وكان مكتوباً أسفل العنوان، أدوار كلان، وكنت سعيدة لمعرفة اسمه، فبدا متضايقاً لحد ما، ولكنه كان سعيداً أيضاً، وكانت له ابتسامة صغيرة، وكانت لديه الرغبة فى أن يقول: "نعم، ها أنا ذا"، وبعد ذلك أعطانى كتابه مدوناً عليه إهداء: "إلى عزيزتى المجهولة".

وذات يوم من بعد الظهر، فُتح باب غرفتى فى زيون فرأيت مستر لروا ؛ ومع ذلك، لم يدهشنى هذا الأمر، فلقد بلغت نقطة حيث كل شئ يصبح فى آن واحد عادياً بشكل غريب وبدون سبب على الإطلاق.

وكما إن لكل شئ تفسير، أقول إنها ندى شافز هى التى دلته علىَّ، ففى كتابى "المعذبون فى الأرض"، كنت قد نسيت نسخة من عقدى مع كانال،

فهتفت إلى شيكاغو ثم جاء مستر لـروا فـي الطـائرة التاليـة، وهـو يحمـل إلى دعوة لمهرجان الجاز بمدينة نيس، وسيرى فى هذا المهرجان كل شئ، حتـى صماء تعزف على البيانو. وبنفس الاندفاع الصادق والأخرق، طلبت شافيز من المعلومات رقم هاتف جان فيلان، وسبب ذلك بلا شك حكايـة مـع انجيلينـا، لأنه وصل فى اليوم التالى، وكان من الجائز أن يترك الطبيبة الليتوانيـة، والله شهيد على أننى لم أسال أحدا شيئا.

عدت باسم آخر ووجه آخر، ومنذ زمن بعيد وأنا أنتظـر قـدوم هـذه اللحظة، إنه الانتقام، فلقد أعددت له كل شئ حتى يتـم، وربمـا فعلـت ذلـك دون أن أنتبه، وكانت سيمون التى كانت على علم بهذا الأمر، تقول دوما إنه ليس هناك شئ يحدث بالصدفة.

فى مدينة نيس، حجزت لى لجنة تنظيم المهرجان غرفـة فـى فنـدق على شاطئ البحر حيث كـان هنـاك تمثـال المـرأة البرونزيـة التـى تسعى إلى الفرار من الحوائط التى تحطمها، وكان البيـانو لا يـزال هنـاك علـى المنصـة، وكان هناك صوت ينشد على نغمة موسيقى بيلى هوليدى على الأرجح. وحـين جاء الليل، غنيت أنا أيضا أغنيتى من فوق المنصة. كنت أسير فى شوارع نيس فى الجو الخانق اللامعقول، أسفل سماء شهباء رصاصية اللون، كما لو كان فى استطاعتى أن أتعرف على شئ ما. كان الشاطئ الكبير الملـيء بـالحصى أسودا من الناس، وكانت الشوارع مزدحمة بالسيارات، وفى كل مكـان فـى المدينـة، كان هناك حشد منهك ومتوقف.

ومن المكان الذى كنت أدلف مع جيانيكو فيه، استقليت أتوبيسا على طول السيل الجاف حتى أعمدة الطريق السريع، ثم بحثت عن مدخل المعسكر. كان يبدو على أننى غدوت شخصا آخر لأننى ما إن عبرت بوابة المعسكر بين الأسلاك الشائكة، حتى سد طريقى رجل بشاحنته الصغيرة، ونظر إلى نظرة استغراب وخبث، وعندما لفظت أسم رامون يرسى، سخر منى وقال للآخرين شئ لم أفهمه، اسم لفظه بتشوه: "روسو، روسو" ؛ ثم جاء رجل آخر طويل وأنيق على الرغم من ملابسه المستهلكة، له شارب صغير، أشار لى أنه ليس هناك أحد وأن كل الناس رحلوا، ثم اصطحبنى إلى مدخل المعسكر.

حاولت أن أهتف إلى جان كى أقول له أن يأتى على الفور، كى أحدثه فى أمر طفل ننجبه منذ عودتى، ولكن بسبب فارق التوقيت، لم أتمكن من الحديث إلا لآلة الرد التليفونى، ولم أعرف ماذا أقول له، فقلت أننى سأهتف إليه ثانية. كنت أتقيا، وكان هناك ألم يلم بخاصرى، فتذكرت حورية، عندما كانت تسير فى الجبل والجنين فى بطنها، فلماذا لم تكن لدى نفس الشجاعة فى حين أنه لم يعد فى بطنى شئ؟ . فجأة، خنقتنى الموسيقى، كنت أريد الصمت فحسب، الشمس والصمت.

تركت رسالة للجنة تنظيم المهرجان، قلت فيها أننى لغيت كل شئ، وتركت الفندق بعد الظهر واستقليت قطارا ليليلا إلى سيرير[2]، ثم إلى

---

(2) منطقة فرنسية فى جبال البرينيه الشرقية تقع على الحدود مع أسبانيا. (المترجم)

مدريد، ثم إلى الجزيرة[3]، وكان الوقت وقت الإجازات الصيفية، فكان هناك سياح في كل مكان، وكانت الفنادق ممتلئة. في الجزيرة، أمضيت يومين بمقر توقف سيارات كان كثير الأتربة، وكان يعج بالسيارات المتوقفة والأكواخ. نمت على الأرض، ملفوفة في غطاء، واقتسمت الماء والفانتا والخبز مع أسر مغربية. كان أطفال الأسرة يلعبون بين السيارات المتوقفة، وكانوا يرقصون على موسيقى مذياعهم التسجيلي. من آن إلى آخر، كان هناك حراس مدججين بالسلاح يمرون من بعيد، على الجانب الآخر من ساحة الأسلاك الشائكة، وكانت الشمس تلمع في منتصف السماء البيضاء، ولكن الليل كان رقيقا ومنعشا. كنا نتحدث بالإشارة، كنا نحكي قصص، وكنا نحصي الساعات والأيام على نتيجة سنوية. في البداية، كان الأطفال يسخرون مني لأنني صماء، ثم تعودوا على ذلك ؛ وبالنسبة لهم، كنت بمثابة لعبة وليس شئ آخر.

في الليلة الثالثة، رحلنا في ناقلة السيارات، ولم أكن أعرف لماذا مكثت في هذا المكان، وتتبعت حركات الناس دون أن أفهم. لم أكن أسعى إلى ذكرياتي، ولا إلى رعشة الحنين إلى الوطن، ولم أكن أسعى إلى العودة إلى مسقط رأسي. فلم يكن لي مسقط رأس، ولا إلى الشاطئين، فشاطئ

---

(3) ميناء أسباني على مضيق جبل طارق عقد فيه مؤتمرا دوليا حول مسألة المغرب عام 1906. (المترجم)

الحالى، هو شاطئ البحيرة الكبيرة الزرقاء أسفل رياح كندا الباردة، بل على الأرجح كان ذلك الأمر خيطا يمتد حتى مركز جوفى ويشدنى نحو مكان لا أعرفه.

سافرت فى سيارة نحو الجنوب، وكانت هناك سائحات ألمانيات ترتدين الشورت، وسائحات فرنسيات تضعن قبعات فوق رؤوسهن، وسائحات أمريكيات تنتعلن أحذية التونجز، فلقد تقاطعت معهن فى الطريق، ثم سرن فى اتجاه آخر . وفى مراكش، استقليت أتوبيسا نحو الجبل ورحلت السائحات نحو البحر، إلى أغادير، اساويرا، وإلى تنتن بلاج.

فى منطقة زين تشيكا، بينما كان سائق السيارة يرتشف الشاى، اشتريت من شلوح[4] حجر أمونتى لجان، وبما أن الحجر كان ثقيلا جدا لكى احمله فى حقيبتى، أعد لى الشلوح حقيبة ظهر من حقيبة صغيرة مصنوعة من زعف النخيل، فلقد كان قويا وضخما، بشرته حمراء كهنود أمريكا، وكان يرتدى معطفا كبيرا من النسيج المسح، وأبان لى عن بطاقة بريدية أرسلها له أخوه من أمريكا، من قرية فى الغابة فى ولاية واشنطن.

---

(4) الشلوح هو اسم قبائل بربرية فى جنوب المغرب. (المترجم)

هكذا وصلت إلى فوم - زقود[5]. وإلى الجنوب منها، كان هناك طريق يؤدى إلى تاتا[6]، وإلى الشمال كان هناك طريق آخر يؤدى إلى زاجورا[7]؛ وإلى الأمام، ليس هناك سوى المناطق التى حفرتها الشاحنات وأثر سير الماعز والإبل، وهناك الأرض الشاسعة الخشنة المكشوطة، والأبيرة الجافة، والأكواخ الطينية والحجرية التى تشبه أعشاش الزنوبر.

هكذا وصلت إلى هنا، لا أريد أن أمضى أبعد من ذلك، وكأننى وصلت إلى شاطئ بحر أو إلى شاطئ مصب دون نهاية.

تركت حقيبتى والحجر الأمونيتى فى حجرة فى القرية ؛ وللمرة الأولى، أردت أن أطرح سؤالا - أحتفظ به فى فمى منذ زمن بعيد - على المرشد الذى اخترته في الفندق: "هل أختطف طفل هنا منذ خمس عشرة سنة؟"، لكننى لم أقل له شيئا. على أية حال، كنت أعلم أنه لن تكون هناك إجابة. ومنذ أن عدت إلى هذا المكان، تحسنت أذني، ولكن هل سماع أصوات وكلمات للغة ما يعد أمرا كافيا للفهم؟

الناس هنا، الناس الذين أراهم، وأناس القرى الذين لم أراهم، يتبعون هذه الأرض بنفس الدرجة التى لم أتبع بها أنا أى مكان على الأرض؛

---

(5) منطقة مغربية. (المترجم)

(6) منطقة مغربية. (المترجم)

(7) منطقة مغربية. (المترجم)

فهم يحاربون، وتملك البعض أرضـا لم تكـن ملكـا لهـم، وحفـروا الآبـار فـى الأماكن التى ليست ملكا لهم.

الناس هنا، أهل اساكا، أهل نخيلة، أهل الوجوم، أهل ولد عيسى، أهـل ولـد هـلال، مـاذا يمكنـهم أن يفعلـوا ؟، يتقـاتلون، وهنـاك الجرحـى، والموتى. النساء تبكـين، وهنـاك أطفـال يختفـون. هـذه هـى الحقيقـة، فمـاذا بوسعنا أن نفعل؟

ها أنا مطمئنة هنا الآن، الضوء الذى يحدثه السمت ناصع البياض، والشارع متصحر للغاية، والضوء يجعل الأعين تزرف دمعا، والرياح الحارقة تدحرج الثرى علـى طـول الحوائـط ؛ ولكـى أقـاوم الريـح والضـوء، اشـتريت حيكا[8] أزرق مثل نساء هذه المنطقة، وغلفـت جسـدى تاركـة فحسـب فتحـة لعينى. فى جوفى، يبـدو لى أننـى أشـعر بالضربـات الخفيفـة لطفـل سـأنجبه وسيعيش، فمن اجله هو أيضا أتيت إلى هنا فى نهاية الدنيا.

راح المرشـد نفسـه يتبعنـى فـى ذهـابى وإيـابى علـى طـول الطريـق المتصحر، وجلس على حجر فى ظـل حـائط ليدخـن سيجارة إنجليزيـة وهـو يراقبنى من بعيد. ليس من أهل ولد هلال، ولا أهل عيسى، ولا رجلا ظالما من أهل خيريوجا، بل هو فارع الطول للغايـة، يبـدو عليـه كثـيرا أنـه قـادم من المدينة، من مدينة زغورة، أو من مراكش، أو ربما من الدار البيضا أيضا.

---

(8) ثوب لونه أبيض عادة، أعتاد ردائه الناس فى بلاد المغرب العربى.(المترجم)

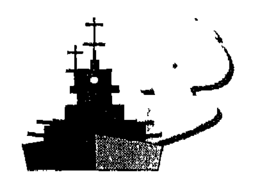
بعيدا، فى نهاية الشارع، أمام المنزل الأخير حيث تبدأ بعده الصحراء، تجلس امرأة عجوز على مقعد، وترتدى اللون الأسود أمام باب فنائها الخالى، لاتخفى طالعها بحجاب، فطالعها أسود ومجعد يشبه جلد قديم محروق ؛ نظرت إلى وأنا قادمة إليها دون أن تغض البصر، نظرتها قاسية كالحجر، وتبدو أكبر عمرا وأقسى من الحجر الأمونيتى الذى ابتعته لجان، إنها هلالية حقيقة، من الناس الذين يشبهون هلال القمر.

جلست بجوار العجوز، كانت قصيرة جدا، نحيفة جدا، تصل بالكاد إلى كتفى، كالطفلة. كان الشارع خاويا تسلخه شمس الصحراء، وكانت شفاهى جافة ومتشققة، ومنذ قليل عندما مررت عليها راحة يدى، رأيت دم. كانت العجوز لا تتحدث معى، ولم تتحرك عندما جلست بجوارها، ونظرت إلى فقط بوجهها الجلدى الأسود، وكانت عيناها لامعتين وسائلتين وفتيتين جدا.

لست فى حاجة كى أذهب أبعد من ذلك. الآن، وصلت فى النهاية إلى نهاية رحلتى. أظل هنا، وليس فى أى مكان آخر، هنا الشارع الأبيض المشابه للملح، الحوائط الساكنة، صرخة الغراب. هنا اختطفت منذ خمسة عشرة عام، منذ الخلود، على يد شخص من عصابة خريبوجا، وهى عدو لعشيرة هلال بسبب حكاية ماء، حكاية بئر وانتقام. عندما تلمس البحر، فإنك تلمس الشاطئ الآخر ؛ وهنا، عندما أضع يدى على تراب الصحراء، فأننى ألمس الأرض التى ولدت فيها كما ألمس يد أمى.

سيصل جان غدا، فلقد تلقيت تلغرافا من فندق كازا، والآن أنا طليقة، وكل شئ يمكن أن يبدأ، مثل جدى الشهير بلال - وهو إحدى الشخصيات المعروفة - العبد الذى أعتقه النبى ودفعه إلى الدنيا. خرجت الآن من زمن البحث عن الأسرة، وأدخل الآن فى عصر الحب.

قبل أن أنصرف، لمست يد العجوز الملساء القاسية وكأنها حجر التقط من قاع البحر، مرة واحدة فحسب، بحركة خفيفة حتى لا أنساها.





الفهرس



المنيا ـ شاهين ـ 6 ش أحمد عرابى
المنيا – عدنان المالكى – 6 ش 15 – شقة 1
ت 086/354576 – 012/3454568
فاكس 086/346713

دار القبس للطباعة
ت : ٣٦٤٠٨٣٥ ـ ٣٦٨٥٦٢٨ ـ ٥٢٤٣٣١٤





التناص أو التعددية اللغوية مصطلح نقدي ، يعني تعدد الأصوات اللغوية بما يصاحبه من تعدد الأطروحات الحضارية وتباينها في نسيج العمل الأدبي الواحد، وقد كانت هناك أكثر من محاولة في عصرنا الحديث لتحقيق تلك التعددية اللغوية في نصوص بعض أعظم أدباء العالم وأقدرهم علي فهم المحيط الأنساني والتعبير عن خصوصيته القومية، غير ان ذلك المشروع التأسيسي قد شارف علي الاندثار من جراء ت [illegible] القومية » ونمو الشعور المرضي بالعنصرية الثق [illegible]

وتعد رواية « سمكة [illegible] ين أهم الأعمال الأدبية التي تمثل ظاهرة التعددية [illegible] كان الباعث إلي إقدامنا علي تعريبها، هذا إلي [illegible] إلي القارئ العربي فعلي الرغم من مكانة « لكلزيو » في الأوساط الأدبية الغربية التي تعده أحد أهم أدباء فرنسا في القرن العشرين، وبالرغم من اهتمامه [illegible] بحضارة بلادنا، لا نحسبه قد نال بعد حظه من التواصل [illegible] العربية

